الأبعاد المجهولة

من مذكرات مراهق كويتي...

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
الطبعة (14)


فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الأبعاد المجهولة (1)

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول: أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

بداية لابد منها..

كتابة مذكراتي.. خطوة صعبة ترددت كثيرا قبل أن أقدم عليها.. فأنا أعلم جيدا أن مذكراتي لن تكون شيئا راقيا كمذكرات المناضل الأمريكي (مالكولم إكس).. أو (نابليون).. أو غيرهما من العظماء حيث تشكل الحوادث الصغيرة في حياتهم تاريخا حقيقيا تسترشد به البشرية.. إذاً ما الذي يجعلني أقدم على هذه الخطوة؟!.. يقال أن لا أحد يولد أديبا.. ومن يصبح أديبا يكون إما قد قرأ أطنانا من الكتب حتى أصبح لديه فكرا مستقلا يشعر بأمس الحاجة أن يشاطره الناس.. أو قد عاش تجارب قاسية جدا ورأى من الأهوال ما رأى حتى أصبح من الضروري أن يكتب عنها وإلا احترقت محركات روحه!!.

أعتقد أنني أتبع النوع الثاني من الأدباء.. فقد مررت بتجارب وأهوال لا يصدقها عقل ستسبب لك عزيزي القارئ صدمات متلاحقة.. وستحبس أنفاسك كما حبست أنفاسي.. وستجعلك في نهاية الأمر في حالة ذهول شديد إن كل هذا قد حدث في (الكويت) ولي أنا على وجه التحديد.. والواقع أن الأهوال التي رأيتها لم تكن من طراز زوجة أب قاسية أسرفت في تعذيبي.. أو تعاطي المخدرات أو.. إلخ من القصص التي قتلتها الأفلام والمسلسلات العربية قتلا.. بل هي شيء آخر يفوق الوصف ولا يصدقه عقل!!.

الغريب أنني عشت طوال سنوات عمري أيام هادئة جدا لم يكن فيها ما يستحق الذكر حتى بلوغي سن الـ 16.. فبعد ذلك بدأت حياتي تتخذ منحى آخرا بسرعة رهيبة.. حتى رأيت ما لم يره شيخ تجاوز عمره الـ 100!!..

في البداية يجب أن أعرفكم بنفسي.. اسمي (خالد).. أبلغ الـ 19 من العمر لحظة كتابة هذه السطور.. أعيش مع أحب وأطيب امرأة عرفتها في حياتي والتي بذلت الغالي والنفيس من أجلي.. جدتي الحبيبة (فاطمة).. وأعتقد أن كل الجدات الطيبات يحملن هذا الاسم.. وهي -بالمناسبة- امرأة مسالمة وديعة طيبة القلب ترتدي غطاء الرأس الأبيض المزركش الشهير الذي تشتهر به الجدات في (الكويت).. ولها ضحكة فاتنة حتى لتتمنى أن تريح رأسك على ركبتها وتقول لها (ماما).

وعلى الرغم من سنوات عمرها التي تجاوزت الـ 60.. وتجاعيد وجهها التي تدل على أنها رأت وعرفت كل شيء في هذه الدنيا كشأن العجائز في مثل سنها.. إلا أنها -ولله الحمد- بصحة جيدة للغاية.. والواقع أن جدتي هي كل عائلتي.. فقد توفي والدي قبل أن أولد لسبب ستعرفونه لاحقا.. وتوفيت بعده والدتي في حادث سير بعد ولادتي بشهرين تقريبا.. لتتولى بعدها جدتي الحبيبة رعايتي وتربيتي.. لذا فأنا أدين لها بكل شيء.

أما عن حالتنا المادية فلا بأس بها على الإطلاق.. إذ نملك عمارة سكنية اشتراها أبي لجدتي قبل وفاته لحسن الحظ.. ونعيش حاليا من دخلها الشهري.. ولأنني كل ما تبقى في هذه الدنيا لجدتي الحبيبة.. فهي لم تقصر معي أبدا.. وألحقتني بإحدى أرقى المدارس الخاصة في (الكويت) كي أحصل على أفضل مستوى تعليمي.. ولم أكن لأخيب أملها بعد كل هذا.. فكنت أفعل كل ما بوسعي كي أكون طالبا متفوقا لامعا جديرا بأن أوضع في لوحة الشرف وبشكل دائم.. وكثيرا ما سمعت أساتذتي يقولون بأنني نابغة.. وعبقري.. و.. إلخ.. ليس هذا غرورا.. بل هو رأيهم فحسب.. وبالطبع فإن هذا قد أدى إلى تخرجي من الثانوية بمعدل مرتفع للغاية أهلني للالتحاق بكلية الطب

في جامعة (الكويت) مع بداية العام الدراسي القادم بإذن الله.

أما عن صفاتي الشخصية.. فلك أن تعرف عزيزي القارئ أنني قصير القامة نسبيا.. هزيل البنية.. ملامحي عادية جدا لا يوجد ما يميزها أو يجعلك تنفر منها.. ولولا بعض التحفظ لقلت إنني أقرب إلى القبح من الجمال.

هذه هي -باختصار شديد- سماتي.. والواقع أنني لست مستاء لأني لست وسيما ولا تلهث ورائي الفتيات.. فهدفي هو أن أكون جميل العقل -إن صح التعبير- فأنا قارئ من الطراز الأول.. أقرأ كل شيء تقريبا.. ومثقف إلى درجة تثير إعجاب كل من يتحدث معي.

أما عن شخصيتي فإنني إنسان هادئ الطباع أملك عالما ذاتيا ثريا.. ومرهف الحس إلى أقصى درجة.. وقد علمتني القراءة المستمرة حب الهدوء والتواضع.. وجعلتني أعيش صراعا رهيبا بين ما يريده المجتمع للشباب من ثرثرة فارغة وسوقية وضحالة فكر.. وبين ما أرسمه لنفسي كإنسان مثقف متزن أحلم بالحصول على شهادة علمية عليا.. هذا الصراع والإحساس بالغربة جعلاني شخصا انطوائيا مكتئبا متجهما متشائما.. فمن خلال اختلاطي بالشباب في المراحل الدراسية شعرت بحالة إحباط بالغة من تفاهة المجتمع وبلاهة من ألقاهم وافتقارهم إلى الثقافة.. لأنهم كفوا عن القراءة والاطلاع منذ زمن بعيد.. وهذا ما يجعل السوقية تحقق نصرا ساحقا يوما بعد يوم.. بينما الثقافة والرقي والتهذيب لهم صوت هامس قلما يلفت الانتباه!!.. تماما كالفراشات التي تنقل حبوب اللقاح من زهرة لأخرى دون أي ضجيج.. على الرغم من أنها تمد الحياة في صمت وجمال وروعة.

لست إنسانا تعيسا إلى الحد الذي قد تظنونه.. لكني قطعا لست سعيدا.. أشعر أن لي وجودا جغرافيا في هذا العالم فحسب.. وليس لي أي وجود نفسي أو معنوي.. تماما كما يحدث عندما تذهب إلى المطعم وحيدا.. الناس معك لكنك لست واحدا منهم.. فالبرد يطل من كل ركن من حياتي.. لأنها حياة بلا أهل سوى جدتي وبلا صديق حميم أثق به وأسلم له رقبتي دون تردد.

وقد تعلمت من التجارب الرهيبة التي عشتها أن أعماق الإنسان مظلمة.. وأنه كائن متوحش لا رحمة عنده.. وأن التعليم والثقافة والحضارة ليسوا سوى تهذيبا لأظافره ومخالبه.. وفرامل على مشاعر الطمع والجشع التي تسيطر عليه!!.

نسيت أن أخبركم أنني أسكن منطقة (الرميثية).. أول حب في حياتي.. فهي المنطقة التي عشت فيها منذ ولادتي وأعرفها عن ظهر قلب وكل جزء منها له عبق الماضي الجميل -وإن لم أعشه- قبل أن يصبح العالم قاس مرعب كما هو عليه الآن من انتشار الجرائم وارتفاع معدل البطالة وانتشار المخدرات.

أعيش حاليا في حي هادئ جدا كحال معظم أحياء منطقة (الرميثية) وعلاقاتنا مع جيراننا لا تتعدى إلقاء التحية في الصباح مع زحمة الحياة وضغوط العمل والدراسة.. حتى أصبح من الصعب جدا أن يعود الإنسان إلى الماضي عندما كانت علاقة الجار بجاره كعلاقة الأخ بأخيه.

تسألونني عن أقاربنا؟!.. إنهم قليلون جدا.. وعلاقتنا بهم مقطوعة تماما لأسباب سأذكرها لاحقا.. في حين يوجد لجدتي أقارب في دولة (الإمارات) تزورهم بين فترة وأخرى وتقضي معهم فترة لا تتجاوز الأسبوعين في أغلب الأحيان.

أما بالنسبة لطموحاتي وأحلامي فهي كثيرة.. أحلم أن أكون مليونيرا.. وأن أتزوج فتاة أسطورية.. وأن

أرى العالم وأجيد عدة لغات وأكون طبيبا.. كما أتمنى أن تعطيني الحياة أمنية ذهبية.. وهي الهروب.. الهروب من الأيام التي تكرر نفسها.. ومن المحبطات التي تلتف حولي وتكاد أن تخنقني.. الهروب إلى عالم جديد ومجتمع جديد وأرض جديدة.. والأهم من هذا وذاك حياة جديدة.. فأنا لم أجد ذاتي في هذا العالم القاسي.. وأريد البحث عنه في عالم آخر.

في النهاية.. أرجو ألا تكونوا قد مللتم هذه المقدمة الطويلة.. فالقصص على كل حال لا تبدأ من ذروتها.. وهناك فترة في البداية لا بد وأن يتحملها أسرع القراء مللا.. وهي الفترة الوحيدة التي يسمح فيها للراوي أن يسرد ما يضع القارئ في جو القصة.

سأبدأ الآن بكتابة مذكراتي وكلي أمل أن تستمتع عزيزي القارئ بقراءتها بأحداثها الغريبة المثيرة ومواقفها المدهشة الرهيبة.. حتى أنني أتساءل وأنا أخطها لكم إن كانت قابلة للتصديق.. لكني سأرويها.. ويبقى التصديق أو عدمه خياركم أنتم.. كما أن استمتاع القارئ وتشويقه ودفعه إلى التأمل والتفكير وحثه على القراءة.. هي أحد أهم أهدافي وراء سرد مذكراتي.

(خالد سليمان ال...)

2004

قشعريرة!!

سأحكي لكم قصتي الأولى.. وهي رهيبة غريبة مقبضة كابوسية بكل المقاييس.. وستحبس أنفاسكم حتى آخر كلمة فيها.. وليس لي أي فضل في ذلك.. بل هو حظي الذي أوقعني بتجربة شنيعة غيرت تضاريس روحي إن صح التعبير.. لكن قبل كل شيء.. أنصحكم بقراءة هذه القصة ليلا.. فهي تحتاج إلى سعة صدر وهدوء.. كما أن لها طابعا باردا قاتما يجعل من قراءتها ليلا أفضل بكثير.. حيث تتجسد الخيالات.. وتزداد لذة القراءة ومتعة الإثارة.. قد يكون رأيي غريبا بعض الشيء لكنه منطقي تماما.. فالأمر شبيه بالموسيقى الكلاسيكية التي لا تسمع إلا ليلا.. وإلا فلن تحقق الوصول إلى هدفها.. ولا أدعي بهذا طبعا أن قصتي راقية كالموسيقى الكلاسيكية!!.

بدأ كل شيء في إجازة منتصف السنة الدراسية من عام 2001 وبعد نهاية اختبارات الفصل الدراسي الأول للصف الثالث الثانوي وحصولي -ولله الحمد-على درجات نهائية تقريبا.

قابلته في جمعية (الرميثية).. شخص ممتلئ الجسم.. له ملامح طفولية.. يرتدي قميصا واسعا وبنطلون جينز.. سد أمامي الطريق ورسم على وجهه ابتسامة ود.. فرفعت عيني نحوه متسائلا عما يريد.. ثم تأملته للحظة.. وبدأت أتذكر.

-س.. (سعد)؟!.. ألست (سعد).. زميلي في الصف الثاني متوسط؟!.

انفرجت أساريره وهو يقول:

-(خالد).. لا أصدق أنك تتذكرني!!.

كانت واحدة من تلك اللحظات الخالدة.. لحظة لقاء زميلي دراسة قديمين.. حين يتهاوى سد الأعوام.. ويبدأ كل منهما سؤال الآخر عما حدث له في حياته و.. و.. وتعانقنا..

لقد كان هذا الفتى في المرحلة المتوسطة أقرب زملائي إلى قلبي.. فقد كان يجلس بجانبي في الفصل لسنتين متتاليتين.. وهو إنسان طيب القلب وساذج إلى حد لا يوصف.. حتى لو أنك وصفت له صراعك مع ديناصور لصدّق كل حرف من كلامك دون تفكير!!.

بدأ كل منا يروي ما حدث له في السنوات الـ 5 الماضية.. فقد انتقل (سعد) منذ الصف الثالث متوسط إلى إحدى المدارس الحكومية.. وكان سبب انتقاله هو عدم قدرة والده على دفع مصاريف الدراسة الباهظة في المدارس الخاصة.. ثم.. سكت قليلا وقال مازحا محاولا تغيير دفة الحديث:

- لا شك أننا المخبولان الوحيدان اللذان سيقضيان العطلة في (الكويت).. بدلا من السفر أو التخييم في أسوأ الأحوال.

قلت مبتسما:

-في الواقع إن الجو في هذا الوقت من السنة جيد لا يشجع على السفر.. كما أنني لا أحب التخييم في البر.. وأجد الذهاب إلى السينما أو البقاء في البيت للقراءة ومشاهدة التلفاز أكثر متعة.

رد بلهفة:

-إذن لماذا لا نلتقي؟!.. هناك الكثير من الأمور التي من الممكن أن نفعلها لقتل وقت الفراغ.. إليك

رقم هاتفي.

قلت وقد شعرت أنني وقعت في مأزق:

-ي.. يشرفني هذا.

فالواقع أنني لم أكن أرغب في هذا إطلاقا.. نعم.. أنا أرتاح لهذا الفتى لكن ليس إلى درجة أن ألتقي به وأقضي معه بعض أوقات الفراغ.. لكني -ومع حماسه ولهفته-لم أكن أملك الرفض!!.

كتب لي رقم هاتفه المحمول وكتبت له بالمقابل رقم البيت لأنني لا أملك هاتفا محمولا ولا أحتاج واحدا أصلا.. وهذه هي الحقيقة على الرغم أنه من النادر جدا أن تجد شخصا في مثل عمري في (الكويت) لا يملك هاتفا محمولا.. المهم أننا تبادلنا أرقام هواتفنا على أن يتصل أحدنا بالآخر لنلتقي ونقضي بعض الوقت معا قتلا للملل.. ووعدني هو بالاتصال بي قريبا جدا لزيارتي أو للخروج معا.

زارني (سعد) أكثر من مرة بالفعل.. وقضينا معا أوقاتا لا بأس بها عندي في البيت.. وكنا في بعض الأحيان نسهر معا في غرفتي حتى منتصف الليل.. خاصة وأن جدتي كانت قد سافرت لزيارة بعض الأقارب في دولة (الإمارات) كما تفعل بين الحين والآخر.

والحقيقة أن (سعد) فتى سعيد لا توجد لديه مشاكل.. فهو إنسان عادي جدا لا يوجد ما يقال بشأنه.. ينام ويأكل ويشرب.. ويشاهد السينما ويستمع إلى الأغاني العاطفية.. إلا أنه شديد السذاجة والبساطة كما أخبرتكم.. كما أنه ثرثار لدرجة تثير غيظي أحيانا.. فهو لا يسمح لي بأن أفتح فمي لأقول شيئا واحدا.. وأفكاره سطحية جدا.. لماذا أتحمله؟!.. لأنني بين نارين.. نار الوحدة.. ونار ثرثرته.. وأحيانا قليلة أفضل إحدى النارين على الأخرى.. نعم أحب الوحدة واخترتها لنفسي.. لكنني أولا وأخيرا بشر.. وأحتاج في بعض الأوقات إلى الصحبة الآدمية.

كنت دائما أقول بأننا في عالم لا يحوي أنصاف الحلول.. إما أن تكون ظالما أو مظلوما.. خادعا أو مخدوعا.. لذا وجدت نفسي أميل إلى (سعد) نوعا ما.. فهذا الفتى مظلوم مخدوع مسروق طوال الوقت!!.. أعرف أن الشخصية السوية لا تظلم ولا تُظلم.. ولكن أين هذه الشخصية في زماننا الحالي؟!.. لذا لم أر أي ضير من قضاء بعض الوقت معه.. خاصة وأنه كان يعاملني كصديق عزيز.. كما أنني كنت أشعر بالشفقة تجاهه أيام دراستنا معا في المرحلة المتوسطة.. حيث كان مادة للسخرية من قبل بعض التلاميذ بسبب سذاجته.

كان في كل مرة يحضر شيئا من منزله لأشاركه فيه.. أحضر في إحدى المرات واحدة من ألعاب الفيديو.. وفي يوم آخر أحضر شريطا لأحد الأفلام الأجنبية لنشاهده معا.. فكانت تمر الأيام بهدوء دون أن نشعر بها.. كنا نتناول العشاء سويا وكان طعامنا دائما جاهزا من المطاعم.. فجدتي -كما أخبرتكم- لم تكن موجودة في المنزل.. خادمة؟!.. لدينا واحدة لكنها عادت إلى بلادها بعد أن سببت لنا مشاكل كثيرة لا مجال لذكرها هنا.. وقضية الخدم كما تعرفون هي مشكلة أزلية في (الكويت) وربما في كل دول الخليج.. فنحن قوم نشتري أثمن الثياب ونركب أفخم السيارات وفي نفس الوقت نجلب أرخص الخدم لتربية أبنائنا وطبخ طعامنا!!.. وعلى كل حال.. فقد تعلمت منذ صغري ألا أعتمد على الخدم في كل شيء.. لذا كنت أقوم أحيانا كثيرة بتنظيف حجرتي وكي ملابسي.. وكان هذا جزءا من تربية جدتي الحبيبة التي علمتني الإحساس بالمسئولية منذ الصغر.. ألم أقل لكم منذ البداية إنني إنسان مختلف عن كل من تعرفونهم في (الكويت).. خاصة لمن هم في مثل عمري؟!.

لم يتغير شيء ولم يحدث أي جديد إلا بعد 5 أيام من زيارات (سعد) المتكررة لي والتي بدأت خلالها أشعر بالسأم منه.. حيث زارني في تلك الليلة وهو يحمل علبة كبيرة الحجم لم أعرف كنهها.. تبادلنا التحية ودعوته للدخول.. و:

-ما هذا الذي تحمله بيدك؟!.

قال بابتسامة عريضة مليئة بفخر لم أجد له سببا:

-إنها مجرد لعبة اشتريتها منذ قرابة العامين وأردت أن نلعبها معا.. فأنا لم ألمسها قط..

-وما هي تلك اللعبة؟.

-إنها لوحة أويجا (Ouija Board).

ولوحة أويجا هذه -إن كنت لا تعلم عزيزي القارئ- هي واحدة من الألعاب التي يقال أنها تستخدم للاتصال بالأرواح لسؤالها أسئلة مستقبلية أو أي أسئلة أخرى تتعلق بالموتى.. تلك اللعبة التي تحتوي على لوحة مسطرة عليها جميع الأحرف الأبجدية والأرقام (0-9).. وثمة كوب مقلوب نضع أصابعنا عليه لتقوم الروح التي طلبناها -بواسطة تعاويذ معينة- بالإجابة على أسئلتنا من خلال تحريك الكوب ناحية الأحرف المكتوبة لتكوين كلمات هي الإجابة على كل الأسئلة ([1]1)!!.

ولكن ما كان يميز هذه اللعبة بالذات أنها فاخرة الصنع بشكل ملحوظ.. فهي مصنوعة من الخشب الفاخر ثقيل الوزن بما يشي بقيمتها المادية العالية.. لذا قلت بانبهار:

-ولكن اللعبة تبدو فاخرة جدا!!.. كم دفعت ثمنا لها؟!.

رد ببساطة:

-لقد دفعت فيها ما يعادل 300 دينار هي كل مدخراتي.

صحت بدهشة:

-ولماذا؟؟!.

-لقد أغرتني كثيرا وأحببت أن أقتنيها.. لقد قلت بنفسك للتو إنها تبدو فاخرة الصنع بشكل واضح.. كما أنها تبدو لي قديمة جدا وتذكرني نوعا ما بتلك اللعبة الخيالية (جومانجي) (Jumanji) في الفيلم الأجنبي الشهير الذي حمل اسمها.. لقد ابتعتها من أحد الباعة المتجولين في (اسكتلندا).

سألته ودهشتي لم تزول بعد:

-ألم تجد أي شيء غريب في هذا؟!.

قال بغباء وهو يمط شفتيه:

-وما الغريب في الأمر؟!.

أغاظني غباؤه نوعا ما.. فقلت بحدة لم يلحظها:

-من أين تظن لبائع متجول كما تقول بلعبة ثمينة كهذه؟!.

-الحقيقة أنني لم أفكر بذلك.. لقد أعجبني شكل اللعبة كثيرا.. فهي تحفة فنية تستحق ما أنفقته من أجلها.

قلت باهتمام:

-لو أردت رأيي فهذه اللعبة أثمن بكثير من المبلغ الذي دفعته للحصول عليها.. ويظهر أن هذا البائع المتجول قد سرقها من مكان مجهول وباعها إليك ظنا منه أنه قد خدعك.. في حين أنك أنت الذي خدعته دون أن تقصد.. واشتريتها بثمن بخس كون اللعبة تحفة أثرية ثمنها من المؤكد أكبر بكثير من مجرد 300 دينار.

سكت قليلا.. ولم يرد على كلامي.. ثم قال بحماس مفاجئ محاولا تغيير دفة الحديث:

-المهم أنني قد اشتريتها الآن.. هه؟!.. هل تريد أن نجربها؟.

-وهل تصدق هذا الهراء؟!.

قلتها له بنبرة ساخرة.. فضحك (سعد) ضحكة قصيرة ليقول:

-فلنجرب اللعبة ولنرى إن كان ما يقال عنها صحيحا.. لقد اشتريتها وأخفيتها في غرفتي خوفا من أن يكتشف والدي أنني أنفقت مدخراتي كلها عليها.. هذا كفيل بإصابته بسكتة قلبية!!.

ثم أكمل قائلا:

-لقد نسيت مع مرور الوقت كل ما يتعلق بشأن اللعبة.. ولا أدري لماذا خطرت ببالي في الأمس فقط!!.. وهذا ما أغراني كي أحضرها إليك ونلعبها سويا.. هه.. ماذا تقول؟؟!.

رفضت في البداية.. إلا أنني وبعد إلحاحه وافقت.. وافقت فقط كي أسكته!!.. كما أنني لم أجد سببا لرفضي.. لأنني لا أصدق تلك التفاهات أصلا.. وقد كنت أحمقا.. كنت أحمقا بحق!!.. إذ لم أكن لأتوقع أن أبواب الجحيم ستنفتح على مصراعيها ولن أستطيع غلقها.

قمت بإطفاء النور وإضاءة مصباح أحمر صغير -لحسن الحظ وجدت لدينا واحدا-بناء على طلب (سعد) لأن الضوء الأحمر يعطي جوا للعبة على حد قوله.. إلا أن الجو الذي أعطاه هذا المصباح كان كريها خانقا وكأننا متنا وذهبنا إلى الجحيم حيث تمرح الشياطين حولنا!!.

جلست إلى جانبه.. وبدأ (سعد) بقراءة بعض التعاويذ الغريبة المكتوبة على جانب اللعبة باللغة الإنجليزية.. وبصوت حاول أن يجعله مخيفا.. ثم:

- (خالد).. سيضع كل منا إصبعا على قاعدة الكوب.. ومن المفترض أن نشعر بالكوب وهو يتحرك.. لا تقاومه.. اتركه يذهب مشيرا إلى الحروف التي ستشكل كلمات ما.. والتي ستكون الإجابة عن أسئلتنا للأرواح.. وهكذا.

هنا تذكرت شيئا:

-روح من نطلب؟!.

-آه فعلا.. لقد نسيت.. من هي الروح التي تود استحضارها؟!.

قلت له بلا مبالاة:

-من هي الشخصية التي تشعر أنها ماتت تاركة وراءها الكثير من الألغاز والتساؤلات؟!.. فليست هناك أي حكمة من طلب روح شخصية عادية!!.

وبدأ بحماس يذكر قائمة بأسماء أشهر الموتى والقتلى عبر التاريخ والذين يعتبر المؤرخون وفاتهم

لغزا حتى اليوم.. إلى أن استقر بنا الرأي أخيرا على تحضير روح (الحاكم بأمر الله).. الحاكم الفاطمي الذي أثار موته جدلا واسعا ويعتبر لغزا من ألغاز التاريخ ([2]).

-حسنا.. لنبدأ.

قرأ (سعد) التعاويذ مرة أخرى وطلبنا روح (الحاكم بأمر الله).. ثم جلسنا ننتظر.. لكن الكوب لم يتحرك إطلاقا!!.. انتظرنا مزيدا من الوقت دون جدوى.. ثم طلبنا أرواح موتى آخرين وآخرين.. و.. لا نتيجة على الإطلاق!!.. كانت التجربة فاشلة تماما كما هو واضح.. لذا قلت له وأنا في طريقي لإضاءة الصالة بدلا من المصباح الأحمر المقيت:

-يظهر أن ثمن لوحة (أويجا) الباهظ كان في جودة صناعتها ولا شيء غير ذلك.

رد متظاهرا باللامبالاة وإن كانت خيبة الأمل واضحة على ملامحه:

-من قال أنني كنت أتوقع أن يحدث شيئا أصلا.. لقد اشتريت اللعبة للسبب الذي ذكرته لك ولا شيء غير ذلك.

كان العشاء كبابا ساخنا طلبته جاهزا من أحد المطاعم.. وكان هذا كافيا لتصبح هذه اللعبة في غياهب النسيان.. جلسنا نتناول العشاء في غرفتي.. وتحدثنا بعدها في أمور أخرى وأخرى.. ثم:

-لقد تأخر الوقت.. علي الاستيقاظ مبكرا غدا للذهاب مع والدتي إلى سوق الخضاااااار.

قالها وهو يتثاءب كفرس النهر.. لينهض بتكاسل.. فصحبته إلى الباب مودعا بفتور:

-أراك لاحقا..

لقد بدأت أمل صحبة هذا الفتى بحق.. فهو لا يكف عن الاتصال بي حتى حرمني تماما من الوحدة التي أحبها كثيرا.. نعم أحتاج إلى الصحبة الآدمية أحيانا.. ولكن ليس إلى هذه الدرجة.. سأبدأ شيئا فشيئا بالتنصل منه وتقليل اتصالاتي به..

كنت غارقا في هذه الخواطر وأنا أقوم بتنظيف غرفة نومي من بقايا العشاء.. نظرة سريعة إلى صالة البيت من خلال باب غرفتي المفتوح.. مهلا.. رأيت شيئا غير عادي قطع علي حبل أفكاري!!.. لقد نسي (سعد) لعبته عندي حيث تركناها في الصالة.. هل.. هل أنا واهم؟!.. لا.. أنا لا أتخيل شيئا.. فعندما تركنا اللعبة كان الكوب الذي استخدمناه في وضع مقلوب.. ولم يحركه أحد بعدها.. بل ولم نقترب من اللعبة إطلاقا منذ تركناها.. أنا واثق من ذلك.. هرعت إلى الهاتف لأطلب رقم (سعد):

-آلو.. (سعد)؟!

-همم؟

-هل كان كوب لعبة (أويجا) في وضع مقلوب حين تركناها؟!.

قال بحيرة:

-بالطبع لا أذكر.. لماذا تسأل؟!.

قلت بشيء من التوتر وقد بدأ الفأر يلعب في عبّي:

-لقد نسيت لعبتك عندي في صالة البيت.. الغريب أنني وجدت الكوب في وضع معتدل وفوهته

إلى أعلى!!.

تساءل بغباء أثار أعصابي:

-وماذا في هذا؟!.

قلت له بعصبية:

-ألا تفهم؟!.. لقد تركنا اللعبة والكوب مقلوب.. أنا لم ألمسه وأنت لم تلمسه أيضا.. ولا يوجد أحد في البيت.. هذا يعني أن هناك من قلبه!!.

-ألا يمكن أن يكون أحدنا قد قلبه وهو شارد الذهن؟!.

قلت بصوت مرتجف:

-لم يفعل أحد منا ذلك.. أؤكد لك.. إنني خا..!!

لم أكمل الكلمة.. كنت أريد أن أخبره أنني خائف.. لكن هذا الأحمق لن يفعل سوى أنه سيخاف أكثر مني.. لذا فضلت أن أنهي المكالمة.. قلت له بأنني سأكون على ما يرام وأن عليه أن يأتي غدا ليأخذ لعبته التي نسيها عندي..

حاولت أن أقنع نفسي بأن أحدنا قد قام بقلب الكوب وهو شارد الذهن.. مع أنني رأيت الكوب قبل أن نتناول العشاء في وضعه المقلوب كما تركناه ولم يقترب أي منا تجاه اللعبة بعدها.. بل ولم أفارق (سعد) على الإطلاق أثناء زيارته لي.. إلى أن مللت من تعقيد الأمر.. حتى أنني صحت في نفسي بحنق:

- كف عن هذا الجبن يا (خالد).. الأمر لا يستحق القلق.. لقد رأيت الكوب مقلوبا.. فلنقل إنني اصطدمت به دون قصد.. فلنقل إنني أحمق.. فلنقل أي شيء..

لكن هذا لم يكن كافيا لاطمئناني.. فجلست في حجرتي قلقا متوترا بعض الوقت بفعل تأثير اللعبة.. التقطت أحد الكتب وقمت بتشغيل جهاز التلفاز.. أحتاج إلى صوت بشري في غرفة النوم.. فدفء الصوت البشري يلعب دورا كبيرا في إخماد بركان الخوف والشعور بالوحدة.

وبالفعل بدأ القلق والخوف يزولان شيئا فشيئا ونسيت كل ما يتعلق بتلك اللعبة السخيفة.. فلست أنا أول من يلعبها.. ولا أعتقد أن الأرواح والأشباح وكل هذه السخافات ستترك العالم وتزورني أنا وحدي.

اندمجت تماما في القراءة كما أفعل دائما قبل النوم.. إلى أن شعرت بأن جفوني قد ثقلت وشعرت بنعاس شديد.. فقمت بإطفاء النور وإغلاق جهاز التلفاز.. ثم أضأت مصباح النوم الصغير لأنام بعدها ملء جفوني.

برروووووم!!.. صوت هزيم الرعد القوي أيقظني مرتين تقريبا لأسمع بعدها صوت الأمطار الغزيرة في الخارج.. إلا أنني كنت أعود إلى النوم شاعرا بالأمان والدفء تحت أغطيتي الثقيلة بعيدا عن البرد والأمطار وكل هذا الزمهرير.. وفي المرة الثالثة لسماعي صوت الرعد المدوي.. صحوت مفزوعا.. لأرى الظلام.. الظلام فقط!!.. وأدركت أن التيار الكهربائي قد انقطع.. فحتى إضاءة الصالة التي كنت أراها من تحت فتحة الباب كانت مطفأة!!.

أنا أكره الظلام.. كنت في السادسة من عمري حين أصاب الحي مس كهربائي انطفأ على إثره النور..

لقد صرخت حينها.. وصرخت.. لأجد فجأة نور الشمعة الخافت وجدتي الحبيبة تربت على رأسي:

- لا تخف يا (خالد).. لقد تعطل التيار الكهربائي وأنت نائم يا بني.. لا تخش شيئا.. سأكون بجوارك.

ولم تتركني إلا بعد أن نمت في فراشي مطمئنا.. كم أعشق حنانها.. كم أعشق حبها.. وكم أفتقد أيام الطفولة السعيدة.. حين كنت أنهض صارخا في الظلام فأجد جدتي تعانقني وتهدئ من روعي بكلمات حانية هامسة وتلثم جبيني بشفتين دافئتين.. ثم تحملني لأنام في فراشها أو تكون إلى جواري إلى أن أنام.. ما أجمل الطفولة!!.

بعيدا عن هذه الخواطر.. حاولت أن أنام مرة أخرى وأنا مندس تماما تحت الأغطية الثقيلة.. وبالفعل أصبحت قريبا جدا من النوم.. أو كما يقولون.. بين النوم واليقظة.. الأرض غافية ملتفة في الظلام.. وصوت محرك الساعة الرتيب.. أشعر وكأنني الوحيد المتيقظ في هذا العالم.. أنا والنجوم.. و.. هل أنا أحلم؟!.. لا.. هذا ليس حلما.. لقد أيقظني شيء ما.. لم تكن الأمطار أو هزيم الرعد هذه المرة.. بل هو ذلك الصوت الغريب!!.

في البداية استغرق الأمر دقيقة كي أفهم أين أنا.. ومن أنا.. وماذا أفعل في الفراش.. لا أدري كم من الوقت قضيته راقدا مذهولا بسبب ذلك الصوت.. كان هناك شيء يصطدم في الباب بإصرار مريب!!.. ليس بقوة ولكن بإصرار كأنك حبست قطة خارج غرفتك.. هرعت إلى باب الغرفة لأرهف السمع.. نعم.. هناك من يمشي في الردهة.. لص؟!.. لا شك أنه لص.. شعرت بتوتر ورعب لا حدود لهما!!.. فمشيت بخطوات مرتجفة إلى الهاتف الموجود في حجرتي للاتصال بالشرطة.. وضغطت على الرقم 7 ثلاث مرات.. لكن -وكما هو معتاد- لم يجب أحد.. أطلقت سبة وأقفلت السماعة وتوتري قد بلغ مبلغا.. وحمدت الله ألف مرة بأنني اعتدت منذ فترة طويلة أن أقفل باب حجرتي عندما أكون داخلها.. إلا أن هذا لم يطمئنني تماما.. فالشخص الذي في الخارج لم يحاول فتح باب الغرفة.. بل هو ذلك الاصطدام المخيف بالباب وكأنه لا يريد شيئا سوى إيقاظي فحسب!!.

بعد حوالي دقيقتين توقف ذلك الصوت تماما!!.. ولم أعد أسمع سوى صوت الأمطار وهزيم الرعد.. حاولت الاتصال بالشرطة بعدها أكثر من مرة.. ولكن لا رد هناك.. طبعا لكم أن تتخيلوا كيف قضيت هذه الليلة.. كانت خيوط الفجر تتسرب عبر الستائر وكان النوم قد خاصمني تماما.. وفجأة.. بعد ساعات قليلة من انقطاع التيار الكهربائي.. عاد نور مصباح النوم مرة أخرى.. وأصبحت أرى الخط الضوئي الرفيع يمر من تحت باب غرفتي.. عندها عرفت أن التيار الكهربائي قد عاد.. وقد أزال هذا الكثير من مخاوفي.. إلا أن هذا لم يمنعني من معاودة الاتصال بالشرطة مرة أخرى وأخرى.. وأخيرا..

-آلو..

- مرحبا.. اسمي (خالد ال....) وعنواني هو (......).. أعتقد أن أحدهم اقتحم بيتنا قبل ساعات قليلة.

سألني الشرطي باقتضاب:

-وهل هو موجود الآن؟!

-لا يبدو لي أنه موجود في هذه اللحظة.

ذكرت له بعدها ما كان يحدث عند باب حجرتي وصوت الاحتكاك المريب في الباب وكأن أحدهم يحاول فتحه.. وذكرت له أن هذا قد أخافني كثيرا.. خاصة وأن التيار الكهربائي كان مقطوعا و...

-لحظة يا أخ.. ولكن التيار الكهربائي لم ينقطع إطلاقا في المنطقة.. ولا حتى في حيكم وإلا لعلمنا بذلك!!!.

هذا غريب.. تخاذل صوتي حتى أنني لم أجد ما أقوله.. فأقفلت السماعة وأنا أفكر.. خرجت إلى الصالة متوجسا.. كل شيء في مكانه.. والكهرباء؟!.. قد يكون عطلا كهربائيا بالبيت فحسب.. نزلت إلى الدور الأرضي لأرى صندوق الكهرباء.. فأنا أفهم قليلا في تلك الأمور.. لا تنسوا أنني الرجل الوحيد في هذا البيت ومن الطبيعي أن أعرف شيئا ما عن مشاكل التيار الكهربائي.. ولكن.. كل شيء يبدو طبيعيا!!.

-ما الذي يحدث هنا؟!.

قلتها بصوت مسموع.. فقد بدا انقطاع التيار بهذه الصورة أمرا غريبا بالفعل!!.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة والنصف فجرا بقليل.. حاولت أن أنام لكني لم أستطع إطلاقا.. لذا نهضت من الفراش محاولا أن أفعل شيئا لقتل الوقت.. فقضيت بضع ساعات أستخدم شبكة المعلومات (الإنترنت) وذهني مشغول تماما.. أفكر بما حدث في الأمس بقلق وتوتر.

لقد زارني (سعد) بعد الظهر ليأخذ لعبته.. ولم أنس أن أكذب عليه كذبتي الصغيرة.. فقد أخبرته أنني لن أستطيع قضاء أي وقت معه في الأيام القادمة لارتباطي ببعض الالتزامات العائلية التي ظهرت على السطح فجأة.. كنت مضطرا للكذب.. لقد اشتقت كثيرا للوحدة.. ولا أريد صديقا لحوحا يتصل بي يوميا.. وقد صدق كلامي وطلب مني الاتصال به متى ما فرغت من ارتباطاتي.. فأومأت برأسي موافقا عالما في قرارة نفسي أنني لن أتصل به أبدا.

سارت بعدها الأمور بشكل عادي جدا.. إلى أن بدأت أخيرا أشعر بالنعاس في العاشرة والنصف مساء.. فأنا لم أذق طعم النوم منذ استيقاظي الإجباري المبكر جدا كما علمتم.

ذهبت إلى فراشي وغبت سريعا عن الكون من شدة الإرهاق.. و.. كيف عرفتم أن هذا سيحدث؟!.. نعم.. هذا ما حدث فعلا.. استيقظت بعد ساعتين تقريبا لأجد التيار الكهربائي مقطوعا مرة أخرى!!.. لا يمكن أن تتكرر الصدفة بهذه الصورة.. والمصيبة أن الذي أيقظني هذه المرة ذلك الصوت نفسه الذي يوحي وكأن أحدهم يصطدم بالباب بإصرار هادئ مريب!!.. لا أدري لماذا شعرت هذه المرة بأن الأمر يتجاوز الماديات.. العرق بدأ ينحدر على جبيني.. والصراع في روحي قد بلغ الذروة بلحظات.. قلبي يخفق كالطبل.. ودمي يفور.

هنا.. قررت أن أفعل أحمق شيء قد تتصورونه.. نهضت من فراشي لأرى ذلك الشخص أو (الشيء) الذي يصطدم بالباب!!.. لم تكن هذه شجاعة مني.. بل فضول.. فضول غبي.. وما أن اتخذت هذا القرار حتى بدأت أشعر بيدي وكأن وزنها قد ازداد كثيرا حتى بت عاجزا عن رفعها بسبب وزنها الثقيل.. صوتا في أعماقي يصرخ بي: لا تفعل!!.. بالله لا تفعل!!.

حاستي السادسة تصرخ مهيبة بي أن أتراجع.. يدي تتردد ثم تتقدم.. لكني أعالج قفل باب الغرفة رغم كل شيء.. الصوت في أعماقي يتعالى ويصرخ بجنون: بالله عليك!!.. كف عن اللعب بالنار.. فيجيب صوت العقل في رأسي: ولكن ماذا لو تكرر الأمر غدا وبعد غد؟!.. يجب أن أعرف مصدر هذا الصوت!!.

الشعر على ساعدي انتصب من شدة الرعب.. تماما كما يحدث لفراء القطة حين تدلكه حتى تملأه الكهرباء الاستاتيكية.. لكن.. عندما خرجت من الغرفة.. لم أجد شيئا إطلاقا!!.. هذا غريب.. كان هناك نور بسيط في الصالة بسبب الشباك الكبير الذي تسلل إليه نور مصباح الشارع.. تشجعت قليلا وقررت النزول إلى الطابق الأرضي لأحضر بعض الشموع إلى غرفتي لإنارة المكان بدلا من هذا الظلام المخيف.. فقد نسيت أن أفعل هذا في الصباح.. كيف كان لي أن أعرف أن التيار الكهربائي سينقطع مرة ثانية؟!.. سأتصل في الصباح بطوارئ الكهرباء ليجدوا حلا لما يحدث هنا.

شعور غريب ينتابني بأنني مراقب.. متى يشعر الإنسان أنه مراقب؟!.. إنه ذلك الشعور الخفي الذي نطلق عليه أحيانا اسم: الحاسة السادسة.. الحذر والتوتر يحرقان أطراف أصابعي حرقا.. ولو أن عصفورا غرد لوثبت مترين في الهواء..

ثم.. حدث شيئا كاد أن يصيبني بسكتة قلبية.. ففي طريقي إلى الدرج للنزول إلى الدور الأرضي.. لمحت خيالا في صالة البيت.. فوثبت للوراء برد فعل غريزي لأرى القادم.. صحيح أن الرؤية غير واضحة بفعل الظلام.. لكني استطعت أن أرى.. لقد كان هذا خيال امرأة!!!.. امرأة عجوز!!.. هل أنا أخرف بفعل توتري والظلام الذي يخيم على المكان؟!.. لا.. أنا لا أخرف ولا أتخيل شيئا.. إنني أرى امرأة عجوزا بيضاء الشعر طويلة مسربلة بثوب أسود طويل تجوب الصالة بهدوء مثير وبخفة متناهية بحركة انسيابية رشيقة لا تصدر من عجوز.. بل لا تصدر من إنسان أصلا!!.. لا يوجد أي نوع من الانبعاج تحت ثوبها يوحي بحركة القدمين.. وكأنها لا تمشي.. لكنها تمشي إن فهمتم ما أعنيه.. كانت تهيم في الصالة دون هدى وكأن عقلها في عالم آخر.

أحسست بعمودي الفقري يتجمد!!.. وقلبي يكاد يثب في حلقي.. لم تكن المرأة تبدو وكأنها انتبهت لوجودي.. تنحنحت لأبدأ الكلام.. فقد انحشرت الحروف في حلقي.. قلت بصعوبة وأنا أرتجف وأسناني تصطك:

-م.. م.. م.. ماذا ت.. تفعلين هنا أيتها المرأ.....

لم أكمل عبارتي.. فقد التفتت إلي.. ورأيت وجهها!!.. وكدت أن أصاب بالشلل من هول ما رأيت.. أرجوكم أن تعفوني من وصف وجهها الذي سيظل يؤرق أحلامي ما حييت!!.. لقد كان وجها بشعا رهيبا لو وصفته لكم لحرمتم من النوم لفترة طويلة.. يكفي أن تعلموا أن وجهها لم يكن يمت بصلة لوجوه البشر!!.. وقبل أن أفهم أنا نفسي ما يحدث.. صرخت وصرخت حتى وثبت عيناي من محجريهما.. فالذعر الذي غمرني كان أعمق من أي تعقل.. ثم أطلقت ساقي للريح.. جريت كما لم أجر في حياتي.. نزلت مسرعا إلى الدور الأرضي وكأن كل شياطين العالم تطاردني.. الظلام الدامس جعلني أصطدم مئات المرات بأشياء مجهولة.. اصطدمت ساقي بقطعة أثاث حتى كادت أن تتحطم قصبتها.. وسقطت.. ونهضت وأنا أشهق وقلبي يتواثب كالحصان.. أتعثر مرة أخرى بقطع الأثاث.. وأنهض.. وأتعثر.. تفكيري كله قد تبدد.. هرعت إلى باب البيت.. يا للهول.. إن الباب موصد والمفتاح في غرفتي.. لقد أصابني هلع أفقدني كل قدرة على التركيز المنطقي.. لكن ما جدوى التفكير المنطقي في ظروف كهذه؟!.. رعب وحشي دفعني إلى أن أهشم قبضتي على الباب تهشيما.. أصرخ وأصرخ.. و.. فقدت الوعي!!!.

صحوت بعد فترة بدت لي قصيرة والظمأ يحرق حلقي.. ومن جديد أدرك أنني هنا بالقرب من باب الخروج وأن الرعب يقتلني.. وليته يقتلني فعليا ليريحني.. كانت واحدة من أشنع لحظات حياتي..

ولو أن أحدكم يعرف علاجا يساعدني على نسيان الذكريات المريرة فليساعدني به!!.

وقفت مشدوها مصدوما ملتصقا بالباب.. يالي من أحمق!!.. لماذا تركت مفتاح البيت في غرفتي؟؟.. لا أدري ما أفعل.. حتى لو ركلت الباب وملأت الدنيا صراخا فلا أعتقد أن أحدا من الجيران سينتبه إلا بعد ساعات أكون خلالها قد مت ألف مرة.. إنني أرتجف وقد فقدت تماما التحكم في ساقي التي راحت تهتز بقوة من شدة الخوف..

وبينما كنت غارقا في هذا الجو المرعب وملصقا ظهري بباب الخروج عاجزا عن اتخاذ أي رد فعل.. رأيت شيئا آخر أصابني بشلل لحظي!!.. خيال رجل جالس في ركن الصالة!!.. لم أكن قادرا على رؤية الوجه الغارق في الظلال.. كان وجهه خارج دائرة الضوء.. والواقع أن هذا قد أخافني أكثر بكثير مما لو كنت أراه بوضوح.. لأن الخيال مخيف أكثر من الواقع بمراحل.. لكني على الأقل فهمت تلقائيا أن الأمر يتجاوز حدود الماديات بالفعل.. وأنه يتعلق بشيء من عالم ما وراء الطبيعة.. شيء هو أكثر غموضا من مجرد لص في البيت!!.

ثم تذكرت أنني لم أشاهد شيء في غرفتي.. نعم.. يبدو لي وكأنها أكثر أمنا من أي مكان آخر في البيت.. هرعت راكضا إلى غرفتي وفؤادي لا يكف عن الوثب.. لا يكف عن الخفقان بقوة.. لم أنتبه إلى وجود المرأة العجوز أو أي أحد آخر.. دخلت غرفتي وأقفلت الباب.. ثم دسست نفسي تحت اللحاف وأنا ألهث بقوة من هول الموقف.. لأسمع بعد لحظات قليلة صوتا جمد الدماء في عروقي.. صراخ طويل شنيع منبعث من الدور الأرضي وكأنه قادم من أعماق الجحيم.. حتى الإنسان الذي يلتهمه ذئب في تلذذ لا يجد ضرورة قوية لأن ينهك حنجرته بمثل هذه الصرخة.. لا يوجد في الكون كله حافز يدفعك لأن تصرخ بهذا الشكل!!.

المصيبة أن هذا لم يكن كل شيء.. فهناك صوت آخر قوي متحشرج مصحوب بنحيب مخيف وكأنه لإنسان يتألم.. الصوت هذه المرة كان في غرفتي نفسها وعلى بعد مسافة قريبة جدا من فراشي!!.

ظللت في فراشي متكورا مندسا تحت اللحاف وجسدي يرتجف بأكمله.. تخيلوا أنني ظللت هكذا لأكثر من 3 ساعات قبل أن أشعر بنور الشمس الحبيب يدخل غرفتي على استحياء.. عندها فقط جرؤت على الخروج من تحت اللحاف.. وبالطبع ارتديت ثيابي بأقل من دقيقة لم أر خلالها أو أسمع أي شيء غير عادي.. ولم أنس هذه المرة مفتاح باب البيت.. لأهرع بعدها إلى الخارج حيث الفجر والصحبة الآدمية التي بدت لي وكأنها أروع شيء في الكون!!.

لا أدري أين أذهب.. فلا يوجد لي أي أقارب أو أصدقاء في هذا العالم.. كم شعرت بمرارة.. هل أنا وحيد بالفعل إلى هذه الدرجة؟!.. أعترف أنني دائما ما أكون سمجا قليل الكلام معدوم الدعابة بطيئا في ردود الأفعال.. مما جعلني جديرا بهذا السجن الانفرادي.. ولم أجد في المدرسة قط من يشاركني هذا السجن الذي اخترته لنفسي.. سأطلب من جدتي حين تعود ألا تتركني أبدا مرة أخرى.. لكن المصيبة أنها لن تعود من السفر قبل أسبوع من الآن.

رحت أجوب الطرقات دون هدى.. لا أعرف أين أذهب.. حتى مرت الساعات سريعة فاعتزمت الذهاب إلى أحد المقاهي لتناول الغداء على الأقل ومن ثم الجلوس والتفكير لما حدث لي في الأمس.. قمت بإيقاف سيارة أجرة.. لحسن الحظ وجدت واحدة.. فسيارات الأجرة في (الكويت) قليلة.. وذهبت إلى أحد المقاهي التي تزخر بها منطقة (السالمية).. هذا هو كل ما أصبو إليه.. دفء الصحبة الآدمية وأنفاس شخص أعرف يقينا بأنه ليس جنيا ولا شيطانا ولا مسخا.. صحيح

أن كثير من الشباب يبدون كهذا كله.. لكنهم بالتأكيد أهون بكثير من الأهوال التي رأيتها.. وهناك جلست لتناول وجبة الغداء وذهني مشغول تماما.

كان المقهى عامرا بالزبائن وأغلبهم من الشباب.. ولم يفتني بالطبع أن أنظر إلى حالهم المزري.. يجلسون ويشربون (النارجيلة) أو (الشيشة) كما نطلق عليها في (الكويت).. ويتبادلون السباب والبصاق والصراخ.. إن أغلبهم ضائع تماما.. كيف تتناسى الدولة أمر هؤلاء وتكتفي فقط بذكر الاسطوانة المشروخة التي مللنا سماعها: الشباب هم رجال المستقبل؟!.

طردت تلك الأفكار من ذهني لأفكر بمصيبتي.. وطلبت من أحد عمال المقهى ورقة وقلما لأرتب أفكاري.. يجب أن أقوم بترتيب أفكاري كما أفعل دائما عندما أكون مشوش الذهن.. ثم رحت أسطر النقاط التالية:

1. لقد بدأ كل شيء بسبب لعبة (أويجا) اللعينة هذه.. يصعب هنا ألا أربط بينها وبين تلك الأشياء الشنيعة التي ظهرت.. فالأمر يبدو واضحا.

2. مصدر هذه اللعبة مجهول تماما.. ويظهر أن الشخص الذي باع اللعبة ل(سعد) كان قد سرقها من مكان ما ولم يعرف قيمتها الحقيقية.. فهي تبدو لي قديمة جدا وصناعتها فاخرة.. من المفترض أن تكون أغلى بكثير من المبلغ الذي دفعه (سعد).. قد يكون أحدهم استخدمها قديما - بواسطة السحر مثلا- للاتصال بالأرواح أو ما شابه ذلك.. فأنا أعلم جيدا أن السحر ليس له مقاييس وينتمي لعالم مرعب يتجاوز حدود الماديات.. كما أعرف حق المعرفة أن (اسكتلندا) - وهي المكان الذي اشترى منه (سعد) اللعبة- تعج بالقلاع التاريخية التي نسجت حولها قصص الأشباح.. حتى أن بعض الساخرين اعتبروا الأشباح اسكتلندية الجنسية!!.. إن ربط السحر بالموضوع أمر وارد جدا.. لكني لن أعرف الإجابة على هذه النقطة أبدا.

3. الأشياء المريعة التي ظهرت لي قد تكون أشباح.. أو جن.. أو شياطين.. لا أعلم بالضبط.. ولن أعرف الإجابة على هذا السؤال أيضا.. ولكن ما هو مؤكد أن ما ظهر لي لم تكن أشباحا ضبابية ككل الأشباح التي تحترم نفسها.. بل كان تجسدها ماديا كاملا.. وقد ذكرني هنا بما قاله الكثيرون ممن ادعوا مشاهدتهم لأشباح.. فقد ذكروا أنها بدت لهم حقيقية أكثر من اللازم وليس لها هذا الحضور الطيفي كما صورته السينما.. الفارق الوحيد هو أن شكل (الأشياء) التي ظهرت لي كان مخيفا للغاية.

انتابتني قشعريرة غزت عمودي الفقري وأنا أتذكر ملامح تلك العجوز التي رأيتها في البيت.. فقمت بالاستعاذة من الشيطان الرجيم.. وحاولت أن أكمل ما كتبت محاولا وضع النقاط على الحروف.

4. ما سبب انقطاع التيار الكهربائي؟؟.. أيضا لا أدري.. إلا أنني عرفت فيما بعد أن الأمر قد يكون مرتبطا بالأشباح أيضاً.

5. بدأت أكره (سعد) كثيرا وسأنهي علاقتي به منذ هذه اللحظة.. من المؤكد أنه سيتصل إن عاجلا أم آجلا ليزورني أو لنخرج معا.. لكني سأظل أعتذر حتى يمل ويتركني في حالي.. وليذهب إلى الجحيم!!.

6. الأهم من كل النقاط السابقة: يجب أن أجد مكانا أبيت فيه اليوم!!.. هل تظنون أنني أستطيع المبيت في البيت بعد كل ما حدث فيه؟!.. لو كانت جدتي ستعود غدا مثلا لقضيت اليوم كله في

الشارع انتظارا لعودتها.. أشعر بأن العبء سينزاح عن كاهلي لو شاركتني جدتي تلك المصيبة.. لكن عودتها لن تكون قبل أسبوع.. فما الذي سأفعله طوال تلك الفترة؟!.

عند النقطة السادسة بالذات كنت أحاول أن أطمئن نفسي بأنني سأجد مخرجا.. فالشوارع ترحب بمن هم في مثل سني بعد منتصف الليل.. لكنها تقسو على النساء أيما قسوة.

وجدت أن أكثر الحلول منطقية هو أن أبيت في أحد الفنادق طوال فترة غياب جدتي.. وقد ارتحت كثيرا لهذه الفكرة.. فهي بالفعل حل مناسب.. إنني أمتلك المال الكافي للمبيت في الفندق أسبوعا كاملا.. دعكم من أنني على وشك أن أفقد وعيي من شدة الإرهاق.. فأنا لم أنم سوى ما يعادل ال 3 ساعات تقريبا في اليومين الماضيين!!.. كما أن القلق والتوتر والرعب الذي شهدته قد أنهك كل قواي.

هرعت مسرعا إلى هاتف المقهى.. وطلبت البدالة للحصول على رقم أحد الفنادق.. فأعطاني موظف البدالة رقم الهاتف بعد أن جعلني أنتظر أكثر من ربع ساعة كما هي العادة.. فاتصلت ملهوفا بالفندق.. و..

-مرحبا.. أود استئجار غرفة.

قال موظف الاستقبال بلهجة مهذبة:

-نتشرف بذلك يا سيدي.. كل ما عليك إحضاره هو عقد زواج وحضور الزوجة وتوقيعها.. و.. إلخ.

صعقت لهذا القول.. فقلت بضراعة:

-أنا غير متزوج وأريد المبيت وحدي.. سأدفع أي مبلغ تطلبونه.. أرجوك!!.

لكن رده بدا واضحا.. بل واكتسى صوته ببعض الصرامة:

- عفوا سيدي.. ممنوع منعا باتا استضافة الشباب العزب.. وهذا يسري على جميع فنادق (الكويت).

أقفلت السماعة بوجهه.. واغرورقت عيني بالدموع من شدة القهر.. إن الشباب في هذا البلد مظلوم.. مظلوم إلى أقصى حد.. يتركوننا في الشوارع دون توفير أي رعاية أو اهتمام.. والأسوأ أنهم يتهموننا بعد هذا باللامبالاة والاستهتار ويعزلوننا عن العائلات وكأننا جراثيم معدية!!.. عالم قاس بحق.. يفعلون كل شيء كي يجعلونا نجن.. فإذا ما جننا اتهمونا بالجنون وتخلصوا منا.. رباه.. أشعر وكأنني فأر وقع في مصيدة!!.. ليتني لم ألتق ب(سعد).. لقد كانت حياتي هادئة بعيدة عن كل هذه الأهوال قبل أن ألتقي بهذا الأبله.. ووجدت نفسي فجأة استشيط غضبا وأطلب رقم (سعد) دون أن أجد سببا لذلك.. وإذا به يجيب ببساطة وبصوت يوحي وكأنه كان نائما أو مسترخيا حيث رفع السماعة وهو يتثاءب:

-آآآلوووووه.

لم أحتمل أن أجده مسترخيا بينما أنا في هذا الجحيم.. فانفجر البركان من فمي قاذفا حمما كلامية لو كانت تحرق لتحول (سعد) إلى جثة متفحمة في ثوان:

-يا أحمق.. يا أغبى مخلوقات الله.. لقد كان يوم معرفتك يوما أسود لم تشرق له شمس.. والأسوأ منه يوم جعلتك تدخل منزلي.. أنت ولعبتك اللعينة هذه.. هل تعلم ما فعلت؟!.. هل.....

وكلام كثير هو مزيج من الشتائم البذيئة مع الأسف والتي لم أنطق بها من قبل.. لكنه التوتر والخوف وكل المشاعر السلبية الأخرى التي تجعل الإنسان أحيانا يفعل أشياء تخالف طبيعته.

فتلعثم بالكلام وتحدث بارتباك شديد وبكلمات غير مفهومة.. ثم شرع يسألني عما يجري لأنه لا يعرف سبب عصبيتي.. وينصحني بأن أهدأ كي لا أصاب بسكتة قلبية..

لم أرد عليه.. فقد وجدت نفسي أقوم بعمل أخرق لا طائل منه.. لذا أقفلت السماعة في وجهه دون أن أخبره شيئاً.. كما أن بعض الزبائن قد انتبهوا لصراخي.. وأنا أكره كثيرا أن أجذب أنظار الناس بهذه الصورة.

دخلت الحمام كي أغسل وجهي.. أتأمل وجهي في المرآة لأجد عينين حمراوتين بلون الدم.. أسفل كل منهما انتفاخ يشي بإرهاق لا حدود له.. متى ينتهي هذا الكابوس؟!.. خرجت بعدها من الحمام غارقا في همومي.. إنني في مأزق حقيقي.. لا أستطيع أن أعود إلى البيت.. لا أستطيع.. إن هذا فوق طاقتي.. كل شيء يبدو غريبا كريها منفرا.. كأنني في كابوس.. حتى بدت لي حياتي اليومية في المدرسة وجدتي شيئا بعيدا جدا وكأنه قادم من عالم الأحلام!!.

عدت لأجلس مرة أخرى في المقهى محاولا أن أظل مستيقظا وعالما أن هذا يكاد أن يكون مستحيلا.. إذ كنت أشعر بإرهاق ما بعده إرهاق بعد أن شربت أقداح لا حصر لها من القهوة حتى التهبت معدتي.. لكن دون جدوى.. من يستطيع أن يظل مستيقظا طوال هذه المدة؟!.. أعتقد أنه لا يفعلها سوى هواة تحطيم الأرقام القياسية وفقراء الهنود الذين يقومون بعجائب لا حصر لها.

أحاول أن أبحث عن حل منطقي.. في البداية فكرت بالسهر حتى شروق الشمس لأذهب بعدها إلى البيت لأنام.. ومن ثم أستيقظ مساء لأخرج.. فالأهوال التي رأيتها لم تكن تظهر سوى في المساء؟!.. لكن المشكلة أنني لا أستطيع أن أظل مستيقظا إلى صباح الغد.. هذا مستحيل تماما.. إنني بالكاد أستطيع أن أفتح عيني الآن.. فما بالكم في الانتظار يوما آخر.. دعكم من أن البيت أصبح مخيفا للأبد وفي كل الأوقات.. ولو دخلت بيتك يوما ورأيته مليئا بالثعابين فلا أعتقد أنك ستستطيع أن تبيت فيه ليلة واحدة.. حتى وإن تم تطهيره.. سيظل ملوثا بنظرك إلى الأبد.

جلست أفكر بحل آخر.. النوم بأحد المقاهي؟!.. غير مسموح به بالطبع.. ولو فعلت لأيقظني أحد العمال ليخبرني بذلك.. وكأن هذه المقاهي مراكز لأبحاث الفضاء!!.. و.. بعد ساعة من التفكير والتوتر.. اتخذت قرارا قد يبدو غريبا.. فقد قررت العودة إلى البيت!!.. نعم.. لا يوجد لدي حل آخر.. لقد أدركت حينها كم أن مقولة: (النوم سلطان) صادقة.. صادقة إلى حد يثير الغيظ.. فالنوم بالفعل سلطان ينحني له أكثر الناس هيبة وقوة.

تذكرت هنا رواية قرأتها منذ فترة طويلة عن رجل ارتكب جريمة قتل في القرون الوسطى.. كانت الشكوك كلها تحوم حوله لكنه ظل يرفض الاعتراف.. فخطرت للقاضي فكرة غريبة نوعا ما.. حيث أمر بمنع هذا الرجل من النوم لـ 4 ليال متواصلة.. وفي بداية الليلة الخامسة سمحوا له بالنوم بعد أن بلغ الإرهاق منه مبلغا وكان على وشك الجنون.. وبعد نومه بنصف ساعة فقط ألحوا عليه بالسؤال إن كان قد ارتكب جريمة القتل تلك أم لا.. وسألوه أين خبأ سلاح الجريمة.. فاعترف وأجاب على كل أسئلتهم دون أن يدري وهو بين النوم واليقظة!!.. ليأمر القاضي بعدها بإعدام الرجل بالطبع.

هذه القصة هي مثال بسيط جدا لحالتي.. فأنا على استعداد للتضحية بنصف عمري من أجل النوم لبضع ساعات.. حتى أنني لم أعد أهاب الأشباح والشياطين.. أريد أن أنام ملء جفوني.. أنام

في فراشي أو قبري.. لا يهم!!.

خرجت متثاقلا مهموما من المقهى بعد أن طلبت سيارة أجرة لتوصلني إلى البيت الذي أصبحت أخشاه أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم.. كنت طوال الطريق أتخيل نفسي كالمحكوم عليه بالإعدام الذاهب إلى حبل المشنقة.. لكن ليذهب كل هذا إلى الجحيم.. أريد أن أنام وليحدث ما يحدث!!.

توقفت سيارة التاكسي أمام البيت.. فنزلت منها واستدرت لأشاهد بيت الأشباح!!.. اسم مبتذل سخيف لعشرات القصص والأفلام.. لكن ما باليد حيلة.. فهو بالفعل بيت أشباح.. وأي أشباح؟!.

مشيت نحو البيت وأنا أشعر وكأنني ثابت وهو يقترب مني باستمرار.. السور الحديدي الصدئ وحديقته الصغيرة المهملة المتشابكة الغصون والأوراق التي تلتف وكأنها تتلوى ألما حول بعضها بعضاً.. إن هذا البيت مسرح ستؤدى عليه ليلا مسرحية شديدة البشاعة والهول.. ستكون ليلة طويلة حقا.. أعلم أن الأشباح لن تقتلني.. فهي لا تضر سوى المعنويات.. لكنها تثير الرعب وتخالف نواميس العالم الذي نعرفه.. هذا يكفي لجعلي أقشعر خوفا.. وهذا أسوأ بكثير من الموت يا رفاق.. إنني أفضل أن أموت ألف مرة على أن أرى ما رأيته في الأمس وما سأراه اليوم.

راودتني هذه الخواطر وأنا ما زلت واقفا أمام البيت وقد بدا وكأنه وحش أسطوري رهيب يرمقني بكراهية.. كما لعبت الأشجار دور ستار المسرح لهذا الرعب درامي الطابع.. لقد أصبح البيت شبيها ببيوت الرعب في السينما.. وأنا لم أبق به إلا لأنني لا أجد مكانا آخر.. هذه من الليالي النادرة التي يحدث فيها شيئاً كهذا.. أن تنتظر الكابوس ولا تندهش لقدومه.. وأن يكون متجسدا أمامك!!.

أسمع ضوضاء قادمة من ديوانية الجيران.. وضحكات الشباب التي توحي بأنهم يلعبون الورق.. فكان الحنين يغمرني لرفقتهم وممارسة مرح الشباب الذي أنا جدير به.. وفكرت بالفعل أن أذهب إليهم وأقدم نفسي لهم وأطلب منهم قضاء بعض الوقت معهم.. لكني غيرت رأيي حين تخيلت الشجاعة التي سأحتاجها لأمر كهذا.. خاصة مع تفاهة وسخافة معظم الشباب.. حيث السخرية من بعضهم والحديث عن الفتيات وعن آخر أخبار الهواتف الخلوية وغيرها.. دعكم من أنه سيغمى علي بعد دقائق على الأرجح من شدة الإرهاق.

دخلت البيت أخيرا وأنا أردد المعوذتين.. أبذل جهدا خارقا للسيطرة على توتري.. إن هذه الأشياء الملعونة لا تظهر لي إلا ليلا.. أما الآن والساعة لم تتجاوز ال4 عصرا فلا أعتقد أن شيئا سيحدث.. لكن هذا لم يكن كافيا للتخفيف من حدة توتري وخوفي.. شعور مروع ظل يداهمني إنني لست وحيدا هنا.. الحضور القوي الذي لا ينكر لتلك (الأشياء) التي شاهدتها جعلني ألتفت يمينا وشمالا وأنظر خلفي كل ثانية تقريبا!!!.. لقد تأكدت أن الباب موصد بإحكام.. تفقدت خزينة الثياب.. وألقيت نظرة تحت الفراش.. فالأشياء التي لا أريدها أن تأتي قد تكون هناك.. ثم أخذت مصحف جدتي الصغير.. ووضعته تحت وسادتي.

وبرغم مئات الخواطر السوداء القلقة.. غرقت في نوم عميق جدا متوقعا ومتمنيا ألا أستيقظ منه قبل حلول النهار.. لكن.. هذا لم يحدث مع الأسف.. فقد استيقظت ليلا بصورة مفاجئة.. كم من الوقت نمت؟!.. لا أدري.. لكني فتحت عيني لسبب لا أعرفه.. ذلك الحافز الخفي المجهول الذي يوقظنا حين ينظر شخص بإمعان لوجوهنا ونحن نيام.. لم يكن هناك سوى الظلام.. الكهرباء مقطوعة لليلة الثالثة على التوالي.

-اللعنة!!.

قلتها بصوت مرتفع بدا لي مخيفا فخرست وأنا أعض على شفتي من شدة الغيظ والخوف والتوتر و.. إلخ.. فانقطاع التيار يعني أنني لست وحدي.. أحد (الأشياء) المريعة التي ظهرت لي بالأمس ستظهر الليلة أيضا.. شعور مبهم بأن الساعة الآن الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل.. كنت أعتقد بأنني لو لم أسمع تلك الأصوات المخيفة لغدوت بحال أفضل وأنا في فراشي.. لكني واهما!!.. تبا لهذا الصمت الرهيب.. صمت له كيان ملموس ثقيل أكاد أن أسمع له ضجيجا يدوي في أذني..

ظللت في فراشي فترة طويلة وقد عجزت تماما عن العودة إلى النوم.. هل أشرقت الشمس؟!.. بالطبع لا!!.. إن هذه الليلة لن تنتهي أبدا.

قررت النهوض من فراشي لإشعال شمعة.. فذلك الظلام سيصيبني بالجنون.. أخرجت رأسي من تحت الغطاء بهدوء وقلق شديدين لأجلب شمعة من أحد أدراج مكتبي.. فقد اتخذت احتياطي هذه المرة وجلبت عددا من الشموع تحسبا لظرف كهذا.. ألتفت حولي دون توقف.. عيناي اعتادتا الظلام قليلا كوني ظللت مستيقظا في فراشي أكثر من 10 دقائق.. لكن.. صبرا.. ثمة شيء ما غير مريح.. هناك جسم بجوار المرآة لم يكن موجودا في السابق!!!.. جسم له أبعاد وحدود و.. عندما دققت النظر.. وجدت قطة سوداء واقفة على قدميها الخلفيتين في زاوية غرفتي وكأنها تمثال فرعوني مقدس.. وفي عينيها ذلك البريق المخيف.. نظرة صامتة لعدة ثوان.. لتطلق القطة فجأة ضحكة بشرية واضحة!!.. وتختفي تماما!!.

رحت أتواثب قفزا كحيوان الكنغر إلى فراشي وأنا أرتجف رعبا.. لن أستطيع أن أعيش هكذا.. سأموت من شدة الرعب.. لن يتحمل قلبي كل هذا.. أسناني تصطك هلعا.. ودموعي تنهمر بغزارة.. أنا لا أفهم شيئا مما يحدث.. هذا كثير علي.

يتهددني خطر لا يجدي معه إبلاغ الشرطة ولا امتلاك سلاح.. ولا تربية كلب.. ولا تحصين النوافذ.. أليس هذا مريعا؟!.. لقد سمعت أصواتا عديدة في تلك الليلة الملعونة وأنا جالس متكور في فراشي مندسا تحت اللحاف.. لكني لن أخبركم ما هية هذه الأصوات!!.. لأنكم لن تصدقوني أولا.. ولأن جزءا من هذه الأهوال اختلط بالكوابيس التي كنت أراها حين أغيب عن الوجود.. فلم أعد أميز بين الكابوس والواقع!!.

سمعت بعدها أصواتا مخيفة في غرفتي هي مزيجا من النحيب والهمس المبهم الذي تسمعه ولا تفهم منه شيئا!!.. عندها فقط.. فقدت قدرتي على الصمود أكثر من ذلك.. سأبيت في الشارع.. أو سأرتكب جريمة حتى أبيت في المخفر.. لكني لن أبقى لحظة واحدة في هذا البيت الملعون.. لقد اتخذت قراري.. انتهى العقل.. وجاء وقت الجنون!!.. نهضت من فراشي كالملسوع واندفعت نحو الطابق الأسفل للخروج من البيت.. وتكرر مشهد الصراخ.. النهوض.. فالركض والاصطدام بالأثاث.. والصراخ مرة أخرى.. فتحت باب البيت أخيرا وأنا ألهث وأبكي.. لأصطدم بشئ ما.. فأجفلت وشرعت أوجه لكمات خرقاء وأنا أصرخ في هستيريا.. عندها فقط صوتا مألوفا يبسمل ويهتف بي بجزع:

-(خالد).. هذا أنا.. جدتك!!!.

ارتميت في أحضانها وأنا أبكي.. انفجرت ببكاء هستيري جدير بالفتيات دون أن تنطق جدتي بحرف واحد وهي مذهولة من منظري.. لكن.. يبدو أنها استجمعت أفكارها سريعا.. إذ سألتني بتوتر

شديد بعد لحظات قليلة من الصمت الذي سببته المفاجأة:

-(خالد).. ما الذي يجرى يا بني؟!.

لم أستطع أن أرد.. لا أدري لماذا عادت قبل موعدها بأسبوع لكني سعيد جدا بذلك.. قبلت يدها المعروقة الحبيبة وأنا أبكي بحرارة..

-تكلم يا (خالد).. إنك تخيفني يا بني!!!.

قالتها بانفعال وهي على وشك البكاء.. فهي لم ترني بهذا الحال من قبل!!.. لكني لم أقدر على النطق إلا بعد فترة من البكاء والنحيب والصمت.. وقد انتبهت جدتي بالطبع إلى أن التيار الكهربائي مقطوع.. فقامت بجلب بعض الشموع لتنير البيت.. عندها فقط استطعت أن أتحدث.. قلت لها كل شيء.. لكني تجاوزت الحديث عن لوحة أويجا.. فلا أعتقد أن جدتي تفقه شيئا في هذه الأمور.. ويكفيها أن تعلم أن البيت مسكون بالجن أو بالشياطين.

انتهيت من سرد الأحداث لها.. وقبل أن تقوم جدتي بأي رد فعل.. رحت أتوسل إليها أن نبيع البيت وأقول:

-ما الذي يدعونا أن نعيش في بيت كهذا يا أمي؟!.. إنه كبير جدا وقديم.. أعلم أنك تحبينه كثيرا.. ولكن لا بد من التغيير.. خاصة بعد ما حدث لي.

-أنا لا أمانع بيع البيت يا ولدي.. لا أمانع إطلاقاً.

إنها لا تقول الحقيقة.. أعلم ذلك علم اليقين.. أنتم تعرفون تمسك العجائز ببيوتهن.. لكنها تتصرف وكأن الأمر لا يعنيها كثيرا.. من أجلي فقط!!!.. كم أحبك يا جدتي.. استجمعت أنفاسي وقلت بلهفة:

-هناك الكثير من مكاتب العقار التي ستعرض البيت للبيع.. وأنا واثق أننا سنعثر على من يشتريه.

صمتت قليلا وكأنها تفكر.. ثم:

-سأترك الأمر لك يا بني.. لتفعل ما تريد.

وكان هذا الرد يكفيني.. يكفيني تماما..

لقد عرفت بعدها من جدتي أنها عادت من السفر قبل موعدها المحدد لأنها اتصلت أكثر من مرة لتطمئن علي.. وكنت لا أرد على الهاتف بسبب المصائب التي واجهتها بالطبع والتي جعلتني أمضي أكثر أوقاتي خارج البيت.. الأمر الذي أشعرها بقلق شديد وجعلها تعود في أسرع وقت إلى (الكويت) لتطمئن علي.. حيث استلت سيارة أجرة من المطار.. ألم أخبركم أنها امرأة باسلة رائعة؟!.

ولم يفتها بالطبع سماع تلك الأصوات الغريبة في الأيام القليلة التي تلت عودتها من السفر.. ولكنها أثارت إعجابي بشدة.. كانت تذكر الله وتقرأ بعض الآيات القرآنية بثبات وشجاعة تحسد عليهما.. أطال الله في عمرها.

لقد حدث كل شيء بسرعة لا تصدق.. ففي أقل من أسبوعين كانت صفقة بيع البيت قد تمت!!.. إذ قمنا ببيعه بمبلغ لا بأس به على الإطلاق.. حيث أشعرني هذا بسعادة لا توصف لأننا سنبتعد عن تلك الأهوال التي شاهدتها وكادت أن تصيبني بسكتة قلبية أكثر من مرة.. ولا أنسى أن أذكر

أنني قضيت الأسبوعين الأخيرين في غرفة جدتي.. لكن شيئا لم يحدث.. سوى بعض الأصوات المخيفة الغامضة التي كانت تجيبها أصوات أخرى أكثر غموضا.. لا.. لم تكن أصوات صراصير.. بل هي أشياء مجهولة لم يدركها الإنسان حتى الآن.. وهناك أيضا الستائر التي كانت تتموج ليلا دون أنسام وكأن هناك من يختفي ورائها!!!.. ولا حاجة لي بالطبع أن أكشف عن الستارة لأعرف ماذا يوجد خلفها.. فقد شاهدت ما يكفي.. وبالطبع فإن كل هذا قد أقنع جدتي تماما ببيع البيت الذي باعتقادي الشخصي قد تلوث إلى الأبد.

لقد انتقلنا بعدها إلى شقة حديثة راقية.. المنطقة؟!.. (الرميثية) طبعا.. ف. (الرميثية) هي جزء من روحي.. ولا يستطيع الإنسان أن يتخلى عن جزء من روحه حتى لو أراد ذلك.. كما لا أنسى أن أخبركم أنني عرفت فيما بعد أن البيت قد نجح بطرد ثلاث أسر ظننت أنها لا تعبأ بكل هذا الهراء!!..

أما بالنسبة ل. (سعد).. فقد اعتذرت له عن الطريقة السيئة والشتائم التي تلقاها مني في المقهى.. وإن لم أخبره شيئا مما حدث.. بل أعطيته أعذارا واهية جدا.. وتعذرت له بتوتر أعصابي وما شابه من الأعذار التي أدرك أنها ليست كافية.. إلا أن اعتذاري منه كان كافيا بالنسبة له -كما يقول-ومع مرور الوقت أدرك أنني أتجنبه.. إذ كنت أتنصل منه باستمرار.. إن الصداقة لا تشترى ولا تطلب.. وقد أحس (سعد) بعدم وجود مكان له في حياتي فابتعد في كياسة.. وأسعدني كثيرا أنه تصرف بذكاء هذه المرة.

لقد ظننت أن الأزمة التي مررت بها ستنتهي.. لكني كنت واهما.. كنت واهما إلى أقصى حد.. فالقصة -وأرجو ألا يثير هذا غيظكم-لم تبدأ بعد!!.

قضينا بضعة أيام ونحن نجمع أشياءنا من البيت محاولين الخروج منه في أسرع وقت ممكن.. فكنت أذهب إلى المدرسة بعد أن انتهت العطلة ثم أعود لأنهي فروضي بسرعة.. وبعدها أبدأ بجمع أغراضي الخاصة بحماس شديد.. كما كنت أقوم بمساعدة جدتي لتوضيب كل أغراضها في غرفتها.. و.. بينما كنت أعاون جدتي في جمع حاجياتها.. انتبهت لوجود خزانة حديدية صغيرة الحجم شبيهة بتلك التي نراها في السينما.. لم أعلم بوجودها من قبل!!.. فقد كانت موجودة في دولاب جدتي الذي لا أفتحه أبدا بطبيعة الحال.

سألت جدتي بدهشة:

-منذ متى وأنت تملكين هذه الخزينة الصغيرة يا أمي؟!.

-إنها قديمة جدا يا ولدي.. لقد اشتراها جدك (رحمه الله) في فترة الستينيات ووضعها في الغرفة.. كان يحفظ فيها أوراقنا الرسمية وبعض المصوغات.

-وما الذي تحويه الآن؟!

قالت دون اهتمام وهي منهمكة في ترتيب ثيابها لوضعها في الحقيبة:

-لا أدري.. إنني لم أفتحها منذ 20 عاما.. لقد كان والدك (رحمه الله) يستخدمها بعد وفاة جدك.. ولم يستعملها أحد بعده.

أثار هذا الشيء استغرابي فسألت جدتي باهتمام:

-ولكن.. ألم يثر هذا فضولك يا أمي؟!.

-لا أعتقد أنها تحوي شيئا مهما.. دعك من أنني لا أعلم أين مفاتيحها أصلا.

سألتها في حيرة:

-هل تمانعين لو قمت بفتحها أو كسرها؟!.

هزت رأسها موافقة ببساطة.

وهكذا قمت بكسر الخزينة بعد جهد جهيد.. ففتحتها ملهوفا لأرى ما فيها!!.. أوراق كثيرة.. سندات وشروط جزائية وعقود و.. إلخ.. كلها قديمة جدا تعود إلى ما قبل ولادتي.. أي أن عمرها أكثر من 17 عاما.. كما وجدت قليلا من النقود الكويتية القديمة التي كانت تطبع قبل فترة الغزو العراقي.. تحتاج هذه الأوراق إلى مزاج رائق لقراءتها.. وسأفعل ذلك لاحقا بعد الانتهاء من حزم الحقائب والانتقال إلى السكن الجديد.

بعد يومين تقريبا انتهينا من كل شيء.. وخرجنا إلى الأبد من بيتنا المشؤوم الذي كان وداعنا له متباين المشاعر.. فجدتي الحبيبة لم تنس سنوات عمرها الطويلة التي قضتها هنا على الرغم مما رأت وسمعت بنفسها في أيامنا الأخيرة.. أما أنا.. فأنتم تستطيعون بالطبع تخمين مشاعري جيدا.. لقد كنت أحب بيتنا أكثر من أي شيء.. أما الآن فهو بالنسبة لي هم ثقيل كالكابوس.. وأنا سعيد أننا تخلصنا منه.. خاصة وأن شقتنا الجديدة.. كانت جديدة بمعنى الكلمة.. تبعد عنك فكرة الجن والأشباح التي ترتبط دوما بالمباني القديمة المتهالكة -بغض النظر عن صحة الاعتقاد-وقد احتاج منا الأمر أسبوعا كاملا لنتأقلم مع السكن الجديد بعد أن قمنا بإيصال خط الهاتف وكابل التلفزيون مع باقي الخدمات الأخرى.. إلى أن انتهينا تماما من كل المسؤوليات.. حتى جاء يوم (الخميس).. وهو من الأيام السعيدة والمفضلة لدي ولدى الكثيرين.. ففي هذا اليوم لا أحد يطالبني بشيء.. لا أعمال.. لا دراسة.. لا فروض منزلية.. ولا أي شيء من أي نوع.

أجلس في غرفتي الجديدة.. ومن جهاز التسجيل ينبعث صوت موسيقى هادئة جدا.. وذلك المذاق الحزين للهواء المغسول الذي يدخل عبر شرفة غرفتي ويشتهر به فصل الشتاء.. عندها شعرت أن الوقت مناسب والمزاج رائق للاطلاع على الأوراق التي وجدتها في الخزنة الحديدية.. وهذا ما حدث بالفعل.. فقد أخرجت كل المستندات القديمة التي يعود عمرها إلى ما قبل ولادتي كما ذكرت لكم.. أريد أن أعرف ما تحويه بالضبط وبدافع الفضول لا أكثر.. وليتني لم أفعل!!.. فقد أثارت هذه الأوراق في نفسي حزنا شديدا مع مرارة وغصة في الحلق لمآس ومصائب لم أعشها لحسن الحظ.. لكنها أثرت على حياتي بشكل كبير جدا!!.. هنا يجب أن أعود بكم إلى الوراء.. إلى الماضي.. لأكشف أسرار حياتي العائلية التي أحاول أن أتجنب الحديث عنها قدر المستطاع.. ولكن لا مفر من ذلك الآن حتى تعيشوا معي أجواء القصة.

لقد كان والدي إنسانا عاديا جدا.. إلا أنه وكما يقول إخواننا المصريون -مقطوع من شجرة-فلم يكن له في هذه الدنيا سوى والدته التي هي جدتي.. وكان موظفا عاديا في إحدى الدوائر الحكومية.. ودون أن أعرف أي تفاصيل.. وقع في حب امرأة من عائلة ثرية جدا ومعروفة في (الكويت).. هذه المرأة هي أمي.. فبادلته أمي الحب.. واستمرا في قصة حبهما هذه قرابة السنتين.. إلا أن المشكلة التي نعانيها دوما في (الكويت) وفي دول الخليج عموما أعاقت تتويج هذا الحب بالزواج.. أتحدث بالطبع عن عدم التكافؤ لأسباب طائفية أو قبلية أو مذهبية أو اجتماعية أو مالية.. إلخ.. فهناك تقسيمات كثيرة جدا بين الناس لا تخفى عليكم.

فأسرة والدتي من الأسر العريقة واسعة الثراء والنفوذ ومعروفة جدا في (الكويت).. بل إن جدي

لوالدتي -وهو ما زال حيا بالمناسبة- يشغل مركزا هاما في البلد.. لذا رأت أسرة والدتي في والدي شخصا استغلاليا يريد الوصول إلى طموحه من خلال الزواج من امرأة ثرية.. بينما كان والدي يحاول جاهدا إقناعهم بحبه لوالدتي وأنه لا يهتم لثروتها.. وقد قاتلت والدتي أهلها بشراسة واستماتة من أجل حبيبها.. حتى أنهم لم يملكوا بعدها سوى الموافقة وإن كانوا لم يبتلعوا فكرة زواجهما على الإطلاق.. فتزوج الحبيبان أخيرا.. أنتم تعرفون كيف تسير هذه الأمور.. يسمونه (النصيب) أحيانا.. وأنا لا أجد اسما أفضل من تخلي أسرة والدتي عن عنادها وإصرارها على الرفض.

مرت 8 سنوات لم يرزقهما خلالها الله أطفالاً.. ومع مرور الوقت تغيرت والدتي كثيرا.. إذ بدأت تعامل والدي بكبرياء شديد وفتر حبها له بصورة واضحة.. قد يكون السبب تأثير أهلها عليها.. إذ لم يتقبلوا قط هذا الزواج رغم مرور كل هذه السنوات.. ويبدو أنهم رسخوا في دماغها فكرة أن والدي إنسان وصولي يريد أن يصل إلى طريق الثراء من خلالها بالفعل.. لذا بدأت معاملتها لوالدي تتغير شيئا فشيئا بعد عملية غسيل المخ هذه.. وبدأت توجه له إهانات كثيرة.. خاصة بعد أن افتتحت له -وبناء على طلبه- شركة كبر اسمها مع مرور الوقت بجهد والدي ومساعدات والدتي المالية.. وأصبحت والدتي مع مرور الوقت نموذجا جيدا للزوجة التي تصنع من زوجها رجلا عظيما في عمله.. ولكن ليس بالصورة التي تتوقعونها.. فقد كانت تصنع منه ذلك عن طريق تعذيبه وإرغامه على أن يغرق همومه في العمل.. ومزيدا من العمل.. دون أن تكف عن إشعاره بالفشل وبأنها منحته أكثر بكثير مما يستحق.. لذا كبرت المشاكل بينهما.. وأصبحت حياتهما لا تطاق.. فإذا تحدث والدي تثاءبت والدتي.. وإذا لم يتحدث اتهمته بأنه لا يرغب في استمرار هذا الزواج!!.

وإذا كانت الأخطاء بلا عدد والقرف بلا حدود.. فإن الصبر له حدود.. والاحتمال له حدود.. لذا فقد طفح الكيل بوالدي.. لكنه لم يقم بأي رد فعل إيجابي.. تقول جدتي إنها كانت تسمعه كثيرا وهو يبكي في دورة المياه التي تحولت عنده إلى أشبه ب(حائط المبكى).. فعادة ما يكون البكاء هو العلاج الحاسم للمقهورين.. ويظهر أن حالة والدي النفسية قد أثرت كثيرا على عمله على الرغم من إخلاصه وتفانيه.. فبدأ شيئا فشيئا بإهمال الشركة.. وبدا وكأن مشاكله الأسرية قد جعلت حاسة الكسب عنده أقل رهافة.. حتى أنه خسر مبالغ طائلة في فترة قصيرة.. وتراكمت عليه الديون.. ليصبح الحل الأخير هو السفر إلى (أوروبا) للملمة شتاته ومحاولة الحصول على مساعدة من بعض شركائه هناك.. ولكن يبدو أن الأمور لم تسر بالشكل المطلوب.. فبعد أسبوع من سفره.. وجد أنه سيقضي عمره في السجن بسبب تراكم الديون التي عجز عن سدادها.. وكان واثقا من أن أسرة زوجته المتغطرسة لن تقف بجانبه.. لذا اختار حلا رهيبا.. الانتحار!!.. نعم.. لقد وجدوا ثيابه على رمال إحدى شواطئ (هولندا).

لقد ذكر شهود عيان أنهم شاهدوا رجلا يجتاز الأمواج العاتية في جو شديد البرودة مما أثار استغراب الناس الذين تجمعوا حول الشاطئ مناجين به العودة.. إلا أنه اجتاز الأمواج غير عابئ بصرخات المنذرين.. واختفى بعدها تماما.. وأعيدت ثيابه إلى (الكويت) مع خطابا مكتوبا بخط يده كان في جيب بذلته وموجها إلى والدتي يقول فيه:

((اغفري لي يا (.......).. حياتي معك أصبحت مستحيلة.. لا أملك شيئا الآن.. ولا جدوى من الحياة بعد أن خسرت كل شيء.. خسرت حبي.. وخسرت ثروتي بعد أن فاضت بي الديون)).

إنها غريزة المنتحرين الشهيرة.. كل منتحر يحاول جاهدا أن يبرر نفسه للعالم.. برغم أنه فارقه

باختياره إلى عالم لا يحتاج إلى هذه المبررات!!.. وطبعا كان لا بد من بعض الصراخ والبكاء.. حيث انهارت جدتي تماما وقتها.. فقد كان أبي هو ولدها الوحيد الذي ربته على أفضل القيم.. لكنه بفعلته الشنيعة خذلها كثيرا.. وقامت والدتي بتسديد ديونه بالطبع.. فهي زوجته أولاً وأخيراً.. وليتها اختارت أن تسدد له ديونه قبل أن يقدم على الانتحار.. لكنها لم تتوقع منه شيئا كهذا كما يبدو.. الأمر الذي جعلها تفيق وتعرف كم كانت قاسية معه.

وما زاد القصة تعقيدا هو أن والدتي اكتشفت بعد أيام قليلة من انتحار أبي بأنها حامل بطفلها الأول!!.. الذي هو أنا.. لتكتمل بعدها المأساة.. فبعد ولادتها لي بشهرين تقريبا توفيت والدتي بحادث سيارة.. وأصرت جدتي على أن تتولى تربيتي.. وكان لها ما أرادت.. فلم تكن أسرة أمي متحمسة كثيرا لتربيتي.. ولا أستغرب هذا من والدها -جدي-المتغطرس الذي ما زلت أرى صوره في الصحف بين فترة وأخرى.. فهو شخصية مرموقة جدا في (الكويت) كما أخبرتكم.. لتنتهي الأمور بهذه الصورة.. أعيش مع جدتي ونحصل على دخل شهري من إيراد عمارة سكنية اشتراها والدي وسجلها باسم جدتي قبل تعرضه للخسارة.. وهذه العمارة هي كل ما نملك الآن بعد بيع البيت.

و.. قطع حبل أفكاري شيء أثار اهتمامي واستغرابي كثيراً.. فقد وجدت أوراقاً ومستندات رسمية تتحدث عن أسهم يمتلكها والدي في شركة أوروبية.. وفي (هولندا) على وجه التحديد!!!.. أسهم تبلغ قيمتها ما يعادل 10 ملايين دولار!!.. وتاريخ الأوراق يعود إلى ما قبل انتحار أبي بفترة بسيطة للغاية.. وما أثار حيرتي هو عدم ذكر اسم الشركة في تلك الأوراق.. وكأن المستندات ناقصة.. إن هذه الأموال كانت كفيلة دون شك بإنقاذ أبي من ديونه.. فلماذا لم يستغلها؟!.

لقد استوقفني الأمر كثيرا.. فهرعت لأسأل جدتي عن الأمر:

-أمي هل هناك أي أموال أو ممتلكات تركها أبي بعد وفاته؟!.

ابتسمت بحزن وكأنني أعدت لها ذكرى مريرة.. فسألتني بحنان:

-ولماذا تسأل يا بني؟

-لا شيء.. مجرد تساؤل.

-أنت تعلم يا بني أن والدك قد توفي معدما لا يملك شيئا.. وأن والدتك تولت دفع كل ديونه.. وعند وفاتها -رحمهما الله-رفض أهلها أن يتولوا رعايتك.. وأنا بالطبع لا أجرؤ أن أقاضي جدك كي أحصل منه على أي حق لك في الميراث.. فنحن أناس بسطاء ولا نستطيع مواجهة هؤلاء الجبابرة.

أعلم تماما أنها صادقة.. ولكن.. شيئا في أعماقي جعلني أخفي عنها ما وجدته في تلك الأوراق.. حافز خفي لا أدريه جعلني أفعل هذا!!..

عدت بعدها إلى غرفتي لأكمل قراءة كل المستندات الأخرى الموجودة علني أعثر على طرف خيط يكشف لي هذا اللغز الغريب.. ولكن دون جدوى.. أين ذهب هذا المبلغ الهائل؟!.. ولمزيد من التأكد عرضت تلك الأوراق على محام بعد أيام قليلة.. فقال لي ما توقعته:

- الأوراق التي لديك تقول أن والدك يملك أسهما في شركة هولندية تعادل قيمتها 10 ملايين دولار.. لا أعلم بالطبع إن كان لا يزال يملك هذه الأسهم.. فالأوراق قديمة جدا وناقصة.. ولا تدلنا على مكان الأسهم أصلا!!.

أكثر من 3 شهور مضت وموضوع هذا المبلغ الهائل قد استحوذ على عقلي تماما.. ذهبت إلى أكثر

من محام.. وجميعهم أجابوا نفس الإجابة.. إن الأوراق الأهم التي تبين مكان تلك الأسهم غير موجودة.. لماذا لم يستغل أبي تلك الأموال لتسديد ديونه؟!.. ظل هذا السؤال تحديداً يؤرقني كثيرا دون أن أصل إلى إجابة.

ومع مرور الأيام.. فقدت الأمل تماما بمعرفة مكان الأموال.. وانغمست في حياتي المملة.. حتى جاء ذلك اليوم.. فبينما كنت أتصفح إحدى مواقع الإنترنت وجدت بالصدفة موقعا لإحدى جمعيات الوسطاء الروحانيين.. تماما كما يوجد اتحاد للسحرة.. وغيرها من الجمعيات الأخرى الغريبة!!.. عندها فقط هبطت علي فجأة فكرة مجنونة.. طرحتها جانبا.. لكنها ظلت تلح على عقلي دون توقف.. حسنا.. لقد تلاعبت أنا بالأرواح وكنت جاهلا بالأمر.. فأصابني ما أصابني.. ولكن.. ماذا لو طلبت استشارة وسيط روحي؟!.. أي شخص يفهم بمثل هذه الأمور كي أطلب منه أن يقوم بتحضير روح والدي لسؤاله عن مكان الأموال!!.

راقت لي هذه الفكرة بشدة.. والذي أغراني بشكل أكبر هو أنني وجدت في هذا الموقع وسيطا روحيا من (الكويت)!!.. تصوروا هذا.. أعلم أن النصابين في هذا المجال لم يتركوا مكانا للصادقين -إن وجدوا أصلا-ولكن الأمر يستحق المحاولة.. إنها 10 ملايين دولار.. لا يمكن أن أتجاهلها.

لقد كان اسم الوسيط الروحي الأول مكتوبا مع بريده الإلكتروني وملاحظة تقول إنه وسيط روحي يملك خبرة طويلة ولديه أبحاث ودراسات كثيرة في هذا المجال.. وسبب ممارسته لهذا النشاط الغريب أنه يريد استكشاف المجهول.. أو للمعرفة من أجل المعرفة كما هو مذكور في الموقع.. وأنا لا استغرب ذلك.. فلكل إنسان ذوقه كما تعلمون.. وهناك عبارة لاتينية شهيرة تقول: (لا مناقشة في الأذواق).. أي أن كل شخص حر فيما يحب ويكره في الموسيقى والأدب والطعام والشراب.. والهوايات.. حتى وإن كانت تحضير الأرواح!!.

حسمت أمري وتجرأت بإرسال رسالة إلكترونية إلى هذا الوسيط طالبا منه لقاءه لسؤاله بعض الأسئلة عن تحضير الأرواح.. وما أثار استغرابي هو رده السريع.. فبعد يوم واحد فقط.. وجدت في صندوق بريدي الإلكتروني ردا منه يخبرني فيه برقم هاتفه الخلوي.. هكذا بكل بساطة!!.. وبكل بساطة أيضا.. اتصلت به.

كان صوته هادئا واثقا.. حيث رحب بي وسألني عما أريده.. فأغرقته بسيل من الأسئلة..

- كيف وثقت بي وأعطيتني رقم هاتفك من خلال الرسائل الإلكترونية؟!.. ألم تفكر للحظة بأن الأمر كمينا من رجال الشرطة؟!.. من أنت بالضبط؟!.. وكيف عرفت ما تعرفه؟!.. ولماذا لم تقبض عليك الشرطة؟!.. و..

قاطعني وهو يضحك بثقة:

-تريد أن تعرف هذا كله في الهاتف.

قلت بثبات:

-أريد أن أعرف ولا يهم أين..

-قبل كل شيء.. ما الذي يجعلك تتحدث عن الشرطة؟.

-عادة ما يقبض رجال الشرطة على من يقوم بهذه الأنشطة بتهمة النصب والاحتيال!!.

قال بنبرة واثقة:

-أنا لا أرتكب جريمة ولا أطالب بأي مبلغ مادي جراء خدماتي.. وهذا ينفي عني تهمة النصب والاحتيال.. إنني أقوم بهذا العمل حبا فيه ولدي أبحاث ودراسات كثيرة في الاتصال بالأرواح.. أي أنني لست نصابا إن كان هذا ما تريد معرفته.. وما أمارسه بعيد تماما عن السحر والشعوذة.

قلت محاولا الدخول بصلب الموضوع:

-إن لي تجربة اتصال مع الأرواح لكنها انتهت نهاية شنيعة.. لأنني لعبت بالنار كما يقولون.. لذا أنا الآن أستعين بخبير في هذه الأمور.. إن كنت حقا خبير.

رد بتواضع:

-أنا لست خبيرا.. لست سوى أحد المتعمقين في هذا العلم الذي يطلقون عليه (علم الاتصال بالأرواح).. وقد قمت بتحضير العديد من الأرواح بالفعل.. وعلى كل حال لن ألقي عليك اللوم إن لم تصدقني.. فتحضير الأرواح كالمنجم الواسع المليء بالماس.. وقد ألقى فيه النصابون أحجارا مزيفة كثيرة حتى صار من المستحيل أن تعرف الحقيقي منها ما لم تتأكد من كل حجر.

سألته وقد تذكرت شيئا:

-اغفر لي جهلي.. أريد أن أعرف أولا ما هو المقصود بالضبط بكلمة (وسيط روحي)!!.

قال باهتمام:

-أستطيع تشبيه الوسيط الروحي بمكثف جهاز الراديو.. إن الراديو يصغي إلى الفضاء الأثيري.. يفتش وسط زحام الموجات الكهرومغناطيسية حتى يجد موجة معينة.. ويضخمها ويجعلها واضحة.. بنفس المنطق يذوب الوسيط في عالم لا اسم له حتى الآن يبحث فيه عن روح شخص ما.. ويجده بنوع من العسر.. بل ويستطيع تجسيده أمامك ([3]).

أخبرته بعد ذلك -بين مكذب ومصدق- إنني أبغي سؤال روح أبي عن شيء ما.. فأعطاني موعدا لزيارته في اليوم التالي.

كان الوسيط الروحي رجل كبير في السن على عكس ما كان يوحي به صوته.. أما شكله فكان غريباً جدا.. نحيف الجسم نامي اللحية مبعثر الثياب.. شعره أبيض مشعث كضبع عجوز.. وجهه مجعد اكتسب مسحة من الجمود وفي عينيه نظرة غامضة.. باختصار.. إنه يشبه إلى حد كبير المجانين أو العلماء قليلي الاستحمام والنظافة الذين لا يغادرون معاملهم أبدا والذين نراهم في السينما.

بالطبع.. لهذا لا يمارس جميع الناس السحر أو تحضير الأرواح.. لأن أعمال كهذه تحتاج أن تكون مجنونا تقريبا.. أو أن تكون أعصابك من حديد.. شعرت لوهلة بالرغبة في نسيان كل شيء.. لكني قررت أن أستمر في حماقتي.. يقولون للمبتدئ في القيادة: إذا أخطأت فلا تتردد.. واصل حماقتك لأن التردد قد يؤدي إلى كارثة.. إذاً فلأواصل حماقتي.. والنتيجة تستحق.. إنها 10 ملايين دولار.

كانت شقته وبعكس ما تصورت خالية من الزبائن.. لأنه -وكما قال لي- يعتبر نفسه باحثا وليس نصابا يتخذ من تحضير الأرواح مهنة.. وكان أثاثها راقيا ينم عن ذوق رفيع.. لقد توقعت مكانا تقشعر له الأبدان وتفوح منه رائحة السحر والشعوذة والبخور الذي يستعمله المشعوذون عادة.. إلا أنني لم أجد شيئا من هذا.. ولم أجد تلك الكتب الصفراء القديمة متساقطة الأوراق والحواف التي نعرفها والتي تتحدث عن السحر القديم والاتصال بالجان.

إن هذه الأجواء المخيفة غريبة على شخص مثلي.. أنا الذي لا يخرج من البيت سوى نادرا..

وللذهاب للسينما فقط أو للمشاوير الضرورية.. ولكن غريزة الطمع جعلتني أفعل ما أفعله الآن.. مع الأسف لم أستطع ترويضها.

قضيت مع الوسيط الروحي بعض الوقت في الحديث عن الاتصال بالأرواح.. حيث قال باهتمام شديد:

-هناك ثغرة في هذا العالم المادي.. هذه الثغرة هي ما يتسلل إليه الروحانيون للاتصال بالموتى.. وأعتقد أن أسلوب الوسيط الروحي هو أنسب أساليب الاتصال بالأرواح في مثل حالتك هذه!!.

لم أفهم ما يعنيه.. فطلبت منه مزيدا من التوضيح.. ليكمل:

-أنت قمت بتحضير الأرواح عن طريق لوحة (أويجا) كما أخبرتني.. أما ما سأفعله فهو أن أكون أنا نفسي وسيلة تحضير روح والدك لتسأله ما شئت دون الحاجة إلى لوحة (أويجا) أو غيرها.. فالوسيط يجعل الروح والمتلقي على اتصال مباشر.. أي أنك ستستطيع أن ترى والدك وتكلمه!!.

قلت له بشيء من الحدة الممزوجة بالدهشة:

-الموتى لا يعودون أبدا.. لقد لقي والدي ربه منذ ما يقارب الـ 18 عشر عاما!!.

رد بهدوء وكأنه لم يهتم لحدتي:

-من قال لك بأننا سنعيد ميتا إلى الحياة؟!.. كل ما سنفعله هو الاتصال بروحه فحسب!!.

قلت بحسم:

-فلنبدأ الآن إذا..

دخلت معه إلى غرفة صغيرة خالية تماما من الأثاث سوى منضدة مستديرة.. فجلست قرب المنضدة.. وقام هو ليطفئ النور وأضاء مصباحا أحمر صغيرا كالذي استخدمته أنا مع (سعد) في تلك الليلة السوداء.. ما زلت أجهل سبب ارتباط المصباح الأحمر بجلسات تحضير الأرواح!!!.. لقد فاتني أن أسأل الوسيط عن هذا الأمر بعد أن رأيته يعد شريطا لجهاز التسجيل.. نظرت له مستفهما.. ليقول:

-إنها تجربة تستحق التوثيق.. فأنت أول شخص أقوم بناء على طلبه بتحضير روح ميت!!.

-كيف؟!.. إن بريدك الإلكتروني موجود في موقع تلك الجمعية على الإنترنت.

-بريدي الإلكتروني حديث عمره أقل من 5 شهور.. كما أن عدد الذين يعرفون عنوان تلك الجمعية على الإنترنت محدود جدا.. لا تنس أن هناك أكثر من جمعية للوسطاء الروحانيين.. واسمي ليس مسجلا سوى في واحدة منها فحسب.

قمت بهز رأسي عموديا كناية عن الفهم.. إن ما أفعله هو لعبا بالنار.. أدرك ذلك تماما.. لكن النار لا تحرق دائما.. أحيانا نلعب بالنار وننجو!!.

غرفة مصطبغة باللون الأحمر بفعل الإضاءة.. جو خانق كريه أعاد لي ذكرى بغيضة عندما مارست تلك اللعبة المشؤومة مع صديقي (السابق) سعد.

راح الوسيط بعدها يتلو بعض الآيات القرآنية.. ثم أغمض عينيه.. وبدأ يردد اسم أبي باستمرار -بعد أن أخبرته به- مع كلمات غير مفهومة.. أو هي مفهومة لكني لا أرغب بذكرها كي لا أنقل لكم تفاصيل تلك التجربة المروعة.. وكان صوته عميقا وكأنه يأتي من جب ساحق!!.

على الرغم من التجربة التي تعرضت لها في السابق.. وعلى الرغم من أن هذا الوسيط قد بدا رجلا واثقا من نفسه يعرف بحق ما يفعله.. إلا أن عقلي أبى الاعتراف بمسألة تحضير الأرواح تلك.. فمن الصعب جدا أن أتخيل أن روح والدي مجسدة تقف أمامي أسألها ما شئت من الأسئلة.. ولكن.. شيئا ما جعلني أنتفض بقوة.. فقد تحشرج صوت السيد (حسن) بشكل واضح.. وظهر الألم على وجهه بقوة.. العرق يحتشد على جبهته على الرغم من البرودة الشديدة بفعل جهاز التكييف.. عيناه انفتحتا.. لكني لم أر حدقتيه اللتين كانتا في مكان ما أعلى محجريه.. فبات مظهره مخيفا وهو ينظر إلى سقف الغرفة بعينين بيضاوين.. واستمر الحال بهذه الصورة لأكثر من خمس دقائق حتى كاد أن يغمى عليه.. ثم توقف عن كل هذا وهو يلهث بقوة وكأنه بذل جهدا جبارا!!.

قال وهو يلهث:

-لم أر شيئا كهذا.. إن الروح تأبى أن تستجيب لي.. إنها ذائبة بالأثير إن كنت تعني ما أقول!!.

هززت رأسي بلا مبالاة.. هذا الأخ نصاب كبير إذاً.. لا أدري لماذا يخدع الناس إن كان لا يطلب مالا.. نهضت من مكاني بهدوء.. وأضأت الأنوار وسط استغرابه:

-لم يكن هناك داع لإضاعة وقتي!!.

قلتها له وكأنني أبصق بوجهه.. يبدو أن النصابين هم أكثر الناس إيحاء بالثقة.. وإلا فكيف ينجحون في عملهم؟!.. انتبه إلى طريقة كلامي إليه.. فقال وهو ما زال يلهث من شدة التعب وقد استشاط غضبا:

-هل تتهمني بالكذب؟!.. لماذا أضيع وقتي معك برأيك؟!.

قلت بغضب بعد أن شعرت بأنه أضاع وقتي:

-يظهر إنك تعاني من عقدة النقص.. الأمر الذي يجعلك تريد جذب انتباه الناس.

رد بكبرياء شديد:

-أنا إنسان متعلم ولن أضيع وقتي الثمين مع طفل مثلك محاولا إبهارك.. إنني أقوم بمساعدتك فقط لأنني أحب هذا العلم وأعشقه حتى النخاع.. وأحب أن أعيش تجارب تحضير الأرواح وأدرسها بعناية.. هذا يساعدني كثيرا للمضي في أبحاثي.. إن كنت ترى أنني أضيع وقتك فارحل الآن لو سمحت!!.

عدت أساله في عناد:

-ألم تقل بأنك نادرا ما تفشل في تحضير الأرواح.. فلماذا فشلت بتحضير روح والدي بالذات؟!.

رد بعصبية:

-لم يكن فشلا.. أعطني فرصة أخرى.. ولكن ليس الآن.. فقد بذلت مجهودا جبارا ولن أستطيع تحضير أي روح في هذه اللحظة.. تستطيع أن تزورني غدا.. فربما استطعنا تحضير روح والدك.

لقد كان إصراره هذا هو ما جعلني أثق به وأعود إليه في اليوم التالي!!.. و.. كما حدث في زيارتي الأولى.. جلست معه في ذات الغرفة الخالية من الأثاث سوى الطاولة المستديرة والإضاءة الحمراء.. وكان مصمما هذه المرة أكثر مني على تحضير روح والدي.. لقد بدا وكأن الأمر بالنسبة له اختبارا صعبا وتحديا يريد مواجهته واجتيازه.. أما بالنسبة لي فالأمر يتعلق بالحصول على

معلومات هامة جدا أكاد أجن لمعرفتها.

بدأ بترديد التعاويذ ذاتها.. العرق يحتشد على جبهته مرة أخرى.. باختصار شديد: نفس تفاصيل الجلسة الأولى.. عدا شيئا واحدا.. لقد بدا وكأن الوسيط يواجه صراعا شديدا هذه المرة.. تغيرت ملامحه كثيرا وبدا لي وكأنه يختنق!!.. ثم راح يرتجف بقوة.. فانكمشت على نفسي وأنا أنظر إليه بذعر.. ليصدر حشرجة مؤلمة.. وجحظت عيناه على حين غرة.. وشعرت بضباب خفيف يحيط بالغرفة.. لم يلبث أن تكاثف ببطء!!.

عزيزي القارئ.. هل أنت خائف؟!.. لا ألومك كثيرا.. فأنا مثلك.. هل أنت مشمئز؟!.. بالطبع.. إن هذا الجو الملوث لا يناسب الأشخاص الحساسين مثلي ومثلك.

كنت لحظتها أحدق بخوف وذهول بالوسيط الروحي.. لكن فجأة استكانت ملامحه.. وبدأ ينظر إلى ناحية أخرى من الغرفة بهدوء شديد وبنظرة خاوية بنفس الوقت.. وكأنه لا ينظر إلى شيء إن كنت تفهم ما أعني!!.

التفت لأنظر إلى الناحية التي ينظر لها الوسيط.. فرأيت مشهدا لن أنساه مدى الحياة.. مشهدا كاد قلبي أن يتوقف بسببه بالفعل..

-أ.. أ.. أ.. أبي!!!!!.

كان تأثير رؤيتي لوالدي أقرب إلى تأثير المشي فوق كابل من كابلات الجهد العالي.. فقد اقشعر جلدي.. وشهقت من فرط الدهشة والانفعال. إنه والدي بالفعل.. يقف على بعد أمتار قليلة مني مرتديا منامة!!.

مرت لحظات بدت لي دهرا.. وأنا أحدق بوالدي الذي ظل واقفا وقفة مهيبة مخيفة وهو يحدق بي بدوره.. إنني أعرف كيف يبدو والدي.. فأنا أملك الكثير من صوره.. ولدي صورة له التقطت قبل انتحاره بشهر تقريبا.. لكن.. هناك شيء غريب في كل هذا.. فالرجل يشبه والدي إلى أقصى حد نعم.. لكنه يبدو مختلفا قليلا.. لم أفهم سبب ذلك!!.. والأغرب أنه كان يبدو مضطربا بشدة وبشكل واضح لسبب مجهول.

تحدث أبي باضطراب شديد وبصوت جمد الدماء في عروقي:

-ما الذي يجري؟!.

قالها بتوتر شديد..

تحدث الوسيط الروحي فجأة بصوت عميق وبنظرة خاوية:

-هذا هو والدك.. اسأله ما شئت!!.

حاولت جاهدا أن أخرج الكلمات من فمي من شدة الرعب:

-أ.. أ.. أبي.. لقد قمت بتحضير روحك لأسألك سؤالا هاما.

ثم ازدردت لعابي بصعوبة بالغة:

-أ.. أ.. أريد أن أعرف.. هـ.. هـ.. هناك مستندات تخصك وجدتها في البيت وتدل على وجود مبلغ هائل من المال.. لكنها ناقصة.. فهل هناك أموال أو ممتلكات تركتها لنا؟!.. وأين هي الآن؟!.

بدا وكأن والدي لم يسمعني.. فهو لا يزال واقفا ينظر إلي باضطراب شديد.. ولا أبالغ إن قلت بأنه

كان يبدو مندهشا.. إن هذا أمر غريب يفوق المقاييس المادية فعلا.. ولكن.. حدث شيء آخر أثار انتباهي.. لقد تغيرت نظرة الاضطراب التي رأيتها في عين والدي فجأة.. لتحل محلها نظرة حقد وكراهية شديدة لم أجد مبررا لها!!.. لماذا يرمقني بهذه النظرة؟!.

لم يقل بعدها سوى شيئا واحدا.. وبصوت عميق كأنه يتحدث من بئر:

-أيها الأحمق.. عليك اللعنة.. أنت....

لم يكمل عبارته.. فقد تلاشت صورته.. وشهق الوسيط الروحي مرة أخرى بعنف.. نظرت إليه مذعورا لأراه يتنفس بقوة وكأنه يحاول إدخال أكبر قدر من الهواء إلى رئتيه.. ظل على هذا الحال حتى راح يسترد عافيته تدريجيا ويجفف عرقه الغزير الذي جعله يبدو وكأنه خارج من إحدى حمامات البخار!!.

قال بعدها بحيرة شديدة:

-أؤكد لك بأنني قمت بتحضير أرواح العديدين في السابق.. لكني لم أواجه موقفا كهذا.. لقد كدت أن ألقى حتفي!!!.. كان هناك أمر غير مفهوم يعوق هذه التجربة.. وكأن شيئا قويا يمنعني من استمرار الاتصال الروحي بوالدك ويحاول استرداده.. شيئا مجهولا لا أستطيع وصفه لم أتعرض له من قبل!!.. المعذرة لكني لن أحاول تحضير روح والدك مرة أخرى!!.

لم أرد على كلامه.. شعور كئيب منفر يسيطر علي.. يشبه تماما من مشي صرصورا على يده وقد شعر أن يده قد تلوثت إلى الأبد!!.. كنت أظن أنني سأتمكن من تحضير روح أبي دون مشاكل بوجود خبير.. ولكن ظهوره وحديثه معي كان شيئا يفوق قدرتي على الاحتمال!!..

ورغم ذلك.. رجوت الوسيط الروحي أن يقوم بتحضير روح أبي مرة أخرى ليجيب على تساؤلاتي.. لكنه رفض بقوة قائلاً:

-آسف.. لا مجال للمناقشة في هذا الأمر.. لا أريد الموت.. لقد كدت أن ألقى حتفي بالفعل.. لا يمكن أن تفهم ما شعرت به.. كان شعورا رهيبا لا يوصف.. أرجو أن ترحل الآن.

نهضت متثاقلا لأخرج وفي ذهني ألف سؤال وسؤال!!.. علامات الاستفهام تؤرقني حول ما حدث وسيطرت على تفكيري طوال اليوم.. لذا -وفي نفس الليلة- أحضرت ورقة وقلما لأرتب أفكاري ورحت أدون النقاط المهمة في هذه القضية كما أفعل دائما حين أكون مشتت الذهن.. أحيانا يولد التفسير على الورق.. وأحيانا يزداد الأمر تعقيدا.. كتبت كل التساؤلات التي تغزو ذهني:

1. لماذا بدا أبي مختلفا حين تجسّد أمامي؟!.. لا يمكن أن يكون الأمر خدعة.. فالوسيط الروحي لم ير والدي أبدا من قبل.. حتى وإن رآه وعرف ملامحه.. كيف يستطيع تجسيد هيئته أمامي بهذه الصورة؟!.. أعيد السؤال الهام: لماذا بدا أبي مختلفا عما يبدو عليه في الصور؟!.

2. لماذا بدا أبي مضطربا حال ظهوره لي؟!.. لقد بدا متوترا بشدة.. وهذا غريب بالفعل.. حتى الوسيط الروحي نفسه أبدى استغرابه من ذلك!!.

3. لماذا أبدى أبي كراهيته نحوي!!.. لم أضره بشيء في حياتي.. بل إنني ولدت بعد وفاته أصلا.

4. السؤال الذي فعلت لأجله ما فعلت.. أين ذهبت الأموال؟!.

أفكر في تلك النقاط دون أن أصل لنتيجة.. هناك شيء هام ينقصني لتكتمل أركان هذا اللغز العجيب.. كنت أتصرف كـ (شيرلوك هولمز) التحري الشهير في عالم الخيال.. لكني أختلف عنه

في أني لا أملك أي إجابة على أسئلتي.

بعد تلك الحادثة بيومين.. جلست أتصفح جريدة اليوم قبل الذهاب إلى المدرسة.. فوجدت خبرا صغيرا قرأته بسرعة ونسيت كل شيء بشأنه بعدها.. لم أظنه خبرا مهما وقتها.. ما هو؟!.. ستعرفونه بعد قليل!!.

مر بعدها اليوم عاديا هادئا جدا بلا تقلبات أو مشاكل.. أفكر بما حدث وذلك الشعور يسيطر على كياني.. أن هناك فجوة كبيرة في تلك القصة.. المادة اللاصقة التي ستتخلل كل هذه الألغاز وتجعلها كتلة واحدة متماسكة مفهومة.. أفكر وأنا أتأمل جهاز الكمبيوتر حيث تسبح الأسماك الملونة على شاشته في برنامج واقي الشاشة الذي أستعمله.

كنت شارد الذهن أعيد التفكير في الأسئلة التي لم أجد لها أجوبة شافية:

1. لماذا بدا أبي مختلفا حين رأيته؟!.

2. لماذا عاملني بكراهية؟!.

3. لماذا كان يبدو مضطربا؟!.

4. أين هي الأموال؟!.

ما الذي تقودنا إليه كل هذه الأسئلة؟!.. عند السؤال الأخير بالذات.. تذكرت شيئا.. الخبر.. نهضت كالملسوع لأعيد قراءة الخبر الذي قرأته في الجريدة هذا الصباح والذي ظننته غير مهم.. وقفت أقرأ الخبر مرة أخرى وأخرى وأنا أتساءل في حيرة.. ما الذي يعنيه هذا؟!.. أشعر أن هناك رابطا في الأمر.. لكني لا أعرف ما هو.. الخبر يتحدث عن وفاة رجل أعمال هولندي من أصول كويتية بسكتة قلبية مفاجئة.. أعلم أن هناك رابطا بين كل هذا.. لماذا بدا أبي مختلفا حين رأيته؟!.. لماذا تعامل معي بكراهية؟!.. لماذا كان يبدو مضطربا؟!.. أين هي الأموال؟!. هبطت الحقيقة علي ببطء شديد.. شديد جدا!!.. ثم بدأت تتجسد وتتخذ شكلا ماديا.. وشعرت ببصيلات شعري تنتصب.. وتحفزت حواسي.. نعم.. هذا أقرب الاحتمالات إلى الدقة!!!.. إن الأمر لا يصمد لأي تفسير منطقي آخر.. بل هذه هي الحقيقة.. حقيقة مريعة.. مريعة إلى درجة لا يمكن الحياة معها.

-يا للهول!!!!!

شهقت بقوة وأنا أقولها.. لا يمكن أن أكون فعلت هذا.. هل فهمتم؟!.. إنه أمر مريع.. مريع لا يصدق.. لقد قمت بتحضير روح شخص حي!!!!.. يا إلهي.. يا إلهي.. لقد قمت بتحضير روح شخص حي!!!.. لقد كان والدي حيا طوال هذه السنوات.. نعم.. فهم لم يعثروا على جثته أبدا.

وقعت على الأرض من شدة الانفعال.. ساقاي لا تستطيعان حملي.. هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.. فجميع أسئلتي الأربعة تتجه إلى حقيقة واحدة.. وهي أن والدي كان حيا حين قمنا بتحضير روحه!!!.

و.. بعد أن أفقت من الصدمة.. بدأت الأمور تنكشف لي شيئا فشيئا.. وبدأت أربط بين الأحداث والمعطيات التي لدي.. لقد فر أبي بعيدا عن مسؤولياته وعن دائنيه.. ويبدو أنه أعد عدته منذ البداية وتزوج والدتي من أجل طموحه بالفعل مع الأسف الشديد.. وأخفى مبلغا من المال في (هولندا) على شكل أسهم في إحدى الشركات لينتقل بعدها إلى هناك على أمل البدء بحياة جديدة

واسم جديد.. ويظهر أنه نسي بعض هذه الأوراق حيث وجدتها في الخزنة الحديدية الصغيرة.

لقد بدأت أفهم الأمر.. وليتني لم أفهم.. لهذا وجد الوسيط الروحي صعوبة بالغة في تحضير روح أبي.. لأنه كان ما يزال حيا!!.. وحين قمنا بتحضير روحه.. بدت مضطربة لهذا السبب.. لأن والدي كان وافدا جديدا في عالم الأرواح.. الأمر الذي جعله مرتبكا لا يعرف ما جرى له.. لقد سلبنا منه روحه لسؤالها عن مكان الأموال!!.. وقد ظن الطبيب الشرعي على الأرجح أن سبب وفاته هو سكتة قلبية مفاجأة كما يقول الخبر في الجريدة.. علماً بأن يوم وفاته هو نفس اليوم الذي قمت فيه بتحضير روحه!!!.. هذا يؤكد نظريتي.

لقد انتزعت منه روحه.. أي قتلته.. لهذا كان يرمقني بكراهية شديدة لم أر لها أي مبرر في البداية.. أما مكان المال فيمكنني أن أخمن بأنه في (هولندا).. لقد سافر إلى هناك لعقد بعض الصفقات التجارية كي ينقذ تجارته -كما كان يدعي- لكن هذا لم يكن السبب الحقيقي.. السبب هو أنه أراد الهرب من والدتي وحياته بأكملها في (الكويت) لحياته الجديدة التي أعد لها العدة مسبقا.. ولم يعلم أن والدتي قد توفيت بعدها بشهرين تقريبا.. من المرجح أنه لم يعلم.

قلبي يكاد أن يتوقف عن الخفقان.. ينتصب شعر رأسي مرة أخرى من هول الفكرة.. لهذا بدا لي أبي مختلفا عن الصور التي أملكها له.. لأن ملامحه تغيرت بفعل الزمن.. لقد عاش بعد تاريخ انتحاره المزعوم ما يقارب الـ 18 عاما.. وعندما قمنا بسلب روحه كانت آثار السنوات قد ظهرت على ملامحه.. من الطبيعي أن تتغير ملامح الإنسان بعد هذه السنوات الطويلة!!.

كان ما حدث قد شرخ إحساسي بالأمان إلى الأبد.. لقد لوثت هذه الحادثة عالمي إلى الأبد كنفاية ذرية ألقيت في نهر.. أشعر بأنني فقدت أثمن ما في حياتي.. بعد أن أقدمت على فعل لا يمكن أن تظل حياتي كما كانت قبله.. لقد كان أبي حيا طوال تلك السنين وأنا قتلته.. وقد كان -وأقولها بكل أسى- جاحدا لوالدته (جدتي) التي خدعها ولم يسأل عنها طوال السنوات الماضية.. والأسوأ من كل شيء هو أنني عبثت كثيرا في تلك الأمور المتعلقة بتحضير الأرواح!!.. ورحت ألهو بجهل حول الحدود الخطرة بين الحياة والموت.

يجب ألا نحاول شيئا كهذا.. لقد أدمن الكثيرون تجارب تحضير الأرواح -كما عرفت لاحقا- وفي معظم الأحيان كانت النتائج إما الانتحار أو الجنون أو المس.. ولم يكفني كل هذا.. فقد قمت بعمل أخرق أستغرب الآن كثيرا كيف أقدمت عليه.. محاولة تحضير روح أبي!!!.. يا للهول.. أصاب بقشعريرة كلما أتذكر هذا..

يقولون أن هناك حوادث تقع للإنسان هي أشبه بالخدوش التي تترك على سطح لين من الأسمنت.. سرعان ما يجف فلا تمحى الخدوش أبدا.. كانت إحدى هذه الخدوش فوبيا الخوف من الظلام.. الظلام الذي يذكرني دائما بالأهوال التي رأيتها في تلك الأيام الرهيبة.. هذه الفوبيا التي ما زلت أعانيها ولم أشف منها قط.

إن ما حصل لن يمحى من ذهني.. سواء ما فعلته مع (سعد) في اللهو بلوحة (أويجا) المشؤومة.. أو تجربة تحضير روح والدي التي أحاول أن أنساها بأن أسدل فوقها ستارا مزيفا.. ولكن هيهات!!!.

ها أنذا راقدا في غرفتي على الفراش أستمع إلى موسيقى كلاسيكية هادئة.. وأقرأ مجلات (ميكي).. و(ماجد).. لأن أعصابي لم تعد تحتمل أي شئ صارم أو جاد.. أحاول أن أنسى.. أو أتظاهر بأنني أنسى.

لقد جعلتني هذه التجربة أؤمن بأن هناك من أسرار الكون ما يحسن بالمرء أن يدعه وشأنه.. وأن القناعة بالفعل كنز لا يفنى.. حكمة رائعة لكن كثرة تكرارها وتداولها بين الناس جعلها كالأغنية التي سمعتها ألف مرة حتى أصبحت سخيفة بعد أن كنت تحبها..

لم تعد تهمني أمر تلك الأموال وإلى من ستؤول إليه.. ربما كان أبي متزوجا في (هولندا) وسيرث أبناؤه ما لديه.. نعم.. فربما لدي أخوة هناك.. ولكن هذا لم يعد يهمني كثيرا.

لقد تعلمت من كل ما حدث أن المسخ الذي يثير الرعب في نفسي حقا هو أنا!!.. أنا الذي لا أعرفه.. والذي يفعل أشياء ويقول كلمات لا يمكن أن أصدق أنني أفعلها أو أقولها.. أنا من مارس لعبة (أويجا) الملعونة.. أنا من طالب بتحضير روح أبي.. نعم.. أكثر مسخ يجب أن نخافه هو أنفسنا.

يجب أن أعالج نفسي عند إنسان متخصص.. يجب أن أحاول النسيان حتى أستطيع النوم من جديد.. كل هذا ممكن.. أحتاج إلى وقت.. كم من ليلة سوداء قضيتها أستعيد ما حدث وأحلله.. أسئلة كثيرة بلا إجابة.. ولا أرجو لها إجابة.. كل ما أعرفه هو أنني لن أخرج من غرفتي عندما يأتي الليل.. شعرات عديدة شابت في رأسي على الرغم من صغر سني.. آيات قرآنية علقتها في كل مكان في غرفتي.. كنت بحاجة إلى هدية الأيام التي لا تقدر بثمن: النسيان.. والواقع أنني بذلت جهودا كونية لدفن هذه الذكرى المريرة في أعماق ذاكرتي كي لا تعود وتنغص حياتي.

أعتقد أنها قصة مرعبة حقا.. وإن كنتم توافقوني في هذا الرأي فأقول أنكم محظوظون حقا.. فأنتم اقشعررتم من مجرد كلمات.. أما أنا فقد عشت الموقف وجها لوجه.. وسيظل يطاردني حتى أموت.. ولا أخال القارئ يقدر على قول أن القصة خالية من الرعب.. على الأقل لن يقولها بضمير مستريح تماما.. إن هذه القصة لتترك غصة في الحلق بسبب أحداثها الكئيبة.. تجعلك غير مستريح وتشعرك بعدم الأمان.. هذا هو شعوري بالضبط.

لقد مرت فترة طويلة على تلك الأحداث الرهيبة.. لكني حتى هذه اللحظة أشعر بالخوف من الظلام كما أخبرتكم من قبل.. أشعر بالخوف وأنا وحدي في غرفتي على الرغم من الإضاءة التي تكشف لي كل ركن.. أؤمن أن كل هذه وساوس لكن ليس الأمر بيدي.. فلا أستطيع التحكم أبدا في تلك الرجفة التي تسيطر على جسدي.. تلك القشعريرة!!.

ازدواج!!

لقد قرأتم أحداث قصتي الأول.. وأعتقد أن أغلبكم يرى أنها محض هراء وأكذوبة كبرى.. وعلى كل حال.. فقد نقلت لكم ما حدث في تلك التجربة الكابوسية بكل أمانة.. تستطيعون تصديقها.. ويمكنكم تكذيبها.. لكن من الصعب تجاهلها.. احتراما لجهدي الذي بذلته في كتابتها لكم على الأقل!!.

إن قصتي السابقة تعتبر بالفعل ظاهرة غير قابلة للتفسير من الممكن أن نقرأ عنها يوما في أحد الكتب التي تتحدث عن أسرار الكون!!.. مئات الأسئلة كانت تصطرع في ذهني.. إلا أن كثرتها وتزاحمها جعلها تذوب وتتلاشى حتى لم أعد أذكر منها شيئا مع زحمة الحياة وهدية الأيام التي لا تقدر بثمن والتي أخبرتكم عنها من قبل: النسيان.

أيام كثيرة مرت وتساقطت أرقامها من على الروزنامة المعلقة على الحائط.. دون أن أدرك للحظة.. أن ما حدث لي في قصتي السابقة هو بمثابة إجازة كان من المفترض أن أستمتع بها مقارنة بما سيحدث لاحقا!!.. كيف؟!.. فلنتابع.

كان كل شيء يسير بصورة اعتيادية في البيت الجديد.. أو الشقة الجديدة -لو أردنا الدقة- وكنت أعاون جدتي في ترجمة ما تريد إخباره للخادمة الجديدة الآسيوية الجنسية.. فقد كانت وسيلة التفاهم بيننا هي اللغة الإنجليزية.. وجدتي بالطبع لا تجيدها.. أما أنا فأتحدثها بطلاقة.. لأنها اللغة الرسمية في المدرسة.

المدرسة.. نعم.. دعوني أنتقل معكم إلى المدرسة حيث بدأت فيها قصتي هذه.. لقد كنت -بسبب تفوقي ونبوغي الواضح- أحظى بحب واحترام كل أساتذتي.. لكني مع هذا لم أكن من الشباب المرموقين في المدرسة أو كما يصفهم المجتمع الأمريكي ب. (ذوات الشعبية).. فقد كنت ضعيف الجسد لا أمارس أي رياضة.. ولا أملك أي وسامة.. دعك من أن الطلبة كانوا لا يرتاحون لوجودي.. فالناس تفهم أن تكون وقحا أو صاخبا أو عصبيا.. أما أن تكون منطويا مهذبا غامضا فسيظنونك خبيثا ولن يرتاحوا إليك مطلقا.

بالفعل.. كانوا يظنونني خبيثا!!.. تصوروا هذا!!.. والسبب هو أفكارهم المتخلفة.. فالناس دائما تصور الشخص المنطوي الهادىء على أنه ساذج وطيب القلب.. فإذا أبدى لمحة ذكاء تراهم يملأون الدنيا صراخا بأن هذا الشخص خبيث وماكر وكان يتظاهر بالطيبة والسذاجة طوال الوقت!!.. وهذا فكر متخلف بالطبع.. فلا يجب أن يكون المرء غبيا ساذجا حتى يراه الناس طيب القلب.

لقد كان عدد كبير من زملائي الطلبة والطالبات يطلبون مساعدتي أحيانا كثيرة لحل بعض الفروض المنزلية.. وكنت أقدم لهم كل مساعدة يحتاجونها مني.. وبعدها يتركني الجميع.. حتى ساهم هذا أكثر في تقوقعي وانعزالي.. فكنت أدفن هموم وحدتي بين الكتب وأنا أقسم بيني وبين نفسي: ستندمون.. أعدكم بأنكم ستندمون.. سأصبح من أفضل الأطباء وأكثرهم ثراء وأفضلهم سمعة.. هذا ما كان يجعلني أصمد.. أحلام المستقبل.

تخيلوا هذا.. وحيدا في البيت بلا أخوة.. وحيدا في المدرسة.. وحيدا دون أصدقاء.. حياة قاسية كالجحيم!!.. أعترف أنني اخترتها لنفسي كوني لا أرغب أن أكون واحدا من الشباب التافه الذي لا

هم له سوى الفتيات ولا هدف لحياته سوى امتلاك سيارة فارهة!!.. لن أرتبط بهؤلاء فقط كي أكسب الصداقات.. أعلم أن هناك قلة قليلة جدا من الشباب الجاد المكافح.. ولكن أين أجدهم؟!.. دعكم من أن الصداقة لها ارتباطاتها والتزاماتها.. وأنا أكره كثيرا تحمل أي مسؤولية تجاه الغير.. فالصديق تتبعه زيارات والخروج معا إلى المطاعم أو المقاهي أو الذهاب إلى السينما.

لن أطيل أكثر من ذلك ولنعد إلى أحداث قصتنا.. وإلى الحياة في المدرسة.. هناك طلبة يرغبون في كسب ود الطالبات.. وبعض الطالبات يحاولن البحث عمن هم جديرين بقلوبهن.. وبالطبع هذه الأمور تحدث خلف الكواليس.. فنحن لسنا في (لاس فيغاس).. وكل الأمور في مدرستنا تسير بجدية دون أن يجرؤ أي طالب أو طالبة على القيام بأي سلوك مشين وإلا فإن الفصل سيكون مصيرهم دون أي تهاون.. إنهم لا يمزحون في مثل هذه الأمور في المدارس الخاصة التي تتباهى بسمعتها وانضباط طلبتها قبل كل شيء.

وعلى الرغم من وحدتي التي اخترتها لنفسي.. إلا أن هذا لم يكن كافيا لبقائي بعيدا عن المشاكل.. كيف؟!.. مرة أخرى أقول: اقرؤا السطور التالية.. وستعرفون.

المراهقون.. ملوك التعذيب في هذا العالم.. حقيقة أؤمن بها تماما.. فنسبة كبيرة جدا منهم يسخرون من كل شيء وأي شيء.. وغالبا ما تجدهم غير مبالين ولا يأبهون لآلام الآخرين.. فعاداتهم معروفة.. المزاح بصوت عال.. إحالة الفصل في فترات الاستراحة إلى حظيرة ثيران.. إنها سن وساوس الرجولة.. والرغبة في القوة والتمرد على القوانين.

أخبرتكم بأنني كنت أساعد كل من يلجأ إلي لحل فروضه المنزلية أو لشرح نقطة معينة غير مفهومة في أي درس.. وكان أكثر من قدمت لهم المساعدة في المدرسة هما صبي وشقيقته.. وكي أضعكم في جو القصة.. سأبتعد عن الصورة قليلا وأفسح المجال لهما حتى تتعرفوا عليهما.. فهما بطلا قصتي.

(رهام) في الصف الثالث ثانوي وفي الـ 16 من العمر.. أي بمثل عمري.. وشقيقها (بدر) الذي يصغرها بعام واحد وهو في الصف الثاني ثانوي.. لقد كان (بدر) فتى رقيق إلى حد الأنوثة بنحوله الشديد وتراخيه وعينيه المذعورتين.. ووجهه الخالي تقريبا من الخشونة الرجولية.. فكان يبدو للجميع بالفعل وكأنه فتاة رقيقة ذات حياء تلبس ثياب الأولاد.. كما كانت لديه مشكلة واضحة في النطق.. إذ تراه يتلعثم بشكل واضح عندما يتحدث.. مما زاد من هدوئه وانطوائه كي يتجنب سخرية الطلبة.. وهو -بالمناسبة- أعسر.. أي يستخدم يده اليسرى بدلا من اليمنى في كل شيء تقريبا كحال نسبة لا بأس بها من الناس.

ويمكن بسهولة أن نعرف أن (بدر) هو (ولد أمه) -كما نقول في (الكويت)- أي أنه نتاج تربية امرأة تخاف عليه كثيرا وتفرط في تدليله وحمايته من كل شيء.. وتزيده خوفا من العالم الخارجي الذي بدا له وكأنه غابة يجب عليه الابتعاد عنها قدر الإمكان.

باختصار.. كنت أعرف أن تربية هذا الفتى ليست قويمة.. وأن مستقبله مظلم مليء بالعقد النفسية بسبب اهتمام أمه المرضي به.. إلا أنه والحق يقال كان ولدا طيب القلب إلى حد لا يصدق.. كريم جدا يعطيك كل ما يملك إن رأى أنك تستحق ذلك.

أما شقيقته (رهام) وهي أقرب إنسان لـ (بدر) على الإطلاق.. فقد كانت فتاة عادية الملامح لا يوجد ما يميزها.. لكن رقتها الشديدة كانت تجذب إليها الأنظار.. كما كانت مهذبة وحساسة جدا من الممكن أن تدمع عيناها لو رأت طفلا.. حتى وإن كان هذا الطفل بصحة جيدة وينال الرعاية

والاهتمام اللازمين!!.

لم أكن أرغب في الاحتكاك بهذين الثنائي الغريب.. بل كانا هما من يصران على أنني صديق لهما.. وصديق عزيز أيضا.. وكانا يفرضان نفسيهما علي فرضا في فترات الفسح على الرغم من أننا لسنا زملاء في نفس الفصل.. فأنا أسبق (بدر) بعام دراسي كما علمتم.. في حين أن (رهام) في نفس مرحلتي الدراسية ولكنها لم تكن زميلتي في الفصل.

لا أذكر بالضبط كيف تعارفنا.. لكن أعتقد أن الأمر كان متعلقا بمساعدة في أحد الفروض المنزلية عندما أخبرتني (رهام) بأنها تشعر أنني شخص أوحي بالثقة وأن عيناي الصادقتين فيهما شيء من الطيبة والذكاء!!.. وأخبرتني أنها ترتاح لي كثيرا وأنني سأكون (صديقا) مخلصا لن أضرها يوما.. وإنها بحاجة إلى من يصغي إليها.. تعلمون جيدا أن آخر شيء يمكن لشخص في مثل عمري أن يرفضه هو تقديم العون لفتاة رقيقة تستغيث به.. ساعتها يمكنه أن يحرك الجبال ويسافر مشيا إلى (تنزانيا).. هكذا كانت بداية علاقتنا التي لم تتجاوز أبدا أسوار المدرسة.. لأصبح مع مرور الوقت كاتم أسرار (رهام) وشقيقها.. كل أسرارهما!!.

لقد كانت مشكلة هذين الشقيقين الرئيسية تكمن في أسرتهما.. خاصة الأب.. وهو رجل ميسور الحال يعشق شرب الخمر حتى أنك -كما تقول (رهام)-نادرا ما تراه في وعيه الكامل.. وقد قام هذا الرجل بحسنة قد تكون هي الوحيدة في حياته عندما ألحق ولديه بتلك المدرسة.. وقام بتسديد الرسوم الدراسية لأبنائه لسنتين قادمتين.. ربما فعل هذا تحسبا للمستقبل.. وكأنه كان عالما بما سيحدث.. فقد انجرف أكثر مع أصحاب السوء.. وقام بممارسة العادة التي انتشرت في (الكويت) -مع الأسف-بصورة مخيفة منذ منتصف التسعينيات: تعاطي المخدرات.. فقد بدأ الأب ينهار شيئا فشيئا وأصبح يعود إلى المنزل في منتصف الفجر وهو يترنح بسبب المخدر.. أو الخمر.. وكان -كحال كل المدمنين- ضائع.. مزعزع الشخصية.. ضعيف الإرادة.. فتراه يصب جام غضبه على أولاده وزوجته.. وكأنهم هم سبب تعاطيه للمخدرات.. إذ يوسعهم ضربا ليحدث بهم كدمات لا بأس بها حول العيون وفي الشفاه.. ثم يهدأ ليبدأ في الحديث عن المخدرات التي دمرته ودمرت حياته.. لتعود له الثورة.. فينهض ويوسع أفراد أسرته ضربا.. هكذا دون أي ذنب أو جريرة منهم.. الزوجة تصرخ وتولول وتهرع جريا تجر ورائها أبناءها إلى الجيران أو أقارب زوجها.. فهي من جنسية عربية وليس لها أقارب في (الكويت).. يقول له الجميع أن يترفق.. يبعثون إليه برجل دين كي يتحدث إليه ويحاول إرشاده إلى الطريق الصحيح.. لكنه يرد على الجميع في فظاظة أن هذا ليس من شأنهم.. فتزداد حالته سوءا.. ويزداد عنفا مع أفراد أسرته.

وبالطبع حدث ما هو متوقع.. لم تستطع زوجته تحمل كل ما تلقاه على يده القذرة.. حتى فعلت ما كان يجب فعله منذ البداية.. فأبلغت عنه الشرطة.. وقاموا بالفعل بالقبض عليه.. حيث تبين أنه لا يتعاطى المخدرات فحسب.. بل ويتاجر بها أيضا!!.. وقد حكم عليه بالسجن لعدة سنوات لم يقض منها سوى أشهر قليلة قبل أن يموت بجرعة زائدة من المخدر!!.. كيف وصلت المخدرات إلى السجن؟!.. لا أدري.. لقد حدث هذا كثيرا مع الأسف في سجون (الكويت).

المشكلة أن الأب كان مصدر دخل الأسرة الوحيد.. أما زوجته التي لم تكن تملك حتى الشهادة الثانوية.. فكانت ربة بيت.. وبالطبع فإن فرصة حصولها على وظيفة محترمة بعد وفاة زوجها معدومة تقريبا لعدم امتلاكها أي مؤهل علمي.. وهكذا تستطيعون أن تتخيلوا حال هذه الأسرة بعد وفاة معيلها الذي كان وجوده هما يثقل كاهلها أصلا.

لقد علمنا أن الأب قد دفع رسوم أبنائه الدراسية كاملة لسنتين قادمتين.. ولكن بعيدا عن الرسوم الدراسية.. فهناك الرسوم الأهم.. وهي رسوم الحياة -إن صح التعبير-فمن سيعيل هذه الأسرة بعد وفاة الأب؟!.. إذ لم يمد لهم أحد يده من أفراد العائلة مع الأسف.. وتخلى عنهم الجميع.. فكان لا بد على الأم أن تتصرف.. و.. مع مرور الأيام انجرفت وراء أقدم مهنة في التاريخ.. وأبشعها على الإطلاق!!.. لعبت هذا الدور المقيت لأنها كانت بحاجة إلى المال الذي يجود به بعض الأوغاد من الرجال عليها مقابل إرضاء شهواتهم الحيوانية.. فأصبحت امرأة في الـ40 من عمرها تملأ مساحيق التجميل وجهها.. ولها ضحكة مائعة قليلا.

وقد جعلت هذه الظروف القاهرة الشقيقين يقتربان من بعضهما كثيرا.. حتى أصبحا لا يفترقان أبدا وكل منهما يعتبر الآخر أصدق أصدقائه وكاتم أسراره.. ولحسن الحظ لم يعرف أحد من الزملاء الأوغاد في المدرسة شيئا عن حال هذه الأسرة.. وإلا لأصبح الشقيقان مثار سخرية الجميع.

لقد زادت هذه الخبرات القاسية من عزلة (رهام) و(بدر) وانطوائهما وميلهما إلى الاستماع لا الكلام -وإن كانت (رهام) أقوى بكثير من (بدر)- مع مشاعر متناقضة تجاه الأم هي مزيج من الشفقة كونها انجرفت وراء هذه المهنة البشعة من أجل لقمة العيش.. والكراهية كونها جلبت لهما العار.. مريع حقا هو الشقاء الذي يرتسم على وجوه المراهقين الذين رأوا وعرفوا الكثير!!.

لقد كان هذان الشقيقان هما بطلي قصتي.. أما بالنسبة لدوري في كل هذا فستعرفونه لاحقا.. ولكن قبل كل شيء فلنتعرف على شخصية أخرى.. أو.. طالب آخر في المدرسة.

(راشد).. فتى شديد الوسامة كحصان عربي أصيل نبيل.. أنيقا كإحدى الموديلات المجسمة التي نراها في واجهات المحلات التجارية.. فارع القامة أبيض البشرة.. ذو نظرة قوية آسرة تعكس شخصية كاسحة.. وكان ذو بنية رياضية وبالتالي يناسبه كل شئ وكل زي.. لكن وسامته كانت تدل على قسوة ونرجسية واضحتين.. حتى صارت المفردات الجياشة التي نعرفها مثل الحب والعطف والرقة نوعا من الإهانة بالنسبة له.. كما كان الوغد يملك لسانا سليطا كالسوط فلا تملك أن تناقشه في أي موضوع حتى وإن كنت على حق!!.. إنه ذلك الطراز من البشر الذي لا يخشى أحداً ويثق بكل تصرفاته وأفعاله وأنه لا يفعل سوى الصواب.. ولا يقيم وزنا لأي حياة بشرية.. بل يسره أن يرى نظرات المقت في عيون من حوله.

لقد كنت أنا بالذات أعاني من عقدة نفسية تجاه (راشد).. إذ تراني أنتفض بقوة وأشعر بتوتر في أعماقي كلما أراه.. حتى أنني كثيرا ما شعرت بأنني نملة تقف أمام فيل الماموث الهائل.. فأشعر بضآلة تنم عن شخصية ضعيفة مع الأسف أمام شخص يملك كل شيء تقريبا ومنحته الحياة كل تدليل.

كنت أحلم أن أكون قويا مثله.. أملك لسانا سليطا يدافع عن الحق كلسانه الذي لا ينطق إلا بالباطل.. لماذا يكون الشر إيجابي دائما في حين يندر أن نرى الخير الإيجابي؟!!.

لقد كان (راشد) يملك كل ما يجذب فتاة لا تعرف شيئا عن الحياة.. وكل ما ينفر الأم ويجعلها تتوجس خيفة على ابنتها.. أما والد (راشد) فهو شخصية هامة جدا في (الكويت) ويشغل مركزا حساسا.. وكان هذا الأب يظن أن تربية الأبناء تكون فقط بإنفاق المال بمبرر ودون مبرر.. فيصرف على ابنه ويعطيه كل ما يريد دون مناقشة.. حتى أصبح (راشد) نموذجا للشخصية الأنانية (السايكوباثية) التي لا تريد من المجتمع إلا مصالحها ولا تعطيه شيئا على الإطلاق.. و(السايكوباثية) مرض نفسي يجعل المصاب به عدوا للمجتمع بأسره.. فيكون شخصا متحجر

القلب يتلذذ بإيذاء الآخرين.. ولا ينفع معه أي عقاب.

وبالطبع فإن شخصا كهذا الحقير يكون له عادة هدف واحد في الحياة.. أن يجعل الأمور سيئة بالنسبة للضعاف.. وهدم كل ما هو جميل.. كنت أعرف أنه يفعل كل المحظورات.. إذ كان يبيع المخدرات!!.. ويروج أفلاما خلاعية في السر على زبائن دائمين له!!.. لم يكن بحاجة إلى المال.. لكنها تلك الشهوة المجنونة في الفساد والهدم.. كم أكرهه.. كم أمقته.. إنه يجسّد كل ما أحتقره في هذه الحياة.. ليس الأمر نابعا من الغيرة على وسامته وشخصيته القوية.. بل هو نابع من كراهيتي للقسوة.. إنني أمقت القساة الذين لا يقيمون وزنا للبشر.. الذين يملكون تلك النظرات الباردة التي لا تعبأ بآلام الآخرين.

كم من مشاجرات خاضها هو وأصدقاؤه الأوغاد الآخرون الذين قاموا فيها بإشباع من تشاجروا معهم ضربا.. وبالطبع كان والده -وبسبب ابتعاده شبه الدائم عن البيت-يجهل كل شيء عن ابنه.. ويظنه بريئا من كل التهم التي تنسب إليه وأنه مجرد مراهق يحمل طيش المراهقين المعتاد ولا شيء أكثر من ذلك.. أما والدته فلا أعرف عنها شيئا.

وكان (راشد) مولعا بإيقاع الفتيات في شباكه.. فكلما أعجبته فتاة في مجمع تجاري أو حديقة عامة أو أي مكان آخر.. ظل يلاحقها ويستخدم لسانه ببراعة يحسد عليها لتهيم به الفتاة حبا.. ومتى ما فعلت وقامت بينهما علاقة.. صارحها بملل بأنها غير جديرة به وأنه يود تركها.. ولا يفعل ذلك عادة إلا بعد إشباع غريزته بالطبع!!. مواقف قاسية عاشتها الكثيرات معه.. حتى أنه وصل إلى مسامعي إحدى المرات ما كان يردده لأصدقائه في المدرسة -والذين لا يقلون عنه حقارة-بأنه كان يطارد فتاة برفقة شقيقتها الصغيرة التي لا يتجاوز عمرها ال 4 سنوات.. لكنها كانت حازمة معه.. فنهرته ونعتته بلفظ مشين وذكرت شيئا عن قلة أدب بعض الشباب الذين يتركهم أهاليهم يتسكعون في الشوارع دون رقابة.. فأثار هذا جنونه.. وهو الذي لم يعتد الإهانة من أحد.. ليمسك بذراعها بقوة!!.

حاولت التملص منه وشتمته.. هنا قام بصفعها وركلها بكل قوته أمام شقيقتها الصغيرة التي كانت ترتجف كهر مصاب بطلق ناري من شدة الخوف!!!.. وبالطبع تدخل الناس وحاولوا الفتك به لولا تصادف وجود بعضا من رجال الأمن الذين ألقوا القبض عليه.. وتقدم والد الفتاة بشكوى إلى المخفر وأحضروا (راشد) وأجبروه على التوقيع على تعهد بعدم التعرض للفتاة.. فقط تعهدا!!.. إن وساطة والد هذا الوغد قوية بحق!!.. وقد هزت هذه الحكاية بالذات مشاعري كثيرا.. إن شخصا يضرب فتاة أمام شقيقتها الصغيرة بهذه القسوة لهو إنسان مخيف بالفعل!!.

لقد أخبرتكم ما كان يفعله (راشد) خارج أسوار المدرسة.. أما ما يفعله داخل المدرسة فهو أقل من بيع المخدرات بالطبع.. بل كان إيقاع زميلاته الطالبات في شباكه وإقامة علاقة معهن تمتد لخارج أسوار المدرسة.. علاقة ظاهرها عاطفي.. وباطنها قذر غير قابل للنشر.. والمشكلة أن شخصيته مع الفتيات ساحرة بالفعل كما ذكرت.. فعندما تراه يكلم إحداهن.. تظن أنه ملاك عاشق وأن الفتاة التي يحدثها هي كل شيء بالنسبة له.. كان بعضهن يبتعدن عنه لقسوته مع الضعفاء أمثالي وسخريته الدائمة مني.. في حين تجد أخريات أحببن شخصيته وشعرن بالأمان معه كعادة الأنثى حين تود أن يكون حبيبها قويا يحميها من كل شيء.

كنت أردد حين أراه:

-نحن في زمن مخيف.. زمن مخيف حقا!!!.

لقد نسج (راشد) شباكه حول الكثيرات وكسر قلوبهن.. وهذه المرة.. بدأت أشعر أنه ينسج شباكه حول (رهام).. وهنا تبدأ قصتنا.. ولا تظنوا أنها قصة عادية.. بل هي غريبة.. غريبة إلى أبعد الحدود!!.

كنت أقضي بعض الوقت مع (رهام) وشقيقها (بدر) الذي كان صامتا شارد الذهن يرمق أبعادا أخرى أكثر الأوقات.. ونظرا لأنني إنسان صامت أيضاً بطبيعتي.. فقد كانت (رهام) هي من تمسك بزمام الحديث أكثر الوقت.. الغريب أنها كانت تخبرني بكل شيء.. وحتى أدق تفاصيل حياتها العائلية دون أي تدخل من أخيها لمنعها على اعتبار أنها أسرارا عائلية يجب ألا يعرفها الغرباء.. لكنني كنت أعرف إلى أي مدى هذا الفتى مهزوز وهش نفسيا.. ولا ألومه كثيرا في الواقع بعد أن عرفت ظروف تربيته.

بدأ كل شيء عندما رأيت (راشد) ذات مرة في المدرسة واقفا يتبادل أطراف الحديث مع (رهام).. وقد استوقفني هذا كثيرا.. فما الذي يريده منها؟!.. إنها ليست من ذلك النوع من الفتيات اللاتي ينجذب لها شخص كـ (راشد).. فملامحها أقل من عادية.. هل هي رقتها الشديدة؟!.. أو ربما كانت تبدو له جميلة.. فلا مقاييس واضحة للجمال كما تعلمون ولكل منا ذوقه.. المهم أنني لم أنتظر طويلا لأعرف.. فما إن تركها (راشد) حتى هرعت إليها أسالها عما يريده منها هذا الوغد.. ليس بقصد التدخل في شؤونها.. بل هو الخوف والإشفاق عليها.. فلا أريدها أن تكون واحدة من ضحاياه.

سألتها بحذر:

-رهام

-همم!!

-ماذا يفعل (راشد) معك؟!

قالت بصوت يحمل نبرة من الفرح وإن حاولت أن تخفي هذا:

-يريدني بموضوع هام.

-وما هو هذا الموضوع؟!.

مطت شفتيها وهي تقول بنوع من الدلال:

-لا أعلم..

-لا أعتقد أنه يريد بك خيرا.

-وما أدراك؟!.

لم تكن (رهام) تعرف الكثير عن (راشد).. فهو أذكى من أن يكشف أسراره بصورة واضحة صريحة أمام الجميع في المدرسة.. وحتى أنا لم أكن أعرف عنه حينها سوى أنه محطم قلوب العذارى.. وأنه ولد لعوب لا يمكن أن يحب.. ولا يبدو لي أصلا من النوع الذي يحب.

إن خطته معروفة.. وهي خطة معظم من هم في مثل سنه.. يعثر على الفتاة التي يريدها.. يبدأ معها علاقة عبر الهاتف تمتد إلى الخروج معها.. ثم الهدف الرئيسي وهو إرضاء غريزته.. ليتركها بعد ذلك بكل حقارة.. قد أتحمل أن أرى بعض الفتيات في موقف كهذا.. فهذا الأسلوب تمارسه

بعضهن أيضا.. ولكن أن يحدث هذا لـ (رهام) فلا وألف لا.. إنني أشفق عليها كثيرا.. ولا أريد أن يضرها أحد.. والأمر لا علاقة له بأي حب أو إعجاب.. لذا فقد قررت التدخل.

كان واضحا أن (راشد) تصرف معها بخبث وخدعها.. ولكن من قال أن (رهام) تستطيع ملاحظة شيء كهذا؟!.. ماذا تعرف هذه الطفلة عن الحياة؟!.. كنت أشعر بغضب وتعاسة بالغين.. لماذا اختار هذا الوغد (رهام) دون كل الحسناوات الأخريات؟!.. إن هذه الفتاة هشة.. ولن تحتمل أن يحطم أحد قلبها.. لذا قلت لها بحزم:

-(رهام).. أنت تعتبريني صديقا مخلصا لك.. وأنا أعتز بهذه الصداقة وإن كانت لم تتعد أبدا أسوار المدرسة.. ولكن أردتك أن تحذري من (راشد).. إنه لا يصلح لك.

نظرت إلي باستغراب وكأنها لم تتوقع مني أبدا أن أكلمها بأمر كهذا.. ثم تداركت نفسها وقالت بصوت حزين:

-شعرت من كلامه أنه يحبني ويهتم لأمري.. وإذا كانت له بعض المساوئ.. فهو على الأقل يعرف كيف يحمي محبوبته.

ثم زفرت بقوة وقالت:

-لقد سئمت الحياة بهذه الصورة يا (خالد).. إنني مجرد فتاة صغيرة في السن.. أعيش يتيمة من دون أب.. دعك من أن أبي كان قاسيا جداً.. في حين أن مشاعري متضاربة ناحية أمي.. هي مزيجا من الاحتقار والاحترام.. أعلم أنها تفعل ما تفعله من أجلنا.. لكني في نفس الوقت أشعر بالعار.. إنني أحتاج لمن يحميني من الشرور والمصائب والشياطين البشرية الموجودة في هذا العالم.

قلت صائحا:

-ومن قال أن (راشد) ليس من هؤلاء الشياطين؟!.

سألتني بسذاجة أغاظتني كثيرا:

-هل تغار؟!

قلت لها بصدق كاتما غيظي:

-الأمر لا يتعلق بأي غيرة.. فأنت صديقة عزيزة لا أكثر.. وأنا أخشى عليك كثيرا.. لا أريد لهذا الوغد أن يحطم قلبك.

-(خالد).. لا داعي لهذا الكلام.. إنني في الواقع أرى (راشد) فتى رقيقا مهذبا.

-هل تمزحين؟!.

-بتاتا.. أنا أراه كذلك بالفعل.

و.. لم يعد هناك ما أستطيع قوله.. لقد كانت الحمقاء واثقة أن (راشد) يحبها.. لذا قررت أن أنقذها منه رغما عنها!!.. لن أسمح لهذه الفتاة التي رأت في حياتها ما لم يره كهل في الـ 70 أن تحطم قلبها بنفسها.. خاصة بعد أن أخبرتني أنه يتصل بها كثيرا بعد الانتهاء من الدوام المدرسي.. عندها بدأت كالمجنون أحاول أن أعرف عنه كل شيء.. سألت كل من تربطني بهم علاقة جيدة من الطلبة -وهم قليلون جدا- فأخبروني بما أخبرتكم به عن (راشد) في بداية القصة!!.. وصعقت بالطبع.. لم أتوقع أبدا ما سمعته عنه.. كما لاحظت أن الجميع يخشون سطوته.. فهو لا يتورع

عن عمل أي شيء انتقاما ممن يسيء إليه.. بالطبع.. شخصيته القوية.. نفوذ والده.. بنيته الرياضية.. أصدقاؤه المجرمون.. كلها أسباب تجعل الجميع يتحاشى إغضابه.. وأنا لا ألوم أحد على خوفهم منه ولا أستطيع أن أصفهم بالجبن.. فأنا نفسي كنت أخشاه كثيرا كما أخبرتكم!!.. حتى حملة جمع المعلومات التي قمت بها حوله كانت سرية كي لا يعرف (راشد) بما أخطط له.. عندها لا أعرف ما سيفعله بي.

أخبرت رهام بكل ما سمعت وعرفت عن (راشد).. لكنها لم تصدق كلامي.. تصوروا هذا!!.. لأنه كان يعاملها برومانسية وبأسلوب محترف إلى درجة يصعب معها أن يصدق أحد أنه يحمل قلبا أسودا!!.. فاستمرت علاقتها معه قرابة الشهر.. وبالطبع كانت علاقتهما تسير في الخفاء.. ومن يراهما معا في المدرسة يظن أنهما زميلين فحسب..

الغريب أن (بدر) -شقيق (رهام)- لم يعرف شيئا على الإطلاق.. وظن أيضاً أن الأمر لا يتجاوز علاقة بين زميلي دراسة.. كل ما أبداه (بدر) هو استغرابه من اهتمام (راشد) بشقيقته وبه في المدرسة.. بالطبع كان (راشد) يهتم بأمر (بدر) أيضا كي يكسب حب شقيقته ويبين لها أنه شخص طيب القلب ويحبها بصدق.. وقد صدقته الحمقاء بسذاجة أغاظتني بالفعل.

لقد وجدت أن لا دور لي على الإطلاق فيما يحدث بعد محاولاتي اليائسة لكشف (راشد) على حقيقته أمام (رهام).. فآثرت الانسحاب من حياتها هي وشقيقها متوقعا في أي لحظة أنها ستفيق من الصدمة بعد أن يطرحها (راشد) جانبا ويهملها.. لكن.. من قال أن توقعاتي تسير بالشكل الصحيح؟!!.

فبعد حوالي شهر ابتعدت فيه تماما عن الشقيقين.. فوجئت بخبر هبط علي كالصاعقة.. عندما قامت إدارة المدرسة بنعي (رهام) لوفاتها في حادث مأساوي!!.. ما هو الحادث المأساوي؟!.. لم يعلنوا عنه.. ولم يعلم به أحد!!.. شعرت بحزن شديد وصدمة بالغة غير مصدق أنني لن أرى بعد اليوم تلك الفتاة البريئة التي لاقت ربها وهي في عمر الزهور.. بحثت عن شقيقها (بدر) لأسأله عن التفاصيل.. لكنه لم يحضر إلى المدرسة إلا بعد أسبوع كدت خلالها أن أحترق فضولا لأعرف سبب مصرعها.. فأنا أجهل أرقام هواتفهم.. سواء المنزل أو الهاتف النقال -إن كانوا يملكون واحدا- وعندما قابلت (بدر).. كان في أسوأ حال.. ليخبرني بصوت أثار شجني كثيرا أن وفاة شقيقته كان عبارة عن انتحار!!.

-(رهام) انتحرت؟!.. يا للهول!!

قلتها وقد اتسعت عيناي عن آخرهما ذهولا.. فأنا لم أتوقع هذا على الإطلاق!!.. لقد ظننت الأمر متعلقا بحادث سير.. أو شيئا من هذا القبيل.

سألته عن تفاصيل حادثة الانتحار فأخبرني بصوت حزين باك ينيط القلوب أنه عرف من مذكرات شقيقته أنها كانت على علاقة وطيدة ب(راشد).. لكن الوغد خدعها وسلبها أغلى ما تملك!!!.. ثم تركها وكأن شيئا لم يكن.. تركها منهارة.. وهي التي ظنت أنه سيحميها من شياطين العالم كما أخبرتني من قبل!!.. فلم تجد الفتاة حلا آخر سوى الانتحار.. حيث ابتلعت كمية كبيرة من الدواء مع ترك رسالة مقتضبة لشقيقها ووالدتها تقول فيها كلمة واحدة فقط :((سامحوني)).

ولم يخبر (بدر) والدته بالسبب الحقيقي وراء انتحار (رهام).. كان يخشى كثيرا أن تخوض والدته حربا مع أناس فوق القانون.. وربما هذه هي المرة الوحيدة التي يتصرف فيها (بدر) تصرفا مسؤولا يحمي به والدته.

إن الأمر لا يصدق بالفعل.. إنني أسمع كثيرا بحوادث الانتحار.. لكن لم أتوقع يوما أن يحدث هذا لشخص أعرفه.. شرعت أفكر بحزن في حال هذه الفتاة.. لقد أجرم والداها كثيرا في تربيتها.. فمن يستطيع أن ينال التربية السليمة في منزل مفكك كهذا ومع أب مخمور طوال الوقت ينهال ضربا على أولاده وزوجته بسبب وبدون سبب؟!.. لقد توفي الأب وارتاح الجميع من شروره.. ولكن تلك السنوات الصعبة التي عاشتها (رهام) وأمها وشقيقها بوجود الأب قد تركت آثارا نفسية هائلة لا يمكن علاجها بسهولة.

لقد رحلت المسكينة دون أن تترك وراءها سوى تلك الرسالة القصيرة التي لم تعبر عن شيء مما شعرت به وعاشته في حياتها من احباطات وأزمات نفسية.. وما جعلني أشعر بألم هائل يعتصر قلبي هو الحقير (راشد)!!.. أراه في المدرسة يمازح هذا ويضحك مع ذاك دون أي شعور بالذنب.. إن هذا الوغد لجدير أن نكتب اسمه بنور ليكون مخلدا مع كل مجرمي العالم كـ (هتلر) و(صدام حسين).. الفارق الوحيد أن (راشد) لم يحكم دولة لحسن الحظ.. ولو فعل لأحالها إلى أرض محروقة.

وبالطبع كان خبر وفاة (رهام) له وقع الصاعقة على الجميع.. لكن سرعان ما نسوا الأمر برمته وسط زحمة الحياة دون أن يعلم أحد أن الفتاة قد انتحرت بواقع الأمر ولم تلق مصرعها بحادث كما صرحت إدارة المدرسة.

حمدا لله أن أحدا لم يكترث للبحث عن أسباب وفاة (رهام).. ربما بسبب ندرة أصدقائها وعدم ارتباطها بعلاقات من أي نوع مع أحد.. سوى (راشد) بالطبع الذي لم يكترث إطلاقا بما حدث وكأن الأمر لا يعنيه.. علما بأن (بدر) أخبره بأن (رهام) قد انتحرت بسبب سلبه لشرفها عله يشعر بالذنب.. لكن هيهات!!.

كان (بدر) يعض على شفتيه قهرا.. وهو عاجز تماما عن اتخاذ أي رد فعل تجاه (راشد).. السبب الرئيسي والمجرم الحقيقي وراء انتحار (رهام).. وقد أثار هذا جنوني.. لذا لم أعد أستطيع كتم غيظي أكثر من ذلك.. لأذهب إلى (راشد) عازما أن أفعل شيئا وأقوم بتحطيمه.. فوقفت أمامه بتحد على الرغم من أن رأسي يكاد أن يصل إلى صدره.. لكن هذا لم يمنعني من أن أقول له وأنا أضغط على أسناني غيظا:

-ستدفع ثمن ما فعلته مع (رهام) أيها الحقير.. وأعدك بأن الأمر لن يمر أبدا بهذه البساطة.

نظر إلي لوهلة غير مصدق هذا التهديد.. فالمنظر كان مضحكا بحق لمن يرانا.. أنا أقوم بتهديد (راشد)؟ !!.. لم يلبث أن ابتسم بوحشية.. ابتسامة قاسية مخيفة وكأنه يقول لي:

-هل تظن أنني سأهتم بتهديد تافه مثلك؟!

لكنه لم ينطق بكلمة.. الأمر الذي دفعني كي أقول له بحنق:

-إنني أعرف ما فعلته بـ(رهام).. سأبلغ الشرطة وأخبرهم عن نشاطاتك المشبوهة.. سأجعل رجال الشرطة يفتحون كل الملفات ويبدأون تحقيقا شاملا معك.. إنني أعرف كل شيء عنك.

وجه إلي نظرة طويلة جمدت الدماء في عروقي.. ثم قال بكلمات تقطر حقدا وكراهية:

-تتحداني؟!.. أنت تتحداني؟!.

ثم أكمل بشراسة وبصوت خافت:

-اعتبر نفسك إنسانا ميتا من الآن فصاعدا.

انتبهت مع تهديده إلى الحماقة التي أقدمت عليها.. فشعرت بتوتر بالغ في أعماقي!!.. إنني أخشى هذا الوغد.. أخشاه بشدة.. حاولت أن أكون شجاعا وفشلت.. ظننت أن صوت الحق سيعلو.. لكني أضعف من أن أحمل لواء الحق.. ليتني ذهبت مباشرة إلى الشرطة دون أن يعرف من وشى به.. لقد تصرفت بطيش وغباء شديدين!!.. إن هذا الفتى مجرم.. وقد يفعل أي شيء لينتقم مني إذا ما أبلغت عنه.. فلست بقادر على مواجهته هو وأسرته التي يكفي أن تعرف لقبها كي تفهم ما أعنيه.

لم ينتظر (راشد) طويلا لينفذ تهديده لي.. فبعد أقل من أسبوع.. كنت على موعد مع فرصة نادرة جدا كي أشاهد أفعال إنسان لا يحمل في أعماقه ذرة إنسانية!!.

بالمناسبة.. لم أخبركم أن باص المدرسة الذي يقلني يتوقف عند شارع (ناصر المبارك) في منطقة الرميثية لإيصال أحد الطلبة إلى منازلهم.. وأنا أنزل مع هذا الطالب لأمشي في زقاق ضيق يقع بين مدرستي (فلسطين) و(أم القرى) عائدا إلى البيت -أو الشقة لو أردنا الدقة- وأنا أفعل ذلك لأن الباص سيقوم بالوقوف 7 مرات على الأقل لإيصال طلبة أخرين قبل إيصالي عند باب البيت.. لذا فالنزول في ذلك المكان وإكمال الطريق سيرا على الأقدام سيكون اختصارا للوقت.. لم أكن أعلم أن أمرا كهذا كاد أن يكلفني حياتي؟!!.

كنت عائدا من المدرسة في فترة الظهيرة.. أمشي وحيدا في ذلك الزقاق الذي لا أجرؤ إطلاقا على المشي فيه ليلا متجها إلى الشقة.. أرى على الجدران عبارات بذيئة متناثرة كتبت بعلب السبراي أو الأقلام الغليظة.. وكلها تمجد عائلة ما.. أو تشتم عائلة أخرى.. أو كلمات أخرى بذيئة لا سبب لها سوى قلة التربية التي يعاني منها عدد كبير من شبابنا مع الأسف.. خواطر كثيرة تنساب إلى ذهني.. مشاعر سلبية هي مزيجا من التشاؤم والحزن.. يبدو أن الحزن والتشاؤم أصبحا هواية عندي.. ولكن.. مهلا!!.. لقد شاهدت شيئا جعل حواسي تتحفز!!.. فبينما كنت في بداية الزقاق.. رأيت في نهايته 4 أشخاص يأتون من بعيد.. على بعد 50 مترا تقريبا.. شيء في هؤلاء القادمين جعلني أتوجس خوفا.. إذ كانوا يمشون في غير انتظام.. ومشيتهم توحي بالاستهتار والعدوانية والغطرسة.. وكانوا يتبادلون الضربات فيما بينهم على سبيل المزاح.. وعندما اقتربوا قليلا تبينت ملامحهم جيدا.. إنهم زملائي في المدرسة.. وأحدهم هو (راشد)!!.

لم يكن يبادل رفاقه المزاح.. كل ما كان يفعله هو التحديق بي بنظرة جعلتني أرتعد خوفا.. وبالطبع سد علي الطريق مع أصدقائه الثلاثة الآخرين.. ووقف أمامي نافشا صدره!!.. الزقاق خال تماما من المارة.. فلا يوجد من استنجد به.

قال (راشد) لأصدقائه وعلى وجهه ابتسامة ذئب -لو كانت الذئاب تبتسم-:

- معذرة.. إن أذني ليست على ما يرام.. ولكن.. هل سمعتك في المدرسة تتكلم كالرجال منذ أسبوع؟!.

لم أنطق بكلمة.. لقد شلني الخوف تماما.. فأردف قائلا:

-ثم إنني لا أدري لماذا أشعر بالمهانة كلما قابلت عبقريا.. كأنني تلقيت صفعة على قفاي.. لحسن الحظ أنني تتبعت طريق عودتك إلى البيت ووجدته مثاليا كي تتلقى فيه عقابك دون أن ينقذك أحد.

عجزت مرة أخرى عن الرد.. كنت أنظر إليه بنظرات مذعورة مليئة بالخوف.. وقد بدأت أشعر بتوتر شديد.. ذلك التوتر الذي يشعر به الإنسان المسالم الذي سيتعرض لاعتداء جسدي لأول مرة في حياته و.. بدأت أرتجف.. أحاول أن أخفي ذلك لكني لا أستطيع.. وفجأة.. تهوى صفعة قوية على وجهي ليتوهج خدي بالدماء.. وأقع على الأرض من قوتها!!.. ألم شديد يمزق أعصابي ويبعثر كرامتي.. كنت في حالة ذهول تام.. لأنني لم أجرؤ قط على تخيل أن كل هذا قد يحدث لي يوما.. حاولت الهرب لكنه أمسكني من ثيابي بقوة ليقول بسخريته البغيضة:

-هيا.. انتقم لنفسك إن استطعت.

يضحك أصدقاؤه دون أي إحساس بالرحمة!!.. ثم.. صفعة أخرى لم أر نظيرا لها.. وصفعة ثالثة جعلت الدماء تملأ مقلتي عيني.. لقد تبلل وجهي تماما.. هل كان مبتلا بالدموع أم الدماء؟!.. لا أذكر.. وفي جزء أدركت أن لا مزاح في الأمر.. وأن علي بالفعل أن أبذل كل ما بوسعي لأهرب.. غير عالم أن ما فعله (راشد) هو أقل ما سأراه في هذا اليوم المشؤوم.. فقد انطلقت قبضته كالقذيفة بلكمات مجنونة إلى كل مكان من جسدي.. عيني.. أنفي.. رقبتي.. بطني.. وهو يستمتع بكل ثانية يقضيها في ضربي.

ارتمى بعدها فوقي بكل ثقله وأنا مرمي على الأرض.. ثم راح يوجه لي اللكمة تلو الأخرى.. ليقف بعدها ويشبعني ركلا وسط صيحات التشجيع من أصدقائه.. إن هذا الوغد لا يعرف الرحمة حقا!!.. ثم وجه لي ركلة قوية في بطني جعلت أذني تصفر والهواء يندفع من فمي.. لكني -لسوء الحظ-لم أغب عن الوعي!!.

كنت مرميا على الأرض وقد فقدت تماما القدرة على النهوض.. وشعري يتهدل على جبيني معجونا بالدم.. نظرت إلى فخذي فرأيته ينزف بغزارة بعد أن طعنني بمدية حتى المنتصف!!.. غريب!!.. كنت أقرأ هذا دائما في الروايات فلا أصدقها.. كيف يجرح إنسان دون أن يتألم؟!.. لكن هذا حقيقي.. لقد طعنني بمدية وأدخلها حتى المنتصف في فخذي لكني لم أشعر بأي ألم!!.

شعرت بقشعريرة تغزو عامودي الفقري.. هل الإنسان متوحش إلى هذا الحد.. إن الذي يقترف كل هذا هو لابد أن يكون إنسانا مثلنا.. فما الذي يحدث له كي يغدو سفاحا؟!.. إنها تجربة شنيعة أن ترى أمامك كائنا يرتدي ثياب البشر.. ولكنه شيطان زنيم رهيب يفوقك قوة بمراحل!!..

ما زلت أذكر جيدا ما حدث لحظة بلحظة.. وهذا في الواقع غريب جدا!!.. فمن البديهي أن أقول إن الدنيا اسودت أمامي ولم أر شيئا وفقدت الوعي و.. إلخ.. لكن الوضع اختلف تماما معي.. فأنا أذكر جيدا كل ضربة هوى بها ذلك الوغد على جسدي المتهالك..

أشم رائحة الدماء وأعرف أنها دمائي.. وأرمق أظفار يدي عالما أنني أخيرا سأفقد وعيي.. ترى كيف يكون مذاق الموت؟!.. فأنا بالفعل أشعر بأنني لن أصحو أبدا إذا ما غبت عن الوعي.. شريط حياتي يمر علي في ثوان.. والدم يغمر وجهي وقد تورمت كل عضلة فيه.. لكمات وركلات وصفعات شرسة غير آدمية مزقتني تمزيقا.. مذاق الدم الصدئ يملأ فمي.. وثيابي تمزقت تماما.. وقد اختلط العرق بالغبار صانعا مزيجا يسهل معه أن تنتحر!!.. كيف ستعيش جدتي بعد موتي.. سأموت ولم أحقق أي من أحلامي.. وستقيد القضية على الأرجح ضد مجهول.

حمدا لله.. لقد انتهى الخطر.. وولى المرض الطويل.. والحمّى التي يسمونها (الحياة).. الحياة التي لم تهبني سوى الهزائم.. ومع هذا كنت طوال عمري أتشبث بها.. أعرف أن قواي قد فارقتني وأنني عاجز عن تحريك عضلة واحدة.

خواطر كثيرة انتابتني وأنا مرمي على الأرض.. خواطر كثيرة سأتذكرها دوما كلما.. كلما ماذا؟!.. لن يكون هناك غد.. ولن أتذكر شيئا بعد الآن.. لقد حطموني تماما.. إنه الموت.

-سيكون هذا درسا لك.. عينة مما أستطيع فعله لو تجرأت وهددتني مرة أخرى!!.

قالها وهو يلهث من شدة التعب.. ولم يتوقف رغم هذا إلا بعد أن تعالت أصوات أصدقائه يطلبون الرحمة لي بعد أن تحولت إلى خرقة صالحة لتنظيف الأحذية.

لقد تركني المجرمون بعدما تفنن (راشد) في ضربي وهربوا بعدها جميعا.. غريبة جدا هي لحظة الشجار!!.. كل الضوضاء والمخاوف والأفكار تتوقف في ثانية واحدة.. ويتحول المشهد إلى جسد مكوم على الأرض تفور منه الدماء!!.

بعد ذلك بلحظات لفني الظلام بردائه فلم أعد أرى شيئا.. وبدأت أشعر أخيرا أنني سأفقد وعيي.. لن يجدني أحد في هذا الزقاق.. ليس قبل ساعتين أو ثلاث على الأقل.. فهو كما أخبرتكم زقاق ضيق غير مرئي.. وليس ممشى لممارسة الرياضة مثلا.. لقد دنت النهاية.. فلأتل الشهادتين.. ولكن عسى ألا أكون قد تأخرت أكثر من اللازم.. عسى ألا أكون قد مت فعلا!!.

لم أمت بالطبع.. وإلا لما حكيت لكم حرفا واحدا من هذه القصة.. لقد فقدت الوعي فحسب.. لماذا لم أمت؟!.. لا أدري.. إنها معجزة لا أفهم حتى الآن كيف تمت.. أعتقد أن التفسير الوحيد هو أن أجلي لم يحن بعد.. وهذه الأشياء عموما لا يمكن تفسيرها بالورقة والقلم.. ثم لا يمكن أن تلوموني على أنني لم أمت.. لقد حاولت وفشلت!!.

شعرت بعدها بساعات طويلة لا أستطيع تقديرها بذراعين قويتين تحملاني من على الأرض وأنا في أسوأ حال ممكن.. و.. فقدت الوعي بعدها.. أخيرا!!.

حلم طويل غير مترابط.. من المعروف أنه ليس للزمن قيمة في عقلنا الباطن.. فقد تحلم حلما تبدو لك أحداثه أنها استغرقت ساعتين على الأقل.. إلا أن الحلم لم يستغرق فعليا سوى بضع ثوان.. لكني شعرت بالفعل أن الحلم طويل جدا.. جدتي.. روح أبي تطاردني مرة أخرى.. الوسيط الروحي الذي قام بتحضير روح أبي.. من سيفوز بكأس العالم القادمة؟!.. كيف سيكون حال العالم بعد 10 أعوام من الآن؟!.. لماذا أحب قصة (روميو وجولييت) لـ(شكسبير)؟!.. أسئلة غير مترابطة وعقل عائم هائم لا يميز شيئا.. قبل أن أشعر أخيرا أن حلقي جاف كالربع الخالي في فصل الصيف.

لم أكن واثقا من أن هذه هي الجنة.. فأنا أعرف أن الجنة لا مكان فيها للألم الذي يمزقني الآن.. كما أستبعد أن تكون هذه جهنم.. مستحيل أن تكون جهنم بهذا الهدوء.. و.. شيئا فشيئا.. أدركت أنني لم أغادر عالمنا قط.

أفتح عيني ببطء شديد شاعرا أن النور يكاد يحرقهما على الرغم من ضعفه.. فأغمض جفني مرة أخرى.. جفني اللذين أصبحا أثقل من الهرم الأكبر.. أزدرد لعابي لكني لا أجد لعابا لأزدرده.. فتكلمت بصعوبة بالغة بسبب شفتي اللتين التصقتا بالقشور:

-أ.. أين أنا؟!.. م.. ماذا يحدث؟!.

هنا فقط سمعت صوتا مألوفا يردد:

-الحمدلله.. الحمدلله.. لقد استيقظت أخيرا.. حمدا لله على سلامتك يا بني.

استطعت أخيرا تمييز هذا الصوت.. إنه صوت جدتي.. صوت باك حزين متلهف.. ثم أمسكت يدي وهي تقول:

-لا أدري ما كنت سأفعل لو.. لو...

لم تستطع إكمال عبارتها.. فقد بكت كثيرا وقبلت جبيني.. لماذا تؤلمني كل عضلة من جسدي؟!.. إنني حي.. أدرك هذا تماما.. لكن رأسي ثقيل حتى أنني بالكاد أستطيع البقاء مستيقظا.. ففقدت الوعي مرة أخرى لأستيقظ بعدها بساعات مع الشعور بأنني أفضل حالا.. لا أعرف الساعة الآن.. لكن أعتقد أن الوقت ليلا.

وقد عرفت أنني في مستشفى (مبارك).. إذ صحوت لأجد نفسي ملفوفا بالضمادات.. ففهمت ما هناك.

أرى شخصين يرمقاني ممدا وسط خراطيم المحاليل وخراطيم الأكسجين وخراطيم البول.. كنت شبيها بالعنكبوت بسبب كثرة الأنابيب الداخلة إلى عروقي.. ولم يقطع حبل الصمت إلا صوت ممرضة من جنسية عربية تقف بجانبي وتنظر لي بإشفاق:

-أخيرا استيقظت.. لقد كنت قريبا جدا من الموت.. ولكن يبدو أن ساعة أجلك لم تحن بعد لحسن الحظ.

حاولت أن أتحرك قليلا.. فلم أستطع.. شعرت أن جسدي متخشب وكل خلية فيه تؤلمني.. فلم أجد سوى أن أقول:

-إن ما حدث لي بالأمس كان.....

قاطعتني وهي تبتسم بعطف:

-إنك هنا منذ حوالي شهر!!!.

أفقت كالملسوع.. آآآآه.. شعرت بألم في كل ذرّة من جسدي بسبب تلك الإفاقة.. يا إلهي.. إنني فاقد الوعي منذ شهر!!.. هذا لا يصدق.. وجدت نفسي أسألها بصعوبة بالغة:

-هل كانت إصاباتي خطيرة؟!.

-لقد تحطمت بعض أضلاعك.. مع ارتجاج في المخ وكسر في الفك!!.. وكدمات عديدة في جسدك إلى جانب طعنة سكين في فخذك.. وطعنة أخرى في معدتك.. لقد تطلبت بعض الإصابات إجراء عمليات جراحية.. ثم إن بعض أسنانك قد تكسرت مما تطلب تركيب أسنان صناعية.. صدقني يجب أن تحمد الله وتشكره على إبقائك حيا.

غريب هذا.. لا أذكر أبدا أن (راشد) قد طعنني في بطني!!.. يبدو أنني فقدت الإحساس بالألم عندما كنت على وشك فقدان الوعي.. فوجدت نفسي أغمغم مذهولا:

-حمدا لله.. حمدا لله دائما على كل شيء.

قالت الممرضة بتعاطف:

-سنطلب جدتك ونخبرها بأنك أفقت من غيبوبتك.. ولكن سأنادي الدكتور لرؤيتك أولا.. وهناك أيضا محقق المستشفى الذي يود سؤالك عن بعض الأمور وعن هوية الذين اعتدوا عليك.

يبدو أن أمامي وقتا حافلا بالتأكيد.. لكني وجدت نفسي أقول لها في خفوت شديد:

-افعلي ما يحلو لك.. شكرا على كل حال.

لكن.. بعد أن عرفت أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل:

-ولكن أرجوكم لا تطلبوا جدتي الآن.. إننا في وقت متأخر.. دعوها ترتاح واتصلوا بها صباحا.

فكرت الممرضة قليلا ثم قالت:

-لا بأس.

ذهبت وتركتني وحيدا في غرفة كبيرة تبين أنها غرفة العناية المركزة.. وجواري صيدلية كاملة من الأدوية التي ترش وتشم وتبلع و.. إلخ.. يظهر أنني أصبحت ثروة طبية حقا بسبب كل تلك الإصابات والكسور.

أرقد في غرفة العناية المركزة أرمق السقف وأصغي لصوت أجهزة التنفس الصناعي لدى أكثر من مريض حولي.. ما أضعف الإنسان.. وما أشد غروره!!.

بعد دقائق رأيت طبيبا واقفا بالقرب مني وهو يبتسم بتعاطف:

-كيف حالك اليوم أيها البطل؟!

-الحمدلله.. أشعر بأنني أفضل حالا بكثير.. شكرا يا دكتور!!.

ثم تذكرت أمرا بالغ الأهمية؟!.. فقلت بذعر:

-يا إلهي.. لقد فاتتني الكثير من الدروس.. إن الاختبارات الشهرية على الأبواب.. يجب إبلاغ إدارة المدرسة بذلك.. يجب أن....

قاطعني وهو يربت على كتفي برفق ويقول مطمئنا:

-لا تخش شيئا.. لقد فعلت جدتك ذلك وأبلغت إدارة المدرسة التي سمحت لك بتأجيل كل امتحاناتك إلى أن تخرج من المستشفى بإذن الله.

وجدت عيني تدمعان تأثرا.. كم أنت رائعة يا أمي.. أطال الله بعمرك.. ثم استطرد الدكتور بحزم:

-ستتحدث إلى محقق المستشفى عن هوية الذين ضربوك بهذه الصورة البشعة.. يجب أن ينال المجرمون جزاءهم.. إن فعلتهم الدنيئة تفوق الوصف.

قلت بشرود:

-إنني مستعد للحديث مع المحقق في أي وقت.

-سيتم ذلك عند خروجك من غرفة العناية المركزة.. في الغد على الأرجح.. فأعتقد أن صحتك قد تحسنت كثيرا.

تركني الطبيب بعد أن سجل بعض الملاحظات على النوتة الخاصة بحالتي.. وإن بدا راضيا تمام الرضا عن صحتي.

أغمضت عيني ونمت بسرعة.. إذ كنت مرهقا بالفعل وأشعر بأنني أحتاج إلى راحة طويلة.. فلم أصح إلا بعد ال 11 صباحا بقليل.. لأرى جدتي وهي تجفف دموعها وتحتضنني بقوة.

-حمدا لله يا بني.. حمدا لله على سلامتك.

اختلطت كلماتها ببعضها حتى غدوت لا أفهم شيئا مما تقوله.. فآثرت الصمت وشرعت أقبل رأسها ويديها والدموع تملأ أعيننا تأثرا.. حقا أننا لا نملك في هذا العالم سوى بعضنا.. ولا أتصور حياتي أبدا بدون جدتي.

-من فعل بك هذا يا بني؟!.

سألتني هذا السؤال بحزن.. فنظرت إليها قليلا.. ثم أجبت:

-لا أدري.. لا أدري يا أمي.

لماذا كذبت عليها؟!.. لا أعلم!!.. هاجس قوي ألح علي أن أفعل هذا.. وقد استسلمت لهذا الهاجس الذي أثق به دوماً.. ثم ما الذي سيحدث لو أبلغت الشرطة عن (راشد)؟!.. تعهد خطي؟!.. غرامة مالية على أسوأ تقدير؟!.. بالطبع سيأتي والده وربما برفقة بعض من نواب مجلس الأمة معدومي الضمير ليقبلوا أيدي ضباط المخفر من أجل هذا المجرم الذي يعيث في الدنيا فسادا.. والأهم من ذلك أنني لا أملك دليلا ضد (راشد) أصلاً.. وإني لواثق من أنه لن يتورع عن إحضار عشرات الشهود الذي لن يتورعوا بدورهم عن الشهادة زورا بأنه كان معهم عندما تعرضت للضرب.

مع مرور الأيام.. تحسنت حالتي كثيرا.. بسبب حرصي الكبير جدا على صحتي وراحتي.. ورعاية جدتي الحبيبة لي.. فقد كانت بجانبي أغلب فترات اليوم.. إذ ظلت تأتي وترحل بواسطة سيارة أجرة.. حتى تطوعت إحدى الممرضات جزاها الله كل خير بإيصال جدتي من البيت إلى المستشفى والعكس.. سنة واحدة يا أمي وسأشتري سيارة لأريحك من كل هذا.. أعدك.

بالطبع -وكما خططت تماما- أنكرت معرفة مرتكبي تلك الجريمة بحقي.. فأخبرت المحقق أنني إنسان في حالي ولا أعداء لي.. وأن عليه هو البحث عن الجناة.. وأخبرته أن كل ما أعرفه هو أنهم كانوا أكثر من شخص.. يسألني بلهفة:

-هل تستطيع التعرف عليهم إن رأيتهم؟!.

فأجيبه ببراءة مصطنعة:

-لا أعرف يا حضرة المحقق.. إنني لم أرهم سوى مرة واحدة لأقع بعدها في غيبوبة لأكثر من شهر.. لست واثقا إن كنت أستطيع التعرف عليهم.

كان لا بد أن أفعل هذا.. لأن القانون لن يطول (راشد) لأسباب ذكرتها لكم.. ولأنني -وهذا الأهم- سأنتقم منه بنفسي.. سأطبق العدالة التي يعجز القانون عن تحقيقها لرد اعتباري.

كنت طوال فترة إقامتي في المستشفى -وبعد أن تحسنت حالتي الصحية- أقضي وقتي بالدراسة.. ورسم خطة الانتقام.. إن ما سأفعله هو الجريمة الكاملة التي ظن الكثيرون أنها مستحيلة.. والتي يطلق البعض عليها لقب: عنقاء الطب الشرعي.. سأجعل (راشد) يندم على كل ما فعله.. ربما سأقتله.. نعم.. إن قتل الصراصير المؤذية ليس بجريمة.. لكن مهلا!!.. إن القتل قد يظهره بمظهر الشهيد.. سأفعل إذا ما هو أشد من القتل.. سأجعل الجميع يبصقون عليه وهو خلف القضبان على الرغم من نفوذ والده.. سأخطط لكل شيء بهدوء ولن يكون هناك أي عنف في الموضوع.. ولنر من سينتصر.. العقل أم القوة.

أقول هذا وأتذكر حكاية الأديب الأمريكي (أمرسون) الذي كان يملك حظيرة للأبقار.. وكان في

الحظيرة عجل صغير حاول أن يخرجه (أمرسون) دون جدوى.. فنادى أولاده وتعاونوا جميعا على جر هذا العجل إلى خارج الحظيرة.. لكنهم فشلوا بسبب قوة العجل وعناده الشديدين.. لتلجأ خادمة الأديب إلى حيلة ذكية وطريفة بنفس الوقت.. إذ وضعت إصبعها في فم العجل فراح يمص أصبعها وكأنه ثدي أمه ليتبعها إلى الخارج بكل هدوء!!.. وقد أثار هذا التصرف الذكي إعجاب (أمرسون) كثيرا.. حيث فعلت الخادمة (بالعقل) ما عجز وهو وأولاده عن فعله (بالقوة).

وما جعلني أستشيط غضبا هو رؤيتي له -(راشد) وليس الأديب (أمرسون) طبعا- في المستشفى.. تصوروا هذا!!.. لقد صعقت بزيارته لي وهو يحمل الابتسامة الشرسة المتشفية ذاتها!!.

جلب مقعدا وجلس إلى جواري.. وقد كنت بصحة جيدة للغاية حيث وعدني الطبيب بالسماح لي بالخروج بعد أسبوع على الأكثر.. و:

-(خالد) كيف حالك يا صديقي.. أعتقد أنك استفدت كثيرا من الدرس الذي تلقيته على يدي.. أليس كذلك؟!

لم أرد.. ولم أنظر إليه.. فواصل كلامه بهدوء مستفز جعلني أعض على شفتي غيظا:

-لا تدس أنفك فيما لا يعنيك أبدا.. ولا أعتقد أنك غبي كي تخبر الشرطة بأمري.. حتى إن فعلت.. فهناك العشرات من الشهود الذي سيقسمون بأنني كنت في مكان آخر.. انس ما حدث لك وعش حياتك بصورة اعتيادية.. وإلا سترى أسوأ مما رأيت.. أعدك بذلك.

ألم أقل لكم بأنه لن يتورع عن إحضار عشرات الشهود ليشهدوا زورا لصالحه؟!.. كنت واثقا من هذا.. لكني ضعفت للحظة.. ووجدت نفسي أخاطبه بلغة العقل:

-هل تعي ما فعلته مع (رهام)؟!.. لقد دمرت حياة فتاة مسكينة.. لماذا فعلت هذا؟!.. ما الذي جنيته من فعلتك البشعة؟!.

هز كتفيه بلا مبالاة قائلا:

-وماذا في هذا؟!.. لقد أعجبتني الفتاة واستحسنت رقتها الشديدة.. فأردت العبث معها قليلا.. لم أطلب منها الانتحار.. هي فعلت ذلك بإرادتها.

-فعلت ذلك لأنها وثقت بك وأحبتك.. في حين أنك خدعتها وفي لحظة ضعف سلبتها أعز ما تملك أي فتاة شريفة.. ثم رميتها بإهمال.

قال بتلك الابتسامة الباردة الصفراء:

-كانت هذه مشكلتها لا مشكلتي أنا.. ثم إنها حمقاء لأنها وثقت بي.. فالقانون لا يحمي المغفلين.

لم أرد على فلسفته الحقيرة.. ليستطرد قائلا وهو يضحك وكأنه سيخبرني بنكتة ظريفة:

-هل تعلم أنني صدمت مرة بسيارة أبي شخصا من جنسية آسيوية وفررت؟!.. لقد توفي هذا الشخص.. عرفت هذا من الصحف.. لكنني لم أسلم نفسي إلى السلطات وأضيع مستقبلي من أجل شخص كهذا.. فهو مجرد آسيوي حقير لا تتساوى حياته مع حياتي بكل تأكيد.. وأنتم جميعا على كل حال كمستعمرة النمل بالنسبة لي.. أستمتع بركل جحرها بقدمي من حين لآخر.

قالها وكأنه يبصق بوجهي!!.. يا إلهي.. لم أشعر في حياتي ببغض واحتقار لأي شخص كما شعرت تجاه (راشد).. هل يوجد أناس بهذه القسوة بالفعل؟!.. إنني أسمع عنهم فقط ولا أراهم.. وإنني

الآن أمام فرصة نادرة فعلا.. إنسان مجرد من كل مشاعر الإنسانية.. إنسان قاس ذو قلب بارد كالقارة القطبية.

-(خالد).. أنصحك مرة أخرى ألا تدس أنفك فيما لا يعنيك.. وإلا فإنني أعدك بأنك ستتوسل إلي في المرة القادمة كي أقتلك.. لأن ما سأفعله بك سيكون رهيبا وأشد قسوة بكثير من القتل.

قال هذا ونهض وهو يحمل تلك النظرة الوقحة ليخرج من غرفتي تاركا وراءه شخصا يستشيط غيظا.. وهو أنا بالطبع.

هل سمعتم ما قال؟!.. لقد قتل شخصا آسيويا وولى الأدبار.. يقول إن حياته أثمن من حياة آسيوي حقير.. سنرى من هو الحقير يا (راشد).

ظللت في المستشفى عدة أيام أخرى لا أفعل سوى دراسة ما فاتني في المدرسة والتفكير في خطتي العبقرية التي ستحقق الانتقام المطلوب.. خطة عبقرية بالفعل حتى أكاد لا أصدق أنني من خطط لها.. سأطهر مجتمعنا من هذه الجرثومة القذرة.

خرجت من المستشفى بعد أن قضيت حوالي 45 يوما.. يبدو أن نفقات علاجي ستتجاوز المليون دينار.. وهو مبلغ كاف لبناء مستشفى آخر.. ولكن حمدا لله أن العلاج مجاني في (الكويت).

بدأت بعدها أستعد لاختبارات آخر العام وقبلها الاختبارات الشهرية.. ليس هناك شيء أجهله.. مجرد عملية إنعاش بسيطة للمعلومات كي أغدو جاهزا.. فأنا -وهذا من دون أي غرور- لا أجد صعوبة في المناهج الدراسية أصلا.. ولهذا على الأرجح يصفني أساتذتي بالنابغة.. وعلى كل حال.. فإن المتفوق منذ دراسته الابتدائية لا يجد أي صعوبة كي يعود بقوة إلى الساحة الدراسية متى ما ابتعد عنها لأي ظرف طارئ كما حدث لي.. وهناك بالمناسبة فكرة خاطئة تستحوذ على عقول الكثيرين.. إذ تراهم ينشدون النجاح فحسب في جميع مراحلهم الدراسية.. وعندما يصلون لمرحلة الحسم في الثانوية العامة.. تجدهم يقتلون أنفسهم قتلا للنجاح بتفوق والحصول على معدل مرتفع.. وغالبا ما يفشلون.. فمن كان ضعيفا في المراحل الدراسية الأولى يندر أن تجده متفوقا في الثانوية العامة.

مرت الأيام سريعا وجاء وقت الاختبارات الشهرية.. فنجحت فيها بتفوق كالعادة.. وليس في ذهني سوى شيء واحد فقط.. الانتقام.. الانتقام الذي سيطفئ النار المتأججة داخلي.. ما زلت أرى (راشد) بنظراته الوقحة الباردة التي لم تتغير مع أصدقائه الذين يوجهون إلي نظرات تحتية ساخرة.. لكني كنت أتجنبهم.. إن انتقامي سيفي بالغرض.. سأضحك كثيرا وأكون بعيدا تماما عن أصابع الاتهام.. لقد أعددت لكل شيء عدته.. سأنتظر بعض الوقت حتى أنفذ الخطة عدة مرات في خيالي لأتأكد تماما من خلوها من أي ثغرات.

وقد كنت أرى (بدر) أحيانا في المدرسة.. هل نسيتموه؟!.. إنه شقيق (رهام) الناعم الرقيق.. لقد أصبح حطام إنسان يحمل نظرات مذعورة طوال الوقت ويعض على شفتيه قهرا وهو يرى (راشد) كل يوم.. لكنه آخر شخص ممكن أن يفكر بالانتقام.. إنه فتى ضعيف متخاذل ويحتاج إلى من يحميه.

كنت أتجاذب معه بعض أطراف الحديث لينفطر قلبي حزنا على حاله.. خاصة عندما قال وعيناه تحملان دمعة قهر:

-خالد.. إ.. إن (راشد) مجرم ويستحق العقاب.. لقد.. لقد قتل شقيقتي

فأسأله لمجرد الفضول:

-هل ستتركه هكذا يهزأ بالجميع وينجو بفعلته؟!.. ألن تفعل شيئا؟!.

ليرد بألم:

-لا أقوى على مواجهته.. فهو قوي يملك كل شيء وشخصيته في الواقع.. كاسحة.. بينما شخصيتي.. شخصيتي...

-شخصيتي ضعيفة.

قلتها في سري!!.. هذا ما يريد قوله.. والحقيقة أنني لا ألومه.. إن أسرته قد جعلت منه فريسة معدومة الحيلة مغلوبة على أمرها.

إن (راشد) إنسان سادي حتى النخاع.. مولع بالإيذاء وإحداث الأضرار.. وهو لا يرحم الضعف أو الوهن.. و(بدر) فتى ضعيف واهن لا يعرف شيئا تقريبا عن العالم الخارجي.

كان آخر اختبار في تلك المرحلة الفصلية على الأبواب.. وبعد تلك الاختبارات بحوالي شهر ستكون هناك اختبارات آخر العام.. وكنت أعاون (بدر) -من باب الشفقة- قدر المستطاع في فروضه المنزلية.

كما كنت في هذه الفترة سعيدا جدا ومتفائلا على غير العادة.. بعد أن انتهيت من إعداد خطتي ودرست كل تفاصيلها بدقة.. لن أخبركم بتفاصيلها حتى الآن؟!.. كنت سأخبركم بالخطة التي ستنال إعجابكم دون شك.. لكني لن أجد سببا يستدعي تنفيذها أصلا.. فقد حدث تطور خطير لم أتوقعه على الإطلاق!!.

ففي صباح اليوم الأخير للاختبارات الفصلية.. عندما كنت مستقلا باص المدرسة كالمعتاد ظانا أن اليوم سيكون كأي يوم آخر.. وصلت إلى المدرسة وإذ بعدد هائل من الطلبة -ولا أبالغ لو قلت جميعهم- يقفون في الخارج عند مواقف السيارات.. وحوالي 5 سيارات شرطة تلتف حول بوابة المدرسة مع سيارة إسعاف!!.. ما الذي يجري؟!.. هرعت راكضا حيث يتجمهر الطلبة في الخارج مع عدد كبير جدا من المارة.

سألتهم باستغراب:

-ماذا حدث؟!

تطوع أحدهم بالرد قائلا بأسف:

-يقولون أنهم وجدوا طالبا مقتولا في أحد الفصول!!.

سألته مذهولا:

-ومن هو هذا الطالب؟!.

تطوع شخص آخر بالرد:

-اسمه (راشد ال....) على ما أعتقد.

تراجعت للوراء حتى كدت أسقط على ظهري.. وقلت في جزع:

-(راشد) قتل؟!.. كيف؟!.. ومتى؟!..

لم يجب أحد.. فظللت واقفا مشدوها مصدوما أكاد لا أصدق ما يحدث.. وتشتت تفكيري تماما عندما رأيت اثنين من رجال الإسعاف يحملون جثة تم تغطيتها جيدا.. تماما كما نشاهد في السينما.. ويخرج معهم من المدرسة أكثر من 10 من رجال الشرطة وهم يتصرفون بشكل مسرحي استعراضي لمنع الناس من الاقتراب والتجمهر.

رجفة قوية سرت في جسدي.. يا للهول.. إن (راشد) الآن تحت هذا الغطاء.. لقد قتله أحدهم.. ولكن كيف قتل في المدرسة؟!.. ومن قتله؟!.. ومتى قتل؟!.. أسئلة أدفع نصف عمري للإجابة عليها.

من الممكن ترجمة كلمة (Anticlimax) ب(القمة المضادة).. أو عكس الذروة.. والكلمة هي تعبير يستخدمه كتّاب الدراما عندما تصل الأحداث إلى ذروتها.. لتأتي بعدها ذروة أخرى غالبا ما تضعف سياق القصة.. وهذا ما حدث في قصتي مع الأسف!!.. وعلى كل حال ليس هذا خطأي.. فهكذا جرت الأحداث.. ولكن الأمر لم ينته بهذه الصورة المبهمة بالطبع..

أين كنا؟.. آه.. جثة (راشد) وهي تمر أمامي مغطاة.. لم يكن هذا كل شيء.. فقد رأيت بعد هذا مشهدا لن أنساه أبدا.. (بدر)!!.. كان بصحبة رجال الشرطة وهو يرتجف بقوة وبشكل ملحوظ.. والدموع تملأ عينيه وقد بلل سرواله تماما!!.. ولو لم نكن نشهد جريمة قتل لانفجر الطلبة ضحكاً على مظهره.. لقد بدا منهارا تماما وقد أصبح بقايا إنسان.. ولا أبالغ لو قلت بأنني ظننت بأنه سيفقد عقله!!.

سمعت بعدها أحد المتجمهرين وهو يقول:

-إنه شاهد رئيسي.. بل الشاهد الأول.. فهو أول من رأى الضحية.

أعلم جيدا أن (بدر) لا يحتمل أبدا شيئا كهذا.. فهو رقيق الإحساس.. وجبان إلى أقصى حد.. وقد أخذه رجال الشرطة إلى المخفر للإدلاء بأقواله كشاهد رئيسي.. المشكلة هي أنه -كما كان واضحا- مصدوم نفسيا وعاطفيا.. وبالتالي فإن استجوابه سيكون مستحيلا.

لقد عرفت من بعض العبارات المبهمة التي تحدثوا بها بصوت مسموع أن الجريمة قد تمت ببشاعة.. وكان واضحا أن هناك من مثّل بالجثة!!.. كما كانت تبدو على ملامح (راشد) رعب هائل لا حدود له وكأنه رأى شبحا كما يقول رجال الشرطة الذين منعونا من دخول المدرسة اليوم لأن هناك إجراءات شاقة سيقومون بها.. كرفع البصمات وفحص كل شبر في المدرسة لعلهم يعثرون على خيط يقودهم لكشف الغموض المحيط بهذه الجريمة العجيبة.

شعوري؟.. لا أعرف.. كانت مشاعري متضاربة.. لقد ظننت أنني في وقت موت (راشد) سأكون أسعد إنسان.. لا أدري الآن إن كنت سعيدا أم حزينا.. إن القتل أمر بشع لا ريب.. حتى لو كان من قتل هو ألد أعدائك!!.

وجدت نفسي بشكل لا شعوري أعود إلى البيت مستقلا باص المواصلات.. وبالطبع لم أعد أمشي في ذلك الزقاق.. فقد أصبحت أكرهه كثيرا بعد أن كاد يشهد مصرعي.

عدت إلى البيت محاولا نسيان ما جرى.. فقضيت بعض الوقت مع جدتي نتحدث ونشاهد التلفاز حيث كان يعرض أحد المسلسلات العربية التي أشاهدها عادة مجاملة لجدتي.. شعرت بعدها برغبة عارمة في الخروج لنسيان ما حدث اليوم.. واخترت الذهاب إلى مكاني المفضل في (الكويت).. السينما.. حيث شاهدت أحد الأفلام الدرامية الرائعة واندمجت تماما في أحداثه..

وهذا أكثر ما أعشقه في السينما.. إذ تذوب تماما في هذا العالم المذهل لتلقي عن كاهلك كل أعبائك.. فتستولي الشاشة على كل مجال رؤيتك وأفكارك ولا تترك لك فرصة للتنفس.. بل ولا يصبح شغلك الشاغل سوى أن تنتهي الأحداث بالصورة التي تتمناها.

في اليوم التالي.. وفي الصباح الباكر جدا استيقظت على صوت جرس الهاتف.. إن رنين جرس الهاتف عندنا في هذا الوقت من اليوم هو أمر أكاد أن أجزم بأنه يحدث لأول مرة.. أرفع السماعة متسائلا عن هوية المتصل في وقت كهذا متوقعا مصيبة من نوع ما.. و.. لم يخب ظني كثيرا.

-آلو.. هل (خالد) موجود؟!.

-أنا (خالد).

-إنني الملازم (....) من مخفر منطقة (....)

سألته بنوع من القلق:

-ماذا هنالك؟!؟

-نريدك أن تأتي..

-لماذا؟!

-تعال وستعرف..

قالها في فتور وكأنه يرى سؤالي سمجا ونوعا من قلة الأدب..

قلت له ولم يفارقني القلق:

-سآتي بعد انتهاء الدوام المدرسي.

لماذا يريدون استجوابي؟!.. لا شك أن للأمر علاقة بمقتل (راشد).. ولكن ما دخلي أنا في الموضوع؟!.. هل يشتبهون بي مثلا؟!.

ذهبت إلى المدرسة وقد شعرت بأن اليوم الدراسي كان بطيئا جدا كحال أي شخص ينتظر شيئا بفارغ الصبر بعد المدرسة.

والآن.. ها أنا في المخفر مع ضابط المباحث في غرفة يملؤها دخان التبغ مما جعل الرؤية ضبابية.. ويحيط بالضابط حشد من العسكريين الذين تبدو على وجوههم سيماء الخطورة وهم يرمقونني جميعا بشك لا مبرر له أبدا..

كان المحقق ودودا مجاملا بتلك الطريقة المرعبة التي يجيد رجال المباحث أداءها.. في حين راح ينظر لي الآخرون بحدة وصرامة دون سبب واضح!!.. الأمر الذي جعلني على وشك الاعتراف!!.. بماذا؟!.. بأي شيء.. فلوهلة شعرت وكأنني قد ارتكبت جريمة بسبب نظراتهم المريبة لي.

أشار إلي أحدهم كي أجلس.. فجلست محاولا أن أبدو طبيعيا.. شعور سخيف سببته نظراتهم المتشككة لي.. فشعرت بذقني يرتجف رغما عني كعادتي حين أتحدث إلى مجموعة من الناس.. دعكم من أن هذا الجو العسكري المتوتر قد جعلني أشعر بتقلص في معدتي وأتصرف بالضبط كأنني شخص مريب.. إن ارتباكي سيجعلهم يشكون في أمري.. و...

أخيرا قطع أحدهم حبل الصمت ليقول:

-هل كانت تربطك ب(راشد) أي علاقة.. سواء إيجابية أم سلبية؟!.

هذا هو المتوقع طبعا.. أن يكون للأمر علاقة بمقتل (راشد).. ازدردت لعابي وقلت بصعوبة بسبب دقة الموقف أولا.. ولأنني سأكذب ثانيا:

-لا..

-هل أنت متأكد من ذلك؟

-نعم..

-هل تحدثت إليه من قبل؟

-قليلا.. كنا زملاء دراسة كما تعلمون.. ولم تمتد علاقتنا أبدا إلى خارج أسوار المدرسة..

-هل تعرف أحدا من الممكن أن يكره (راشد) إلى درجة القتل؟!.

حككت رأسي قليلا مفكرا.. وقلت وأنا أتمنى أن أجد سبيلا للفرار:

-إذا كانت الشرطة لا تعرف.. فكيف لي أن أعرف.

سألني بنفاد صبر:

-هل حصل أي احتكاك بينكما لأي سبب؟.

حسنا.. الآن سأكذب كذبة صغيرة لكنه لن يصدقها.. فتحت فمي.. فقال بصرامة:

-لا تحاول الكذب.. نحن نعلم أنك قد تعرضت للضرب على يده؟!.. إنك حتى لم تذكر هذا في التحقيق الذي جرى معك في المستشفى لمحاولة كشف هوية المعتدين عليك.. لماذا؟!.

اللعنة.. لقد وقعت في مأزق.. كنت أخشى معرفتهم بالأمر كي لا تتجه شكوكهم إلي.. الجو العام أربكني كثيرا وجعلني أتصرف بحماقة.

-كيف؟!.. كيف عرفتم ذلك؟!

-إننا رجال الشرطة.. مهمتنا أن نعرف.. وعلى كل حال فإن أحد أصدقاء (راشد) أخبرنا بذلك.

ثم قال وكأنه تذكر شيئا:

-يجب أن تجيب على أسئلتي.. فأنا من أسأل في هذا المكان وليس أنت.

قلت باستسلام وقد قررت إخبارهم بكل شيء بعد أن وجدت أنهم يعرفون كل شيء أصلا:

-بصراحة كنت أخشاه بشدة.. أخشى انتقامه.. لم أرد أن أزيد الوضع سوءا.. إنني فتى في حالي ولا أؤذي أحد.

سألني في شك:

- ولماذا اعتدى عليك ضربا بتلك الصورة البشعة التي جعلتك تبيت في المستشفى أكثر من شهر؟!.

كان واضحا لهؤلاء القوم أنني القاتل.. فقط يحتاج الأمر إلى ضغط نفسي أكثر.. أو إلى بعض الصفعات والركلات.. ولكن حمدا لله أن هذا لا يحدث في (الكويت).. ومن يفعل هذا من رجال الأمن يعاقب على اعتباره قد تعدى على الحقوق الدستورية للمواطن..

أخبرته بالقصة كاملة دون إهمال أي تفاصيل.. سوى خطة انتقامي طبعا.. وقد راح يصغي إلي بانتباه شديد وعيناه تضيقان وهو يرمقني بشك.. كأن الجاني -أنا-قد صار قريبا جدا من الوقوع في المصيدة.. فزاد هذا من توتري وتلعثمي في الكلام.

قطع حديثنا جرس الهاتف الذي كان يرن بإلحاح.. فرفع الضابط السماعة.. وإذا بشخص أعلى منه رتبة كما كان واضحا من طريقة حديثه معه ومخاطبته بلقب (سيدي).. ألتفت يمينا ويسارا بترقب كي ينتهي هذا التحقيق.. ليقع بصري على مجموعة من الصور الملقاة بإهمال على مكتب الضابط.. مددت رأسي قليلا دون أن ينتبه أحد لأرى تلك الصور المبعثرة.. فرأيت شيئا رهيبا لا يوصف!!.. أقسم لكم بأنني شعرت أن العصارة الحمضية قد احتشدت في معدتي وبدأت بالصعود.. سينفجر بركان القيء من فمي قريبا.. لقد كان ما شاهدته هو بعض الصور التي التقطها رجال الشرطة لجثة (راشد) في مسرح الجريمة.. كانت الجثة تنزف من عشرة مواضع على الأقل!!.. وبدا واضحا أن (راشد) قد تعرض إلى عملية تعذيب بشعة.. لأن كل أطرافه كانت مهشمة.. وقد التوى عنقه للخلف!!.. ليس بتلك الطريقة الشهيرة التي نراها في الأفلام.. وإنما بشكل آخر لم أنتبه إليه في البداية.. ولكن عندما أمعنت النظر بما تسمح لي وضعية الصور على مكتب الضابط.. أدركت أن اتجاه وجه (راشد) كان لأعلى في حين أن بطنه في الاتجاه الآخر!!!.. أي أن عنقه كان ملتويا باستدارة كاملة.. هنا كدت أن أصاب بنوبة قلبية.. واحتجت إلى دقائق كي ألتقط نفاسي.. إلى أن لاحظ الضابط أنني رأيت الصور.. فإذا به يخفيها بسرعة وينظر إلي بعتاب وغضب شديدين وهو ما زال ممسكا بسماعة الهاتف.. وعلى كل حال.. لست مسؤولا عن إهماله بترك صور كهذه ملقية على مكتبه حيث يستطيع الجميع رؤيتها.

أنهى المكالمة.. ونظر إلي بعدها نظرة طويلة لم أفهم معناها.. ثم أمرني بالانصراف.. وقال قبلها ما توقعته:

- لن يكون مسموحا لك بالسفر.. ستظل في (الكويت) حيث نستطيع أن نجدك في أي وقت لإكمال التحقيق.. وسنخبرك متى ما فرغنا منك.

قلت وقد أغاظني أسلوبه المستفز:

-ولماذا أعامل وكأنني مشتبه به؟!.. ظننت أنني هنا للإدلاء بمعلومات قد تفيد التحقيقات!!.

بهت الضابط لسؤالي للحظة.. ثم أجاب بصرامة:

-لقد أنكرت كل ما حدث لك مع (راشد).. كما أنك تملك دافعا جوهريا قويا لقتله.. وهو الثأر.. لذا يجب أن تعاوننا بصدق أكبر كي تساهم في إبعاد نفسك من دائرة الشبهات.

هنا احمر وجهي من شدة الغضب بعد أن شعرت أنني لن أرتاح حتى بعد موت (راشد).. وقلت للضابط ما أشعر به بكل صراحة:

-حسنا.. أتمنى أن أكون أنا من قتله.. ولو فعلت فسأعترف بهذا وسأكون قد قدمت للعالم خدمة جليلة بالتخلص من هذا الوغد الذي عاث في هذه الدنيا فسادا وأتمنى أن يحترق في جهنم!!.

بدت الدهشة مع الامتعاض على وجوه الجميع وكأنني صدمتهم بكلامي.. فشجعني هذا كي استطرد محتدا:

-لا أستطيع أن أعتبر (راشد) شخصا طاهرا وملاكا رقيقا لمجرد أنه قتل.. لقد كان مجرما حقيرا.

ثم نهضت بحدة لأرحل.. هذه هي ضريبة المراهقة التي يدفعها كل من هم في مثل سني.. وهي أن لا أحد يصدقنا بسهولة.. فالمراهق متهم حتى تثبت براءته.. وتهمة الاستهتار والتهور تحوم حول رؤوسنا دوما!!.

كم أود أن أعرف ملابسات تلك الجريمة وأبعادها ومرتكبها.. ولكن يظهر أن الشرطة لا تعرف شيئا على الإطلاق.. فقط يتظاهرون بالخطورة والغموض.. لكني عرفت فيما بعد أن (راشد) قد جاء إلى المدرسة بعد انتهاء الدوام المدرسي ودفع رشوة بسيطة إلى رجل الأمن كي يسمح له بالدخول إلى الفصل ليلا ليكتب على طاولته كل المعلومات التي يحتاجها لامتحان الغد!!.. وعرفت أنه قد فعل ذلك أكثر من مرة.. فأمر كهذا لا يمكن فعله في فترة الفسحة مثلا.. لأن أبواب الفصول تقفل في تلك الفترة.. يا لها من طريقة غريبة ومبتكرة في الغش.. لن يتوقف هذا الفتى أبدا عن إبهاري بأساليبه الملتوية.. حتى بعد مقتله!!.

وقد عثر (بدر) على جثة (راشد) في الصباح الباكر قبل أن تمتلئ المدرسة بالطلبة أثناء طريقه إلى دورة المياه القريبة من الفصل.. صدفة غريبة بالفعل.. يقولون أن (بدر) شرع يصرخ ويولول ويبكي كالنساء حينها.

لقد عرف رجال الشرطة كل شيء عن (راشد).. كل شيء تقريبا بسبب تحرياتهم المكثفة.. لكن والده استغل سلطاته الواسعة لتحوير الحقائق بمساعدة جيش من المحامين حتى يخرج ولده بصورة الشهيد الذي تعرض للقتل على يد غادرة.. وفي النهاية.. قيدت القضية ضد مجهول!!.. ولا أنسى أن أذكر لكم أن رجل الأمن في المدرسة قد فصل من وظيفته طبعا.

كان من الممكن أن تنتهي الأحداث عند هذا الحد لولا فضولي الشديد والصدفة التي لعبت دورا كبيرا في هذه القصة.. فقد كنت أتحرق شوقا لمعرفة القاتل.. لماذا؟!.. لقد كاد (راشد) أن يقتلني وتسبب بأضرار جسدية ونفسية هائلة ما زلت أعاني منها.. بعد كل هذا أعتقد أنه من حقي أن أعرف من قتله.

لكني تناسيت الأمر مع مرور الوقت.. خاصة وأن الشرطة لم تستدعني بعدها على الإطلاق.. مما جعلني أخمن أنهم استبعدوني من دائرة الشبهات لأسباب أجهلها.. لكني لم أستطع الابتعاد عن (بدر).. الضحية الوحيدة الباقية التي أعرفها من ضحايا (راشد).. كانت حالته النفسية قد تحسنت قليلا.. وعندما أقول تحسنت قليلا فهذا يعني أنه قد عاد كما أعرفه.. مشتت تائه عيناه ترمقان أبعادا أخرى!!.. لكنه ازداد تلعثما.. وأصبح وكأنه طفل رضيع عاجز تماما ويحتاج إلى الحماية والرعاية المستمرتين.. ووجدت نفسي -من باب الإشفاق الشديد-أذهب إليه وقت الفسح وأبحث عنه وأهتم بأمره.. دون أن أتوقف عن مساعدته في فروضه المنزلية وفي دراسته.

إلى أن جاء اليوم الذي طلب مني زيارته في بيته.. وكان هذا قبل اختبارات آخر العام بفترة قليلة.. ترددت في البداية.. فأنا لم أزر أحدا في حياتي.. لكني وجدت أن لا ضرر هنالك ولن أخسر شيئا على كل حال.. فوعدته بزيارة قريبة.. خاصة وأنني لا أملك ما أمنحه لهذا المسكين سوى الصداقة.

في اليوم الموعود قمت بزيارته في بيته الكائن في منطقة (سلوى).. وهو في الحقيقة ليس بيت.. بل شقة صغيرة في عمارة متهالكة.. تخيلوا معي.. فتى يعيش مع والدته غير الكويتية.. والتي لا تحمل أي مؤهلات دراسية تساعدها على الحصول على وظيفة.. ومعيل الأسرة توفي بسبب جرعة زائدة من المخدرات!!.. وضع مأساوي فعلا تعيشه هذه الأسرة.. إنهم (مقطوعون من شجرة) كما

يقال..

كانت والدته موجودة وهي -بالمناسبة-المرة الأولى التي أراها.. مرتدية ثيابا توحي وكأنها على وشك الخروج.. لكن تبرجها والحق يقال كان مبالغا فيه مما يدل على الجهة التي ستقصدها.. رحبت بي بطريقة ودية كان واضحا من خلالها أن ولدها قد أخبرها بكل شيء عني.. واحتضنت ولدها بقوة قبل أن تخرج.. و.. رغما عني.. شعرت بأنني أبدي نوعا من التحفظ معها.. ربما بسبب الوسيلة التي تجمع بها المال.

جلست مع (بدر) قرابة الساعتين تحدثنا فيهما عن كل شيء.. وأدخلني إلى غرفته حيث رأيتها مرتبة إلى درجة بدت لي وكأنها غرفة فتاة.. ألم أقل لكم إنه أقرب إلى الفتيات؟!.. وقد لفت انتباهي امتلاكه لمكتبة تحوي عددا كبيرا من كتب تعليم فنون القتال بمختلف أنواعها.. مما يدل على ما يحلم أن يكونه.. فغالبا ما ترى الضعفاء المتخاذلين يحلمون بالحصول على القوة للدفاع عن أنفسهم.. إذ تراهم يشترون كتبا كتلك ويعلقون صور الأبطال في غرفهم.. وهذا بالفعل ما لا حظته أيضا في غرفة (بدر).. بوستر كبير الحجم للنجم العالمي (سلفستر ستالون)!!.

لقد كشف لي (بدر) في تلك الزيارة كل أسراره الخاصة تقريبا.. حتى أن عينيه قد اغرورقتا بالدموع أكثر من مرة وهو يصف لي حاله السيء ويقول:

-أعرف أن الكل ينظر إلي على أنني أشبه الفتيات.. أحاول التخلص من ضعفي لكني عاجز عن ذلك.. أشعر أنني مفكك من الداخل.. مشتت الذهن.. إنني جبان.. أعترف بهذا.. إنني أخشى كل شيء.. الظلام والصراصير ومواجهة الناس وأعاني من فوبيا ركوب المصاعد.

ثم.. يعض على شفتيه بأسى وهو يقول:

-إنني كتلة من الضعف والخوف.

سألته بحيرة:

-ولماذا لا تطلب استشارة نفسية؟!.

-لا أعتقد أن تلك الاستشارات النفسية ستزرع في نفسي قوة داخلية.. أشعر أن العلاج النفسي إكذوبة.. وليس له مقاييس.

في الواقع إنني أتفق معه في هذا بعض الشيء..

أرجو ألا تنسى عزيزي القارئ أن (بدر) يعاني من صعوبة في النطق.. لكني أنقل لك كلامه بوضوح كي لا تصاب بالملل.. فالجملة التي قد تستغرق ثوان لتقولها قد تحتاج منه إلى دقيقتين.. فلا أعتقد أنكم ستقرأون كلامه حين يقول:

-أ.. أ.. أ.. أحب.. أ.. أ.. أن.. أت.. أت.. أتخلص م.. من.. صعوبة الن.. الن.. النطق.. الخ..

تحدثنا قليلا عن حادثة مقتل (راشد).. وأخبرني عما شاهده حين رأى الجثة.. وهو بالضبط ما أخبرتكم به عندما رأيت الصور بالصدفة في المخفر.. وقد سرت في جسدي رجفة قوية حين تذكرت الصور.. فقد كان منظر الجثة بشعا للغاية بالفعل.. ثم إن هناك لمسة درامية مخيفة في أن يموت الإنسان بهذه الصورة البشعة.. لمسة درامية تبرر تلك الرجفة في ساقي ودقات قلبي المضطربة كلما أتذكر ما رأيته.

وما يثير حيرتي هو كيفية لي رقبة (راشد) بتلك الصورة.. إن هذا يحتاج إلى قوة بدنية هائلة..

فليس لي الرقبة بتلك الصورة بالأمر السهل.. ويحتاج الأمر أيضا إلى أعصاب فولاذية كي يفعل الإنسان ذلك مع تهشيم أطراف الجثة وطعنها عدة مرات.. وإنني ما زلت أجهل إن كان القاتل قد فعل كل هذا بعد قتل (راشد).. أم قبل ذلك!!.

وقد عرفت من (بدر) أن رجال المباحث قاموا باستجوابه بطبيعة الحال كونه الشاهد الأول على تلك الجريمة الغريبة.. وعرفوا كل شيء بدءا من علاقة (رهام) ب(راشد) وانتهاء بانتحارها.. ثم تركوا (بدر) وشأنه مع تحذيره ألا يغادر البلد لحين الانتهاء من التحقيق.. تماما كما فعلوا معي.. لقد بلغ الانفعال مبلغا من (بدر) وهو يصف لي جريمة القتل كما رآها.. ولم أتوقع إطلاقا أنه يشعر بالأسف لمقتل (راشد).. تصوروا!!.. فقد اغرورقت عيناه بالدموع ودفن وجهه بين راحتي كفيه وهو يقول بانفعال صادق وجسده يرتجف بقوة:

-صدقني يا (خالد) إنني أتمنى أن يعثروا على القاتل.. فالقتل أمر بشع مهما كانت دوافعه.. وإنني كنت مخطئا في السابق حين تمنيت لو أنني أمتلك القدرة على قتل (راشد) بنفسي!!.

أثرت بي لهجته الصادقة كثيرا.. فلم أجد ما أقول سوى أنني ربت على كتفه مطمئنا.. لأتركه بعدها شاعرا بأنني أميل كثيرا إلى هذا الصبي.. وهذه أول مرة في حياتي أقول بأن لدي صديق أعتز بصداقته على الرغم من كل سلبياته.. لقد شعرت بأن (بدر) إنسان أصيل المعدن ليس سوى ضحية ظروف قاهرة ابتداء من قسوة والده وتربية والدته له وخوفها المرضي عليه.. ثم انجرافها وراء ذلك التيار القذر.. وبعدها انتحار شقيقته!!!.

تكررت زياراتي ل (بدر) وشعرت براحة كبيرة بالتعامل معه.. وإن كنت أحاول أحيانا كثيرة شد أزره وزيادة ثقته بنفسه.. لكني عجزت عن ذلك مع الأسف.. ففاقد الشيء لا يعطيه.. كوني أعاني نفس المشكلة.. مشكلة عدم الثقة بالنفس.. لكنها بنسبة أقل عما هي عليه عند (بدر) بالطبع.. ومشكلة عدم الثقة بالنفس هي -بالمناسبة- مشكلة رئيسية يعاني منها معظم المراهقين.. لكنهم يحاولون مداراة هذا العيب بالتظاهر باللامبالاة والسخرية من كل شيء.

متى شعرت أن هناك أمرا ليس على ما يرام؟!.. حدث هذا عندما قمت بزيارة (بدر) ذات مرة بعد أن اتصل بي وطلب مني قضاء بعض الوقت معا.. ففي تلك الزيارة فوجئت بطريقة استقباله لي.. كان استقبالا فاترا إلى أبعد الحدود!!.. وكانت عيناه تحملان نظرة صارمة للغاية لم أعتدها على الإطلاق.. الأمر الذي أعطى وجهه لمسة رجولية خشنة.. إن هذا لأمر غريب بالفعل!!.

دعاني إلى الداخل بإشارة من يده اليمنى دون أن ينطق بكلمة.. فدخلت غرفته.. ثم استأذنني بحزم غريب للذهاب إلى الحمام.. ليتركني حائرا أجهل ما دهاه.. هل زرته في وقت غير مناسب مثلا؟!.. استبعدت هذا الاحتمال لأنني لا أزوره إلا بناء على طلبه.. لم يكن هو يزورني لأن والدته لا تسمح له بالخروج على الإطلاق بسبب خوفها المرضي عليه.

ظللت في غرفته لحظات شاعرا بحيرة بالغة من جموده الغريب وعازما على أن أسأله عما به عند عودته من الحمام.. و.. لا أدري لماذا فعلت ذلك!!.. ربما هو الفضول.. فقد فتحت أحد أدراج مكتبه!!.. أعرف أن كل إنسان يتصرف أحيانا بحماقة.. لكن هذه الحماقة قادتني إلى أمر غير متوقع على الإطلاق.

لقد وجدت خطابا مكتوبا بخط يد (بدر).. أعرف خط يده جيدا لأنني أساعده كثيرا في حل فروضه المنزلية.. وقد فجر الخطاب قنبلة من الذهول في أعماقي!!.. كان موجها إلى شخص اسمه (عدل)!!.. اسم غريب حقا!!.. كان (بدر) يخاطب هذا الشخص باحترام وود بالغين وكأنه أصدق

أصدقائه ومثله الأعلى.. هذا نص الخطاب: -

أخي العزيز (عدل).. لم أشعر بالأمان مثلما شعرت به حين عرفتك.. لقد أشعرتني بأنك ملاك حارس يحميني من كل الأخطار.. لقد ذهب (راشد) بفضلك إلى الجحيم حيث يستحق.. وجعلته مع سكرات الموت يتذكر الموبقات التي ارتكبها في حياته والآلام التي سببها لضحاياه.. إنني أتصور لحظة مصرعه.. لا شك أنها كانت شنيعة يشيب لهولها الولدان.. لكن هذا لا يساوي نصف ما فعله بالآخرين.. ولا يساوي نصف ما فعله بأختي التي فرغت منها الحياة كلعبة أطفال تلفت بطاريتها.. كل هذا بسبب هذا المجرم.. لذا فأنا أشكرك يا أخي.. أشكرك كثيرا يا ملاكي الحارس.. لقد حققت لي الانتقام الذي أصبو إليه وأتمناه.. إن تاريخ لقائي معك مخلد في ذاكرتي.. وصداقتك أكثر ما أعتز به في هذه الدنيا.. لن أخشى شيئا أبدا طالما يوجد في هذا العالم شخص مثلك يحمي الضعفاء أمثالي حين يعجز القانون عن رد اعتبارهم.

طويت الخطاب ووضعته بسرعة في مكانه.. وبعدها بلحظات عاد (بدر) إلى الغرفة.. لحسن الحظ لم يرني!!.. فأمسك ب(الريموت كنترول) بيده اليمنى بحركة آلية.. وبوجه جامد قام بالبحث بين محطات التلفاز عن شيء نشاهده.. فعل كل هذا دون أن ينطق سوى بكلمات قليلة جدا وكأنه مستاء من وجودي بالفعل!!.. أفكار وخواطر عديدة تتضارب بقوة في ذهني حتى بدا ارتباكي واضحا بسبب ما عرفته للتو.. فشعر بأنني لست على ما يرام.. ونظر إلي بشك متسائلا بهدوء شديد وبتلك النظرات الصارمة عما أصابني.. قلت له بأنني سأضطر إلى الذهاب.. فقد تذكرت أن علي اصطحاب جدتي لزيارة بعض الأقارب.. وأنني سأزوره غدا لاستكمال الدراسة.

بالطبع كنت أكذب عليه.. فلا أقارب لدي لأزورهم كما تعلمون.. كنت أصبو إلى الاختلاء بنفسي فحسب.. نظر إلي نظرة لم أفهم معناها.. ثم أشار إلي بيده اليمنى وببرود كي أخرج دون أن ينطق بكلمة.. فتركته وذهبت إلى البيت مشيا على الأقدام.. ووجدت نفسي في الخارج -لا شعوريا-أستند إلى سيارة متوقفة وأفكر بما يجري وأنا ألهث وكأنني فرغت للتو من سباق مائتي متر للعدو.

هذا لا يصدق.. إذاً (بدر) يتحمل مسؤولية مقتل (راشد)!!.. لكنه طلب من شخص آخر أن ينتقم له لأنه يعجز عن ذلك بالطبع لأسباب نعرفها جميعا.. لا أعتقد أن هذا الشخص قاتل مأجور مثلا.. فلا يوجد شيء كهذا في مجتمعنا على حد علمي.. ولم أقرأ يوما في الصحف عن وجود قتلة مأجورين في (الكويت)!!.. مهلا.. أظن أنني مخطئ.. لا أعتقد أن ذلك القاتل الذي يدعى (عدل) قاتل مأجور.. فالطريقة التي خاطبه فيها (بدر) كانت واضحة.. إنه يعتبره أصدق أصدقائه وملاكه الحارس كما يقول.. إذا هناك علاقة تربط بين الشخصين.. أمر غريب بحق!!.. ثم أن اسم (عدل) غريب من نوعه.. لم أعرف أو أقرأ عن أحد حمل هذا الاسم يوما.. هل هو مجرد لقب؟!.. ربما.. لا أدري ما أفعل.. هل أبلغ الشرطة؟!.. أحتاج إلى التفكير قبل الإقدام على خطوة كهذه.. فلا أعلم إن كان أحدهم يستحق أن يسجن أو يعدم لمقتل شخص مثل (راشد)؟!.. ثم.. لماذا عاملني (بدر) بهذا الجمود؟!.. لقد زرته بناء على طلبه كما تعلمون.. لكنه تصرف بطريقة غريبة.. علما بأنني لم أره من قبل يحمل تلك النظرات الصارمة.. وذلك الوجه الحازم البارد!!.. كل شيء مبهم غير واضح!!.

عدت إلى شقتي وأنا أفكر بما يجري.. كانت جدتي نائمة.. فأخذت حماما ساخنا وذهبت بعدها إلى الفراش ممسكا بأحد الكتب التي تتحدث عن الحرب العالمية الثانية.. جلست أتصفح الكتاب.. أحاول التركيز ولكن دون جدوى.. لقد غرقت تماما في خواطري.. إلى أن داهمني النوم أخيرا.. ولم أصح إلا بعد منتصف الليل.. السبب؟!.. شعرت أن أحدا يناديني!!.. نعم.. ظننت في

البداية أنني أحلم.. لكني فتحت عيني ووجدت الغرفة مظلمة.. الأمر الذي أثار لدي مخاوف سابقة من قصتي المشؤومة مع تحضير الأرواح.. لحظات مضت قبل أن أنتبه إلى أن هناك من يناديني بالفعل لكن بهمس!!.

استيقظت كالملسوع.. وإذا بشخص مخيف الهيئة يرتدي بنطالا وبول أوفر أسودين.. كان ملثما مرتديا الغطاء الذي يرتديه سارقي البنوك كما نراهم في السينما!!.. استطعت بصعوبة بالغة -بسبب الظلام- أن أرى عينيه الواثقتين الباردتين كغابات (سيبيريا)!!!.. كان يقف وقفة مهيبة رهيبة جعلته شبيها بتمثال في المتحف الروماني على الرغم من أنه نحيل وقصير القامة نسبيا.. لحظات ساد بها صمت رهيب إلا من عينيه القويتين!!.. شعرت بالفعل أن لعينيه صوت قوي بارد مؤثر!!.. ثم.. تحدث بثقة وهدوء شديدين وبصوت غريب قائلا:

-أنا (عدل).

تلعثمت وكل ذرة من كياني تنتفض بقوة وقد طار كل أثر للنوم من عيني:

-(عدل) من؟!

رد بهدوء صارم:

-لا تكذب.. لقد كشف (بدر) أمرك لأنك لم تقم بطي الرسالة كما كانت.. فعرف أنك عبثت بأشيائه وعثرت عليها!!.

سكت قليلا وكأنه يحاول أن يعرف تأثير كلامه علي.. ثم أردف قائلا:

-لا تخش شيئا.. لست هنا لإيذائك.. أريد أن أعرف شيئا واحدا.. لماذا تدخلت فيما لا يعنيك؟!.. لماذا تجسست على (بدر)؟!.

لن أكذب.. إذ يظهر أنه يعرف كل شيء بالفعل:

-لقد.. لقد فعلت هذا بدافع الفضول.

قال بذات الهدوء المهيب:

-حسنا.. سأسامحك هذه المرة.

ثم أكمل محذرا:

-أنصحك ألا تخبر أحدا بما قرأت وعرفت.. أنت إنسان خير وطيب القلب كما عرفت عنك ولا أريد إيذاءك.. وإذا أبلغت الشرطة عما تعرف فلن يمنعني شيء من الوصول إليك وقتلك!!.. أرجوك لا تجبرني على ذلك.. لقد قتلت (راشد) لأنه يستحق الموت.. أنت تعرف هذا أكثر من أي شخص!!.

سألته بذهول وقد تذكرت شيئا هاما:

-لحظة.. كيف دخلت إلى هنا؟!.

قال وهو يتجه ناحية الشرفة:

-بنفس الطريقة التي سأخرج بها.

شعرت بالحنق لأنني لا أقفل باب الشرفة عادة.. لكن لا أعتقد بأن أمرا كهذا سيعيقه عن الوصول

إلي.

تحرك بعدها بخفة متناهية لا تصدق ناحية الشرفة حتى شعرت لوهلة بأنه يملك سرعة البرق وقوة الفيضان.. و.. بهدوء يحسد عليه بالفعل.. هبط من شرفة غرفتي الواقعة في الدور الثالث.. ليختفي بعدها.. قمت وأضأت الغرفة ونهضت مسرعا إلى الشرفة.. لكني لم أجده.. لقد اختفى.. تلاشى تماما!!.

ظللت أنظر إلى أسفل ببلاهة مندهشا من الوسيلة التي صعد وهبط بها دون الاستعانة بحبل مثلا.. فاستنتجت بأنه قد صعد من شرفة إلى الشرفة التي فوقها حتى وصل إلى غرفتي.. ونزل بنفس الطريقة على الأرجح!!.. إن هذا الشخص ذو قدرات مخيفة بالفعل.

جلست على الفراش أضم ركبتي إلى صدري وأنا أفكر بتوتر شديد.. إنه حتى لم يتخذ أي احتياط.. ولم يجلب معه سلاحا تحسبا لأي هجوم مفاجئ مني.. لقد كان يعرف تأثيره النفسي علي.. وهو يثق بقوته كما هو واضح.. وما فعله ب. (راشد) لهو خير دليل على ذلك.. أعتقد أن المفاجأة قد شلت (راشد) تماما وهو يرى شخصا مقنعا متشحا بالسواد يهاجمه ليلا في الفصل.. وبالطبع كانت أنوار الفصل مطفأة كي لا تلفت الانتباه.. مما زاد ظهور هذا المقنّع هيبة.. لا شك أن (راشد) قد أحضر معه كشاف صغير للإنارة كي يكتب ما يريد على طاولته.

مهلاً.. لقد نسيت شيئا!!.. جدتي!!.. هل أصابها مكروه ما؟!.. ذهبت مسرعا للاطمئنان عليها.. لكنها كانت نائمة بسلام.. إن هؤلاء المسنين الأعزاء شمعة البيت مهما تدهورت أحوالهم ووهنت قواهم..

عدت بهدوء إلى غرفتي.. وجلست أفكر.. وأفكر.. هناك نقطة.. ملحوظة هامة جدا لا أستطيع أن أتذكرها في خضم الأحداث.

-اللعنة!!.

قلتها وأنا أضرب قبضتي بالحائط بحنق.. و.. عدت إلى الفراش.. حاولت أن أنام لكني عجزت.. والسبب هو شعوري أن شيئا مهما قد سرق مني.. الأمان.. فلا أطيق أن متسللا كان في غرفتي بطبيعة الحال.. مهما كانت دوافعه.. لكنني مع مرور الوقت شعرت أن نفسي قد هدأت شيئا فشيئا إلى أن غرقت في سبات عميق.

في اليوم التالي وبعد العودة من المدرسة.. خرجت في المساء لأزور (بدر).. أخبرته عبر الهاتف أنني أريده لأمر هام للغاية.. وقد استقبلني هذه المرة بترحاب كعادته على عكس طريقته الغريبة معي في الأمس.. إذ تصرف معي كما أعرفه بأسلوبه الخجول المهذب الاعتيادي.. يبدو أنه لا يعرف ما فعله صديقه في الأمس.. لذا قررت أن أكشف له كل شيء.. أعتقد أن الوقت قد حان للمواجهة.. و..

-(بدر).. لقد زارني بالأمس صديقك (عدل).. أو الأجدر أن أقول ملاكك الحارس.

نظر إلي بارتباك شديد.. وتلعثم بقوة وهو يحاول أن يجد شيئا ليقوله.. وقبل أن ينطق بحرف.. أكملت قائلا بغضب:

-لقد أخبرته أنت بأنني قرأت رسالتك له.. لكن هذا لا يسمح له أن يقتحم غرفتي ليلا ويهددني بالقتل!!.

قال مذهولا:

-صدقني.. أنا لم أتوقع منه أن يفعل هذا.. هل.. هل آذاك؟!.

زفرت بقوة مفرغا توتري لأقول:

-لا.. يظهر أنه إنسان خير.. ويريد تطبيق العدالة بطريقته الخاصة.. ولا أدري في الواقع إن كان هذا عملا خيرا أم لا.. إن الصراع في نفسي على أشده.. أحيانا أؤيد مبدأ صديقك (عدل).. وأحيانا أعارضه.. أؤيده لأنه لا بد من أحد أن يفعل شيئا ويوقف أناسا كـ(راشد) عند حدهم.. وأعارضه لأنه لا يجوز لإنسان أن يطبق القانون بطريقته الخاصة.. وإلا لتحول مجتمعنا إلى غابة.

قال بهلع بعد أن علم أنني كشفت سر مقتل (راشد):

-خالد.. أرجوك لا تدمرني.. أرجوك.. لا أحد يعرف أن لي صلة بالأمر.

قلت بشيء من الحدة:

-ما فعله صديقك أمر بشع للغاية ولا يصدق.. لماذا مثل بجثة (راشد) بهذه الصورة البشعة؟!.

رد بتوتر:

-إنه لم يمثل بجثته.. بل فعل كل شيء قبل أن يقتل (راشد)!!.. سوى تدوير عنقه طبعا.. كان يريد من (راشد) أن يتعذب ليذيقه بعضا مما أذاق الآخرين.

رفعت حاجبي ذهولا.. يا للهول.. هل قام بتعذيب (راشد) بالفعل بتلك الوسائل البشعة من تهشيم أطرافه وطعنه في أماكن متفرقة من جسده؟!.

سألت (بدر) بحدة:

-إذا فقد كان صراخك وكل ما فعلت عندما رأيت جثة (راشد) مجرد تمثيلية قمت بها كي توهم الجميع بأنك صدمت حين عثرت عليه مقتولا؟!.

صاح قائلا بصدق:

-لا.. إطلاقا.. لقد تعمدت في البداية أن أذهب إلى الفصل مبكرا لأنني كنت أعرف أنني سأجد جثة (راشد) هناك.. لا أدري لماذا فعلت ذلك.. قد يكون الإحساس بالذنب.. أنت تعلم أننا لسنا بقتله في نهاية الأمر.

سألته السؤال الأهم:

-وكيف عرفت (عدل) هذا.. من هو أصلا؟!

صمت فجأة مطرقا برأسه للأرض.. ثم قال بهدوء:

-آسف.. لا أستطيع أن أجيبك.. إنني أؤمن برسالته تماما.. فهو محارب للجريمة.. ويتحرك حين يعجز القانون عن إحقاق الحق.. إخبارك بالأمر سيكون مجازفة كبيرة في كشف هويته.. وإذا ما أبلغت عني فلن أنطق بحرف حتى وإن كلفني هذا حياتي.

ثم أكمل بلهجة العليم ببواطن الأمور:

-إن (عدل) مطلوب في 7 قضايا على الأقل.. فقد قتل تجار مخدرات.. وسارقين.. وطهر مجتمعنا من قاذوراتهم.. إن مصدر قوته هو شجاعته وهدوئه الشديدين في التعامل مع الأمور.. مع إجادته

التامة لفنون القتال.. كما أنه يتحرك بسرعة وخفة متناهيتين.. فيضرب ضربته ويختفي.. وثقته بي هي وسام على صدري.. لذا لا تتوقع مني إخبارك بشيء.. أنا آسف.

صعقت تماما لهذا الكلام!!.. هل من الممكن أن يوجد شخص كهذا في (الكويت).. إن وجود محارب مقنع من عينة (باتمان) أمر خيالي لا يمت للواقع بصلة.. هذا يوجد في القصص الهزلية فحسب.. أكاد لا أصدق!!.

خرجت من منزله عاجزا عن اتخاذ أي رد فعل من غرابة ما يحدث.. ثم قررت الذهاب إلى أحد المطاعم لتناول العشاء.. واتصلت بجدتي من هاتف المطعم لأخبرها بأنني سأتأخر قليلا.. أريد أن أفكر بما يحدث.. إن هذا التطور خطير.. ما زلت مترددا.. هل أبلغ الشرطة؟!.. أو أنسى الأمر برمته طالما أن انتقامي قد تحقق على يد شخص لا أعرفه وبتوجيه من شخص أعرفه؟!.. هل أترك المدعو (عدل) يواصل (رسالته) في القضاء على المجرمين في بلدنا الآمن؟!.. يظهر أنه ماهر بحق كي يفعل شيئا كهذا؟!.. يقول (بدر) أن محارب الجريمة هذا قد قتل حتى الآن 7 مجرمين تتراوح جرائمهم بين تجارة المخدرات والسرقة.. ويظهر أنه فعل هذا بأساليب بدت وكأنها حوادث عارضة كي لا يشك أحد بوجود جريمة قتل.. وإلا لكنت قد قرأت عن بعض من تلك الجرائم في الصحف.. لكن.. لو كان الأمر كذلك فلماذا حرص المدعو (عدل) أشد الحرص على قتل (راشد) بصورة واضحة للجميع ؟!.. إن الأمر محير بالفعل.

ظللت جالسا في المطعم أفكر وأفكر حتى جاء الطعام.. فشرعت ألتهمه بهدوء وأنا مشتت الذهن.. كان يجلس في طاولة قريبة شخصان كبيران في السن يتحدثان بصوت مرتفع.. يظهر أنهما زميلا عمل.. إذ كانا يتحدثان عن رئيسهما في العمل ويمتدحان أسلوب إدارته.. فقد قال أحدهما للآخر:

-إن شخصيته مثيرة للاهتمام بالفعل.. فهو إداري ناجح يعرف كيف يتعامل مع كل المشاكل التي تواجهه.

فيرد زميله مؤيدا ليقول:

-وما يثير إعجابي أكثر هو أنه يتحول فجأة إلى مقاتل شرس لا يكف لحظة عن المطالبة بحقوق موظفيه إذا ما ظلم أحدهم.

ظلوا يتحدثون للحظات لم أكن أفعل فيها سوى الأكل والاستماع إليهما.. ليس من باب الفضول.. بل بسبب صوتهما المرتفع.. فأخاطب نفسي بهدوء وأقول:

-لا بد أن رئيسهما في العمل شخص رائع بالفعل.. إنه لا...

لم أكمل عبارتي.. فقد توقفت فجأة عن مضغ الطعام.. واتسعت عيناي دهشة!!.. يا إلهي.. هل من الممكن أن.... ؟!.. أفكر قليلا وأربط بعض النقاط التي لم أنتبه إليها في البداية.. لأجد نفسي أنهض من على الكرسي بحدة دون قصد!!.. ألتفت يمينا ويسارا.. وأتذكر نقطة صغيرة لم يكن لها أي معنى.. ولكنها الآن تعني الكثير وتكشف كل شيء.. كل شيء دون استثناء!!.

هذا لا يصدق.. لقد.. لقد فهمت كل شيء الآن بالصدفة البحتة!!!.. وبفضل هذين السيدين اللذين تحدثا للتو عن رئيسهما في العمل.. لقد انتبه عقلي الواعي إلى نقطة بالغة الأهمية لم أنتبه إليها في السابق.. يجب أن أواجه (بدر) بهذا.. إنه أكثر شخص يهمه أن يعرف هوية المدعو (عدل)!!.. دفعت ثمن فاتورة العشاء وعدت إلى البيت مسرعا وفي ذهني خطة بسيطة يجب أن

أقوم بها.. اتصلت ب(بدر) وقلت له بأنني قد قررت إخبار الشرطة بالأمر غدا صباحا -يوم الخميس- وأن المسألة هي مسألة مبدأ.. قلت هذا دون أن أكترث لبكائه وتوسلاته.. فأقفلت السماعة بوجهه.. إن (عدل) سيزورني في المساء لتهديدي.. إنني أراهن على ذلك.

قبل موعد النوم.. أعددت لكل شيء عدته.. فقمت بإطفاء النور في كل مكان في الشقة وقبلت جبين جدتي.. ثم تأكدت من أن الخادمة الآسيوية قد ذهبت إلى الفراش.. قد يحدث ما يوقظهما من النوم إذا ما زارني (عدل) هذا.. ذهبت بعدها إلى الفراش وتدثرت بالغطاء منتظرا قدومه.. قلبي يخفق كالطبل.. وحواسي متحفزة وإن كنت أحاول ألا أصدر أي صوت أو حركه كي يطمئن تماما لنومي.. كما تعمدت عدم قفل باب الشرفة كي أفسح له المجال كاملا ليقتحم غرفتي.

ظللت متيقظا لأكثر من ساعة وعقلي يتساءل.. هل سيأتي (عدل) من ردهة المطبخ هذه المرة؟!.. أم سيخرج من وراء الأريكة؟!.. هل سيأتي من الشرفة كما فعل في المرة السابقة؟!.. من يدري؟!.. ربما هو موجود في الشقة قبل أن أقوم بإطفاء النور في كل مكان.. وربما هو الآن قابع في الظلام ينتظر.. اقشعررت للفكرة الرهيبة!!.. وتصلبت للحظة من شدة الخوف.. أعلم أن (عدل) لا يؤذي سوى المجرمين والمفسدين.. ولكن ماذا لو كان استنتاجي خاطئا؟!.. لقد بنيت استنتاجي على معطيات جميعها تؤدي إليه وإن كانت بالغة الغرابة.. لكني مع هذا أشعر بالخوف.. تماما كمن لا يؤمن بوجود الأشباح لكنه لا يجرؤ على البقاء وحيدا في منزل تحاك حوله روايات عنها!!.. و.. قطع حبل أفكاري صوت يوحي بأن هناك من يمشي في الغرفة.. حركة خافتة جدا من المستحيل أن أشعر بها لو كنت نائما.. ثم.. يد تحاول أن تزيل عني اللحاف.. فنهضت من مكاني كالملسوع شاعرا بخوف حقيقي وإن كنت متوقعا تلك الزيارة!!.. لكن وقع المفاجأة -كوني مستيقظا- لم يسبب أي ارتباك ل(عدل) الذي وقف بثبات وهو ينظر إلي بهدوء.. إنه يملك أعصابا فولاذية بالفعل.. ظللنا لوهلة نحدق ببعضنا..

وقبل أن أنطق بأي كلمة.. بادرني هو بالحديث قائلا بصوته الغريب الهاديء الواثق:

- أنت تجبرني على قتلك.. لماذا تفعل هذا؟!.. إنني لا أرغب بإيذاء الأبرياء.. لا أرغب سوى بتحقيق العدالة والقضاء على المجرمين.. لقد ثأرت لك ول(بدر) من (راشد).. أليس هذا كافيا كي تقتنع برسالتي؟!.

قلت بصوت هادئ وقد صار قلبي يخفق كالقرد المسعور إن كانت القرود تصاب بالسعار:

-هل ثأرت ل(بدر).. أم لنفسك؟!!!.

شعرت ب(عدل) قد توتر فجأة.. وإن كان وجهه خلف ذلك القناع.. ثم قال بعد فترة من الصمت وبصوت مبحوح بعض الشيء:

-ما هذا الهراء الذي تقوله؟!.

قلت بصوت بدا أكثر ثقة بعد أن عرفت أنني على حق كما يبدو من اهتزاز ثقته بنفسه:

-هل نسيت شقيقتك يا (بدر)؟ !!.. هل نسيت ما فعله (راشد) مع شقيقتك (رهام) وكيف دمرها وسلبها أغلى ما تملك؟!.. هل نسيت ما فعله والدك بك وبوالدتك وشقيقتك؟!.. لقد عشت حياتك ضائعا يا (بدر).. كنت تعشق أبطال أفلام الحركة وتعلق صورهم في كل مكان في غرفتك وتعيش بحلم خيالي هو أن تكون مثلهم وتقضي على الشر أينما وجد.

تراخى ثبوت (عدل) أو (بدر) -بعد أن عرفنا هويته الحقيقية- وبدا مترددا حتى كاد أن يقع على

الأرض.. فقال بصوت باك متخاذل:

-اصمت.. اصمت وإلا قتلتك.

تجاهلت تهديده وأنا أقول بثقة:

-لقد تفجرت الثورة في أعماقك منذ طفولتك.. حين كنت ترى والدك يشبعكم ضربا وهو تحت تأثير الخمر أو المخدرات.. مما فجر في أعماقك حقدا شديدا عليه بسبب قسوته.. فتمنيت أن تتمكن من الانتقام.. كنت تتمنى لو أنك شخص قوي الشخصية والشكيمة تستطيع الدفاع عن والدتك وأختك اللتين تحبهما بجنون.. فكنت تشاهد الكثير من أفلام الحركة.. واشتريت العديد من الكتب الخاصة بتعليم فنون القتال والرياضات الدفاعية الأخرى.. ثم رحت تمارسها وتتدرب عليها.. لقد أثار حيرتي كثيرا وجود تلك النوعية من الكتب في غرفتك.. خاصة بكمياتها الكبيرة.. لكني رحت أعزو هذا إلى عقدك النفسية.. المشكلة هي أنك كنت تحتاج إلى ما هو أكثر من الكتب والتمارين القتالية.. كنت تحتاج إلى قوة الشخصية.. والشجاعة.. وهو ما تفتقر إليه.. فليس كل من يتعلم فنون القتال يستطيع الدفاع عن نفسه وعمن يحب.. لأنك تحتاج إلى الشجاعة والإرادة القوية.. وكل هذه الأشياء مفقودة في شخصيتك المتخاذلة المسالمة.. لذا ظل عقلك الباطن يلح عليك شيئا فشيئا أن تثأر من والدك الذي كان يمثل لك كل الشر في هذا العالم.. في حين يكبت عقلك الواعي تلك الرغبة بسبب صفاتك السلبية.. إلى أن انتصر عقلك الباطن على عقلك الواعي في نهاية الأمر.. وتولدت في أعماقك شخصية أخرى.. هي شخصية محارب الجريمة (عدل).. الهادئ الواثق الجسور الذي لا يخشى شيئا.. وهي شخصية نقيضة تماما لشخصيتك الحقيقية.. و.. في ليلة وضحاها اشتريت تلك الملابس وغطاء الوجه أملا بالانتقام من (راشد).. فقمت ببعض التحريات حتى علمت بأسلوب (راشد) في الغش.. لتتسلل إلى المدرسة بلباس محارب الجريمة (عدل) وتقتحم الفصل.. وهناك بالطبع مارست كل ما تعرفه وتعلمته من فنون القتال التي كنت تعجز بشخصيتك الأخرى عن استخدامها للدفاع عن شقيقتك.. وقمت بقتل (راشد) الذي من المؤكد أن المفاجأة قد شلته تماما بوجود شخص مقنع يقتحم عليه الفصل في هذا الوقت المتأخر وينهال عليه ضربا.. لم يكن جسدك هو الذي يؤدي هذا العمل الشاق وممارسة فنون القتال التي تعلمتها من الكتب.. بل كان عقلك هو الذي يعمل ويأمر.

سكت للحظة ملتقطا أنفاسي.. ثم أكملت وأنا أراه يرتجف بطريقة ملحوظة:

-أعتقد أنك شعرت بنشوة رائعة عند تحقيق انتقامك من (راشد).. فلم تتوقف.. وقتلت غيره وغيره من مروجي مخدرات ومجرمين بوسائل أجهلها في الواقع.. لقد قمت بأعمال جبارة لا يمكن أن تقوم بها بشخصيتك الحقيقية.. وقد اعتبرت (عدل) -شخصيتك الوهمية- صديقا مخلصا ومثلا أعلى.. فقمت تراسله وتحكي له أسرارك.. وتعتبره ملاكا حارسا لك.. إنك مصاب ب(ازدواج الشخصية) أو (Double Personality) يا (بدر).. وهو يختلف عن الفصام (Schizophrenia) والفارق بينهما هو أن الفصام يكون فيه المريض مفكك الشخصية كمزهرية مهشمة إلى أجزاء.. تفكيره غير منطقي.. وسلوكه شاذ وحديثه غير مترابط ووجدانه مضطرب.. أما ازدواج الشخصية فهي حالة يجمع فيها المريض بين شخصين منفصلين يتناوبان الظهور.. وهذا بالضبط ما حدث معك.. فأصبحت تعيش بشخصيتين متناقضتين تماما بحيث أنك نفسك لم تكن تعلم أنك (عدل) الجسور محارب الجريمة.

انتهيت من كلامي.. وكان وقتها (بدر) قد انهار تماماً بعد أن استمع إلي بصمت حزين والدموع

تنهمر من عينيه.. فوقع على الأرض وهو يلهث بقوة.. ويقول بعدها بخفوت وبصوت باك متخاذل:

-أنت كاذب.. كاذب.. لا يمكن أن أكون (بدر).. مستحيل.

أكملت حديثي بتأثر شديد بسبب حاله البائس:

-لقد ساعدني على كشف أمرك شيئان.. الأول هو حديث لرجلين سمعته بالصدفة عن شخص ثالث ذكروا أنه يتحول من الوداعة إلى الشراسة في سبيل الحق.. وكانت هذه العبارة هي مفتاح كشف الأمر.. ربما ليس بشكل مباشر.. ولكن هناك ما يطلق عليه اسم (تداعي الأفكار).. وهذا يعني أن عبارة واحدة تسمعها في مكان ما.. قد تقودك إلى تذكر مشهد أو حدث ما أو عبارة ثانية وثالثة.. وهكذا تتداعى عدة أحداث دفعة واحدة ليؤدي تجمعها إلى صنع صورة جديدة تؤدي إلى كشف الأمر.. فعندما سمعت كلام الرجلين.. تذكرت زيارتي لك في الأمس واستقبالك بنوع من الجمود وبنظرات صارمة لم أعتدها منك إطلاقا.. لكني عرفت السبب الآن.. وهو أنك في ذلك الوقت كنت تعيش شخصيتك الأخرى!!.. وهناك أيضا نقطة بالغة الأهمية ولا أبالغ لو قلت إنها السبب الرئيسي في كشف كل شيء.. إلا أنني لم أعرها أي اهتمام في بادئ الأمر.. فأنا أعرف أنك أعسر.. أي تستخدم يدك اليسرى بدلا من اليمنى.. لكن في الأمس وأثناء زيارتي لك.. رأيتك تستخدم يدك اليمنى بتلقائية واضحة عندما قمت بتشغيل جهاز التلفاز باستخدام (الريموت كنترول) وقمت -باستخدام نفس اليد- بالبحث في القنوات.. وهو أمر مستحيل أن يحدث من شخص أعسر يفترض أن يستخدم يده اليسرى بتلقائية بدلا من اليمنى.. كما أن أسلوبك الصارم الغريب معي قد أثار الشكوك في نفسي.. دعك من أنك لم تقل الكثير في زيارتي تلك.. لأنك وفي شخصيتك الأخرى تتحدث بثقة ودون تلعثم.. كان من المفترض أن أنتبه للنقطة الأخيرة على وجه التحديد.. لكن رغبتي السريعة في الرحيل بعد قراءتي للخطاب حرمتني من أن أتبادل معك أطراف الحديث.. فكان من غير الممكن أن أنتبه إلى نطقك السليم!!.. لقد شاءت الظروف والصدف وقراءاتي الكثيرة عن علم النفس أن أكشف أمرك.. إنها بالفعل حالة نادرة جدا من حالات ازدواج الشخصية.. لقد كانت شخصيتك الأخرى نقيضة تماما لشخصيتك الحقيقية.. حتى في بعض الأمور البسيطة.. كأن تكون أعسر.. بينما شخصيتك الأخرى ليست كذلك.. وهذا يدل على أنك كنت تكره شخصيتك الحقيقية كثيرا وتتمنى بالفعل لو كنت شخصا آخر.

انتهيت من كلامي.. وبالطبع انهار (بدر) تماما بعد كل هذا.. فنهضت من الفراش بهدوء مهيب سببته رهبة الموقف.. وأضأت نور الغرفة.. لأجده واقعا على الأرض متكورا على نفسه ويبكي بحرقة.. فقمت وأزحت عن وجهه القناع.. لأرى بشرته وقد احمرت بسبب بكائه الذي جعلني أشفق عليه كثيرا.. حتى وجدت العبرات تنزل من عيني دون أن أدري!!.. لأقول بتعاطف:

-إنك غير مسؤول عما فعلته يا (بدر).. ستوضع تحت إشراف علاجي.. إنها حالة مرضية.. حالة نفسية معقدة.. لن يعاقبك أحد.. صدقني.

التفت إلي.. وقال بانكسار:

-لا.. لا يمكن أن أقضي حياتي في مستشفى الأمراض النفسية.. لقد انتهى كل شيء يا (خالد).. انتهى (عدل).. وانتهى (بدر).. ولن أستطيع إنقاذ أي منهما.. ثم.. نهض من مكانه.. وخرج من غرفتي بهدوء!!.

حاولت اللحاق به.. لكني خشيت أن نثير أي صوت قد يوقظ جدتي أو الخادمة..

فتركته يبحث عن باب الخروج إلى أن وجده دون صعوبة بسبب صغر مساحة الشقة.. ليرحل بعدها وأنا عاجز عن اتخاذ أي رد فعل.. يا لي من غبي.. لم أخطط لما قد يحدث بعد أن أكشف الحقيقة لـ (بدر).. هل أبلغ الشرطة بالأمر؟!.. هذا قد يكون أمرا حتميا الآن.. لأن المسكين يحتاج إلى علاج نفسي ولا يمكن أن يحدث هذا دون أن تعلم الشرطة بالأمر.. لذا يجب إبلاغهم.

عدت إلى غرفتي بهدوء دون أن يستيقظ أحد لحسن الحظ.. ولو قلت لجدتي بما حدث في شقتنا قبل قليل لما صدقت.

جلست على الفراش أفكر بحيرة بما قد يحدث.. لم أتمكن بالطبع بعد كل هذا من العودة إلى النوم.. فظللت مستيقظا إلى أن جاء وقت المدرسة.. فكان يوما مرهقا بحق.. وقد بحثت عن (بدر) لكنه لم يأت.. ثم اتصلت به بعد الظهر لأعرف من والدته أنه انتحر!!!.. نعم.. لقد وجدوا جثته في منطقة (غرب مشرف) والتي لم يمتد إليها الزحف العمراني بصورة كاملة.. وجدوا جثته هناك وقد انتحر بنفس الوسيلة التي انتحرت بها شقيقته!!.

كان خبرا مفجعا بحق.. حتى إنني شعرت بحزن هائل وتأنيب شديد للضمير لأنني تسببت بموت (بدر).. فبكيت كثيرا تأثرا بما حدث.. وإن كنت أعرف بأنني لم أكن أجرؤ على إبلاغ الشرطة عن نظريتي في باديء الأمر خوفا ألا تكون صحيحة.. لذا آثرت أن أقوم بكل شيء بنفسي.. دعكم من أن أحدا لن يصدق أن شخصا لم يبلغ الـ18 من العمر قد كشف أمرا كهذا من مجرد استنتاجات.. إنها الصدفة.. الصدفة التي لعبت دورا كبيرا في تلك القصة العجيبة.

لقد كان (بدر) بطلا.. حقا أن الرجال ليسوا بمظهرهم.. فقد كان أقرب إلى الفتيات بضعفه وتخاذله.. ولو كنا نعيش أحداث فيلم لحصل (بدر) بلا منازع على جائزة الأوسكار بسبب تمثيله لدورين بمنتهى البراعة حتى كان من المستحيل أن أصدق أنه و(عدل) وجهان لعملة واحدة!!.

لقد قابلت أم (بدر) بعد أن هدأت الأمور وبعد تحقيقات الشرطة المكثفة معها لمعرفة أسباب الانتحار دون أن يصلوا إلى نتيجة بالطبع.. فمن المستحيل معرفة أن هذا الشخص كان مصابا بازدواج الشخصية بعد موته.. ولي أن أتخيل حال أمه فور معرفتها بنبأ انتحاره.. لقد علمت منها أنها كادت أن تصاب بانهيار عصبي.. ومن يلومها بعد أن فقدت ولديها في أقل من خمسة شهور؟!.. فكانت تبكي.. وتهدأ.. فتغرق في البكاء الحارق مرة أخرى و.. إلخ.

وقد قررت أن أزورها لأخبرها بكل شيء بنفسي.. أخبرتها أن ابنها كان بطلا وثأر لشقيقته.. وبالطبع لم تكن تعلم شيئا عن أي شيء.. فصعقت تماما لما سمعت مني.. واتسعت عيناها المتقرحتان من شدة البكاء ذهولا.. ثم تجرأت أكثر من ذلك وحدثتها عن وسيلة البحث عن لقمة العيش التي تتبعها.. كما وعدتها أنني سأساعدها قدر المستطاع.. وبالفعل.. فقد تمكنت بعد فترة وجيزة أن أحصل لها على راتب شهري من إحدى الجهات الخيرية.. وقد قام أحد المسؤولين في تلك الجهة بإيجاد عمل يدر لها دخلا لا بأس به على الإطلاق.

لقد اتضح لي أن والدة (بدر) امرأة طيبة.. وما حدث لها قد يحدث للجميع.. وعليكم قبل أن تحاسبوا المرأة على سلوكها أن تحاسبوا جيرانها وأهلها الذين تركوها تتعذب وحيدة في هذه الدنيا دون أي معيل.. إنني أرى أنها في ظروف أفضل كانت ستغدو إنسانة محترمة طيبة.. ويجب أن يعطيها الجميع فرصة للتوبة.. إننا نمنح الرجل عشرات الفرص كي يتوب.. أما المرأة فنقتلها ونحكم عليها بالإعدام عند أول خطأ!!.

شكرتني كثيرا بعد ذلك و..

-ما الذي دعاك لفعل هذا يا ولدي؟!.

-لأنني إنسان يا سيدتي.. إنسان.

لقد انتهت أحداث هذه القصة الغريبة.. وأنا سعيد جدا لنهايتها.. (راشد) قتل (رهام) وشقيقها ثأر لها.. لقد أردت أن يهلك (راشد) على يد ضحاياه.. أشعر أن في هذا عدالة شعرية تروق لي حقا.. وإن كان للقصة جانب مأساوي وهو انتحار الشقيقين.

وهأنذا بعد مرور شهرين على تلك الحادثة وبعد نهاية العام الدراسي.. أقف في شرفة غرفتي أتأمل الشارع.. فتاة لا يتجاوز عمرها 8 سنوات تمسك بكف شقيقها متجهين سويا ناحية فرع الجمعية القريب.. في حين أرى طفلا آخر يقود دراجته جوار باب بيته.. نعم.. السلام.. هكذا خلق الله العالم ليبقى.. هكذا أراد الله العالم أن يكون.. حتى لو اضطررنا لحرق الأشرار.. وكم وددت لو فعلنا ذلك بالفعل كي يعم السلام كوكبنا الحبيب الذي امتلأ بالقتلة واللصوص والأفاقين والمجرمين والوحوش البشرية.. حتى أصبح بالكاد أن يكون لنا نحن الضعفاء مكانا.

وبالطبع لم يكن ما حدث لي في تلك التجربة هو كل شيء.. فهناك المزيد.. وفي قصتي المقبلة وجدت نفسي أمام لغز هائل كنت فيه أمام خيارين لا ثالث لهما.. أن يكون كل الناس كاذبين مخادعين دون استثناء!!.. أو أن أكون قد فقدت عقلي!!.. إلا أن كشفت في النهاية مفاجأة مدوية هي على الأرجح أقوى صدمة تعرضت لها في حياتي.. اقرؤوا قصتي القادمة وستعرفون ما أعني.

الفتاة التي لم تكن!!

أسمعكم تتثاءبون في ملل.. تعتقدون أن القصة معروفة من عنوانها.. فتظنون أنني سأقع في غرام فتاة وتكون قصة من قصص الحب المعتادة التي يقع فيها المراهقون.. و.. و.. صبرا يا رفاق.. إن القصة ليست بهذه الصورة على الإطلاق.. وإلا لما حكيتها.. أرجو ألا تسيئوا الظن بي قبل أن تقرأوا قصتي كاملة.. فشيء كهذا لم يحدث من قبل في أي مكان في العالم.. فما بالكم أن يحدث هنا في (الكويت).. ولي أنا شخصيا!!.

بدايات المرحلة الدراسية لعام 2002.. كنت في الصف الرابع الثانوي.. وقد استرجعت عافيتي تماما بعد ما تعرضت له من ضرب مبرح كان أقرب إلى اعتداء وحشي حيواني جعلني طريح الفراش في المستشفى لحوالي شهر.. ما زلت أحاول نسيان تلك الأيام السوداء.. كنت أحاول أن أدفن همومي في الدراسة والقراءة.. حياة رتيبة جدا.. لكني أعيش للمستقبل.. إن الحاضر كئيب دائما لكن الغد يحمل كل الوعود.

يقولون إن مثلث القوة هو: (العلم -المال -الشهرة).. وهذه أشياء لا غنى لأي إنسان عنها.. بل يموت البعض لأجلها.. وأنا إنسان.. وفي سن تحلم بهذه الأشياء التي سأحاول المستحيل للحصول عليها في المستقبل بإذن الله.. غدا سأصبح طبيبا محترما وأفتتح عيادة ستكون ذائعة الصيت.. سأقوم بأبحاث ودراسات رائعة.. وقد أحصل بسببها على جائزة (نوبل).. نعم.. أنا ما زلت في مقتبل العمر.. وكل شئ جائز لأن الحلم أمامي وليس خلفي.. ولأنني -وهذا الأهم- صغير في السن أدرس بجد.

كنت في هذه الفترة منزويا -كعادتي- في عالمي الخاص.. وأحلام المستقبل تراودني دائما.. واثقا أنني أصنع نفسي بنفسي.. وكنت أجد بين صفحات الكتب ما ينسيني عذاب اللحظة.. لكن شعورا واحدا كان يمزق فؤادي.. الوحدة.. الوحدة المريرة بلا أخوة أو أصدقاء.. وقلبي ذو الـ 17 عاما يخفق بعواطف جياشة لا نهاية لها.. لكن إظهار هذه العواطف في مجتمعنا يجعلني أظهر بمظهر الأحمق.

أجلس أحيانا كثيرة في غرفتي أستمع إلى صوت (عبدالله الرويشد) الحزين.. أكتب خواطري عن حب فاشل من طرف واحد.. طبعا لم يكن هناك شيء كهذا.. لكن المكان والجو يحتمان عليك أن تحب وتتعذب.. لا بد من وجود صبغة رومانسية في حياة كل مراهق.. هذا ما يقال.. وأعتقد أنه صحيح.. كنت أشعر بحالة حنين شديدة لشيء لا أعرف كنهه.. وبالمناسبة فإن حالة الحنين لشيء ما هي ما يعانيه معظم الشباب والمراهقين.. وقد تحدث عن ذلك الشاعر الفرنسي (بول فاليري) حين قال: ((لست أدري ما الذي أحبه.. لكني أحبه كثيرا)).. إنه حب لذيذ يملأ قلبك لشيء مجهول غير قابل للتسمية!!.

أعيش حياة صامتة.. أذهب إلى المدرسة بصمت وأعود للدار بصمت.. حتى ليخيل إلي أحيانا أنني أتكلم بصمت!!!.. أجلس أمام جهاز التلفاز وأتناول الغداء مع جدتي الحبيبة نتبادل بعض أطراف الحديث.. رائحة جدتي ورائحة ثيابها المميزة التي أعتبرها جزءا هاما جدا من حياتي.. ما سر هذه الرائحة؟!.. لا أعرف.. لكن قلبي ينبض بعنف حين أشمها.. فهي مرتبطة عندي منذ الطفولة بالأم.

أما خارج الشقة فعيناي تتجاوزان كل من أراه لأرى من خلاله.. فالناس بالنسبة لي كلوح الزجاج..

والمرء لا ينظر للوح زجاج أبدا.. بل يخترقه ببصره ليرى ما يوجد خلفه.. أشعر بتفاهة غير عادية للمجتمع.. ليس هذا غرورا.. بل هي حقيقة نقرأها دائما بالصحف عن الشباب التافه الذي لا يفعل سوى التسكع في الشوارع ليل نهار.. ثم يكافئ نفسه في عطلة نهاية الأسبوع بالسفر أو الذهاب إلى الشاليه.. لا يلامون على ذلك.. فالتسكع أمر متعب يستحقون من بعده الراحة!!.

آسف لهذا الاستطراد الطويل.. لكنها غريزة الإنسان أن يتحدث عن أحزانه وآلامه وعما يضايقه.. لذا لن أصدع رؤوسكم بخواطري وأحزاني أكثر من ذلك.. وسأدخل في صلب القصة.

كنت أشعر في ذلك الوقت أن شيئا جديدا قادم لا ريب.. وأن حياتي قد بدأت تتخذ منحى آخر منذ قصة تحضير الأرواح إياها.. فمن يومها والأمور تتغير.. ووتيرة حياتي تتبدل شيئا فشيئا.. ويبدو أن ظني كان في محله!!.. فبعد أسبوعين أو ثلاثة من بدء العام الدراسي الجديد.. وبعد يوم عادي جدا.. كنت قد أنهيت للتو فروضي المنزلية وجلست -كما هي عادتي قبل النوم- أقرأ كتابا للكاتب الكبير (أنيس منصور).. حتى بدأ النعاس يداعبني.. لأذهب للنوم في العاشرة مساء.. وطبعا لم أنس قبلها أن أنهض لأقبل جبين جدتي.

مندسا في فراشي تحت الأغطية الثقيلة والجو شديد البرودة بفعل وحدة التكييف.. الضوء الخافت يجعلني أشعر وكأنني أعيش حلما جميلا.. إذ لا أستطيع النوم في الظلام الذي أصبح -بعد تجربتي الكابوسية مع تحضير الأرواح- وحشا كاسرا أخشاه وأرتعد منه.. و.. شيئا فشيئا بدأت أنجذب إلى ذلك العالم العجيب.. عالم الأحلام.

حلم لذيذ تمنيت ألا أستيقظ منه أبدا.. والواقع أنه حلم تقليدي لايوجد فيه ما يستحق الذكر.. مجرد حوادث مختلطة معقدة غير متناسقة.. سوى أنني رأيت فيه أروع ما رأيت في حياتي.. فتاة!!.. أم هل أقول ملاك؟!.. من المستحيل أن أصفها لكم.. فهي شيء يفوق الوصف.. أحتاج إلى لغة أجمل من الكلمات.. ربما هي الموسيقى.. كانت رقيقة وجميلة إلى درجة تشعرك بالأسى حين تراها.. فلا تملك سوى العودة إلى البيت حزينا لتستمع إلى أغاني عاطفية في غرفتك وتندب حظك.. رشيقة القوام إلى حد مذهل.. سوداء العينين والشعر بيضاء البشرة تحمل خليطا من الملامح الشرقية والغربية.. وكأنها أسبانية أو إيطالية.. أقسم لكم أنني لم أر فتاة أجمل منها في عالم الواقع أو حتى في أحلامي.. وكأنها قطعة من الفاكهة.. لا يمكن أن توجد كل هذه الرقة والجمال الساحر على وجه الأرض.

غريب أن يكون الحلم مبهما في كل شيء سوى هذه الفتاة الملائكية التي بدت مجسدة تجسدا واضحا وكأنني كنت أراها فعليا!!.. لا أدري لماذا استيقظت من النوم.. إنها واحدة من تلك اللحظات التي تستيقظ فيها لسبب لا تعرفه وتشعر أنك الوحيد المستيقظ في هذا الكون.. ذهبت لأشرب بعض الماء من الثلاجة.. ثم عدت إلى الفراش وأنا أشعر بحزن لم أستطع تفسيره.. ربما هي الفتاة التي رأيتها في الحلم.. أحيانا كثيرة يرى الإنسان في منامه أحلام جميلة يؤلمه حين يستيقظ من نومه ويدرك أنها بعيدة عن الواقع المرير.

عدت إلى الفراش وأنا أسمع أصداء أذان الفجر الثاني تتردد من مسجد بعيد.. ورجل يمشي في الشارع يتحدث بصوت عال إلى آخر.. مما يعطي شعورا وكأنه لا يوجد في الكون سواهما.. و.. قبل أن أعود إلى النوم تذكرت ما قرأته ذات مرة عن الأحلام.. إذ يقول علماء النفس أن الحلم الملون يدل على اضطراب المريض النفسي.. وأنا عشت حلما ملونا رائع التلوين.. وكأنني شاهدته من خلال تلفزيون حديث مسطح الشاشة.. صوت شقشقة الطيور بالخارج تتبادل حديثها الأزلي

وكأن الطوفان قد انتهى للتو.. مما ساعدني على العودة مرة أخرى إلى عالم الأحلام.

أيقظني هذه المرة رنين المنبه.. أنهض بشكل آلي متجهاً إلى الحمام.. ثم آخذ حماما ساخنا كما هي عادتي دائما حين أستيقظ من النوم.. أتناول الإفطار مع جدتي الحبيبة.. أحاول أن أخلق جوا من المرح.. ولكن لا أدري لماذا أشعر دائما بأنني ثقيل الظل حين أفعل ذلك.. قد يكون هذا الشعور ناجما عن عدم الثقة بالنفس.. أرتدي ثيابي وأذهب بحزم إلى المدرسة.. أنا لا أمزح أبدا حين يتعلق الأمر بالدراسة.. فهي إلى جانب الثقافة شيئان مهمان جدا في حياتي ولا أبالغ إن قلت إنهما كل ما أملك.. أما الذكاء فشهادة المدرسين بي تكفيني وهذا من دون أي غرور.. والذكاء -بالمناسبة- يختلف عن الثقافة.. والتفوق الدراسي يختلف عنهما هو الآخر.. لذا أحاول أن أكون متفوقا مثقفا.. أحاول أن أكون جميل العقل بما أنه لم يصف أحد مظهري بالجمال من قبل.. وأحاول تعويض كل نقيصة في شخصيتي من خلال دراستي وثقافتي.

ها هو باص المدرسة عند الباب.. أخرج مسرعا لأستقله.. أجلس هادئا كما هو حال جميع الطلبة الموجودين فيه.. وحال الطلبة في باص المدرسة صباحا يختلف تماما عن حالهم بعد نهاية اليوم الدراسي.. إذ تجدهم هادئين جدا ليس لأحد منهم أي مزاج للمزاح أو حتى الحديث.. أما بعد نهاية اليوم الدراسي فيتحولون إلى مخلوقات صاخبة تمزح بصوت عال.. ويتزايد اللغط وتتعالى الأصوات.

أما أنا.. فحالي لا يتبدل.. وكأنه شيء من نواميس الطبيعة التي لا تتغير.. كهجرة الطيور وبيات الدببة الشتوي.. إنه يوم عادي كأي يوم.. طابور الصباح الممل.. ثم الذهاب إلى الفصول.. هأنذا أرسل تحياتي وأنا في طريقي إلى الفصل.. وأكثر تحياتي الحارة للمدرسين.. أما الطلبة فهم ليسوا سوى وجوه مألوفة لأولاد وفتيات أراهم كل يوم ولا أحمل لهم أي مودة.. هل تعرفون مقولة: بين العبقرية والجنون شعرة؟!.. قالها أحد الطلبة ذات مرة عني.. ومن يومها يطلقون علي لقب: (المعقد).. لسكوتي الدائم وعزلتي الاختيارية وتفوقي الشديد.. أساتذتي فقط يؤمنون بأنني مختلف عن الآخرين.. وأنني ذكي جدا كما يقولون لي دائما.. فقط لو أنني كنت أقل مللا وأقل شرودا وأقل حزنا كما تدل ملامحي.

كانت الحصة الأولى هي مادة الرياضيات.. وهي من المواد التي أعشقها.. ها هو مدرس الرياضيات يتحدث باللغة الإنجليزية.. وهي اللغة الرسمية في المدرسة كما تعلمون.. المشكلة أن الطالب يتوقع منه أن ينفصل يوميا انفصالا تاما عن مشاعره الداخلية.. في كل يوم درس جديد.. وفي كل يوم يجب أن يكون مستعدا متيقظا منتبها مهما كانت مشاكله.

أستمع إلى الدرس باهتمام وكل شيء يبدو أمامي واضحا بسيطا.. إما لسهولة الدرس.. أو لتفوقي غير العادي.. كل شيء كان يسير بصورة اعتيادية جدا.. ولم أكن لأعلم أن الأمور ستنقلب رأسا على عقب.. وفي لحظات سأجد نفسي أمام أعظم لغز قد يواجهه إنسان في حياته!!.. ففي منتصف حصة الرياضيات.. دخل مشرف الجناح الفصل بهدوء واستأذن مدرس الرياضيات ليتحدث إلينا.. ثم قال لنا بلهجة ودود:

-ستنضم إلى الفصل اليوم طالبة جديدة.. أرجو أن تجد ترحيبا بينكم.. فهي فتاة متفوقة ومهذبة للغاية.. إنها تنتظر في الخارج.

و.. التفت إلى الباب:

-(إيما).. تفضلي.

(إيما)؟!.. اسم غريب حقا لم أعرف أنثى قبلها تحمله.. اسم خيالي رومانسي يوحي بشيء ما لا يمكن وصفه.. شيء أزلي كالكون نفسه.. غامض كالظلام.. و.. قطع حبل أفكاري دخول الملائكة.. كانت أجمل شيء رأيته في حياتي.. لم تكن جميلة.. بل كان جمالها خارقا يتجاوز كلمة الجمال نفسها.. هذه الفتاة تنتمي إلى سديم كوني أرق وأنقى من عالمنا كله ولا تنطبق عليها صفاتنا الأرضية.. أعرف أنه مهما أصف جمالها فلن تتأثروا به مثلما تأثرت أنا به.. كما أن سماع السيمفونيات من المذياع شيء والجلوس في مسرح لسماعها تولد من فرقة عازفين شيء آخر!!.

أما ثيابها فقد بدت ملفتة للانتباه إلى أقصى حد وتفجر فيك كل علامات الدهشة.. إذ كانت تبدو جديدة للغاية.. وكأنها ابتاعتها منذ لحظات.. حتى حذاؤها الذي تلبسه بدا هو الآخر جديدا للغاية.. مصقولا لامعا لا يحمل سطحه ذرة واحدة من الأتربة التي تتطاير عادة.

لقد كتم الطلبة شهقتهم من هول الدهشة.. فتسمرت النظرات إليها.. حتى مدرس الرياضيات راح يرمقها بإعجاب وانبهار لا تخطئه العين.. لكن بالنسبة لي الأمر مختلف تماما.. فقد كانت مشاعري مزيجا من الانبهار بهذا السحر بالإضافة إلى الدهشة العارمة.. نعم.. نعم.. هذه الفتاة.. أقسم بأنها هي التي رأيتها في الحلم ليلة أمس!!.

عزيزي القارئ.. لك أن تتصور ما دهاني من حيرة.. وما أصاب توازني من خلل بعد هذا الاكتشاف المدهش.. لقد فتحت فاهي من شدة الدهشة غير مصدق ما أراه.. أسمعها تتحدث إلى الفصل بصوت ملائكي رقيق لا تسمعه سوى في عالم الأحلام:

-مرحبا.. اسمي (إيما).. أتمنى أن تقبلوني زميلة لكم وصديقة جديدة.

قالتها بلهجة مهذبة للغاية وجريئة جدا بنفس الوقت.. على عكس ما جرت عليه العادة.. ففي هذه الظروف يموت الطالب خجلا وتوترا حين ينتقل لمدرسة جديدة ويلتقي بطلبة الفصل.. أما هذا الملاك فلم يكن يشعر بذرة خوف أو توتر.. بل على العكس تماما.

اتخذت لها مقعدا فارغا في مؤخرة الفصل وفي مكان يسمح لي برؤيتها جيدا لحسن الحظ.. ثم فتحت حقيبتها الأنيقة لتخرج منها كتاب الرياضيات مع الكراسة..

ليبدأ المدرس -بعد رحيل مشرف الجناح- باستعادة توازنه وشرع يكمل حديثه ويشرح الدرس.. في حين أجد جميع الطلبة يعيشون في عالم آخر بسبب هذا الملاك الذي خلب لب الجميع.. وفي خلال نصف ساعة تقريبا هي الفترة التي جلست فيها (إيما) على كرسي الدراسة.. اكتشفت فيها شيئا أثار اهتمامي كثيرا!!.

هذه الفتاة عبقرية.. ليست فقط ذكية.. بل عبقرية.. غالبا ما كنت أرى أن الفتاة الجميلة ليست أكثر من عصفور جميل الشكل فارغ الرأس.. ولكن هذا الملاك كان عبقريا بالفعل.. إذ راحت تجيب على أسئلة الدرس بجرأة وسهولة بالغة وكأن ما يشرحه المدرس معلومات قديمة معروفة لديها.. وقد أثار هذا انبهار الجميع.. وأثار حيرتي كثيرا!!.

انتهت حصة الرياضيات وجاءت الحصة الثانية والثالثة ثم وقت الفسحة أخيرا.. كنت أنتظر الفرصة كي أتحدث إلى الفتاة وأخبرها بالحلم.. لكني غيرت رأيي في النهاية وآثرت الصمت.. فهي لن تصدقني.. وستظن أنني أحاول التودد إليها فحسب.. دعكم من أنني في كل لحظة أراها فيها.. أرى خلفها عشرات الأوغاد الذين لا تدري من أين يأتون وأعينهم تحمل نظرات لها معاني سوداء غير قابلة للنشر.. فيبتسمون بشهوانية.. ويحاولون التودد إليها.. والفتاة الحسناء -من دون شك-تجد

عواطف الرجال الذين لا تميل إليهم شيئا مزعجا كالذباب.. الغريب أنها كانت جريئة جدا إلى درجة تثير الإعجاب.. فتراها ترد على زملائها الطلبة برقة وثقة متناهية وتسكتهم بلهجة مهذبة لا تخلو من لباقة.. أما أنا فقد فعلت ما يفعله أي شخص خجول يعجب بفتاة.. إذ لاحقتها بعيني دون أن تنتبه.. وأرسلت نظراتي حتى على الأرض التي تمشي عليها.

كم أحلم أن تكون هذه الفتاة لي.. سأعطيها كل ما تريد.. سأتبعها إلى آخر العالم.. لكني في قرارة نفسي أعلم أنني لا أملك أي مؤهلات لألفت انتباهها.. فحتى تفوقي الدراسي لا يساوي تفوقها.. إنها تفوقني بمراحل كثيرة كما هو واضح.. يجب الاعتراف بذلك.. نعم.. هذه الفتاة الملائكية لا يمكن أن تحبني.. ولن تحبني أبدا.. وأنتم تعرفون قسوة الفتيات وبرودهن حين يعلمن أنهن لا يرغبن في الرجل الذي يخطب ودهن.. أشك كثيرا في أنها ستكون قاسية معي في كل الأحوال.. لكني لن أضع نفسي في هذا الموقف.. فهناك احتمال لا بأس به أن تصدني بكلمات جارحة.. يبدو أنني سأكتفي بالحزن في عالمي الخاص.. وسأجن رغبة لمعرفة علاقة الحلم بهذه الفتاة.. فشيء كهذا لم يحدث لي من قبل!!.

انتهى اليوم الدراسي أخيرا.. ولم يحدث شيء آخر يستحق الذكر.. وفي المساء.. جلست في غرفتي أقرأ بعض الكتب عن الأحلام.. لعلني أكتشف سر رؤيتي لـ(إيما) في الحلم قبل أن أراها في عالم الواقع.. هأنذا أقرأ كتاب (فرويد).. (تفسير الأحلام).. ذلك الكتاب العبقري شديد التعقيد والذي يحوي تفسيرات مذهلة.. ولكن المشكلة أن التحقق من هذه التفسيرات أمر مستحيل بالطبع.. فالأحلام لا تخضع لأي مقاييس حتى نستطيع التحقق من مدى صحة تفسيراتها.

يرى (فرويد) أن الأحلام ليست لها قدرة تنبؤيه.. بل هي تعبر عن عقلنا الباطن الذي يتحرر عند النوم.. وهذا يناقض تماما الحلم الذي حلمت به.. إذ إن حلمي كان يحوي جانبا تنبؤيا واضحا لا يمكن تجاهله..

والواقع أن الأحلام عموما وعلى مر العصور قد خلبت لب الإنسان وأثارت فيه مختلف الانفعالات.. بل إنها أوحت إلى اكتشافات كثيرة وحلول لمعضلات علمية لم يكن متوقعا أن يجد لها الإنسان حلا.

انتقلت بعدها لكتاب الباحثة (آن فاراداي) بعنوان (الأحلام وقواها الخفية).. وقد عشت في هذا الكتاب في دهاليز النفس البشرية المعقدة.. لكني لم أجد شيئا ينير أمامي الطريق.. أعرف أن الحلم قد يكون تنويعا من عدة أشياء.. كأن تكون هناك فتاة شاهدتها منذ عشر أعوام في مكان ما.. وأنت لا تذكر في عقلك الواعي أنك شاهدتها.. مع عبارة سمعتها في التلفزيون.. وكل هذا يراد به معنى ما.. ما هو هذا المعنى؟.. وماذا نفهم من كل هذا؟.. لهذا تعتبر الأحلام لغزا شديد التعقيد!!.

رقدت على فراشي في الليل أفكر وأستمع إلى موسيقى هادئة جدا.. وأحلم.. أحلم أن تكون هذه الفتاة لي.. كنت دائما أقول عن نفسي بأنني شخص ميال إلى الوحدة.. ولا أرحب كثيرا بالصداقات.. وأنني من الطراز ذو النفس الثمينة التي لا تمنح بسهولة.. وإنما هي جائزة قيمة لمن يستحق.. كلام جميل ولكن يبدو أنني الآن أواجه مشكلة.. فهذه الفتاة أغلى بكثير مما أستحق!!.. وأرجو ألا تستغربوا اهتمامي بهذه الفتاة الملائكية.. فأنا أبحث عن شيء لا غنى عنه.. خاصة لمن هم في مثل عمري.. أبحث عن الحب!!.. نعم.. فهذا أمر طبيعي جدا.. ولو لم يشعر شخص في مثل سني بحاجته إلى الحب لغدوت مريضا نفسيا.. إنها غريزة.

مر أسبوع على وجود (إيما) في المدرسة ولم يتبدل شيء.. أراها كل يوم متألقة رائعة بذات الثياب

التي تبدو وكأنها ابتاعتها للتو.. وحذائها الرقيق الصغير الذي يبدو بدوره جديدا للغاية.. حتى أن الأمر كان يثير استغرابي كثيرا.. هذه الفتاة مختلفة.. كلماتها أنيقة.. أفكارها أنيقة.. أحلامها أنيقة.. متى تفقد هذه الفتاة وقارها وهدوءها؟!.. متى تغضب؟!.. متى أراها بمزاج سيء؟!.. لا أدري.. دائما ذات الابتسامة الهادئة الرقيقة كالنسيم والواثقة بنفس الوقت وكأنها تعيش في عالم لا يحوي كلمة (شر) في قواميسه.. الأمر الذي زاد من جمالها إلى درجة غير معقولة.

ولا أنسى أن أخبركم بأنها ظلت تعامل جميع زملائها بذات الطريقة المهذبة.. مع شيء من الحزم الرقيق الذي تخبر فيه كل من يتودد إليها بأنه زميل لها وأخ فحسب وليس أكثر من ذلك.. أما بالنسبة للفتيات.. فالأمر مختلف قليلا.. إذ كانت الفتيات الجميلات قد أنشأن لأنفسهن عصابة صغيرة.. إذ يجلسن في نهاية الفصل ليمارسن حيلا صغيرة على المدرسين.. أو يمزحن بصوت خافت ولا يتابعن حرفا مما يقال.. كان هذا حالهن قبل أن تظهر (إيما).. أما الآن فقد نسي جميع الأولاد جمالهن وتجاهلوهن تماما.. الأمر الذي أثار غيظهن كثيرا بالطبع.. وجعلهن يكرهون (إيما) ويناصبونها العداء.. وكثيرا ما أساءوا معاملتها وسخروا منها.. لكنها لم تتأثر أبدا بسخريتهن.. بل ظلت تبتسم لهن في رقة وتحاول كسب ودهن.. وكان هذا يثير انبهاري كثيرا.

كنت أظن أنه لن يكون لي أي دور في القصة سوى المتفرج الحزين الذي يندب حظه لأن هذه الفتاة لن تلتفت إليه.. ولكن حدثت تغيرات كثيرة جدا بعد حوالي أسبوعين من انتقال (إيما) إلى مدرستنا!!!.. كيف؟!.. تابعوا معي.

في المدارس الحكومية تكون مكتبة المدرسة مجرد ديكور مع الأسف الشديد.. فقلما تجد طالبا يدخلها.. حتى أنني أكاد أقسم أن 90% -إن لم يكن أكثر- من الطلبة الذين أنهوا دراستهم في المرحلة الثانوية لم يدخلوا مكتبات مدارسهم من قبل لقراءة كتاب مثلا.. فإذا طلب المدرس من الطلبة إعداد بحث أو دراسة.. تجدهم يلجؤون إلى مراكز خدمة الطالب التي تجدها في كل مكان في (الكويت).. حيث يوجد هناك من يعد لهم بحوثهم ويطبعها لهم مقابل أجر مادي.. وأغلب المدرسين يعرفون ذلك.. حتى أنني أتساءل ما الهدف من كل هذا إن كان الطالب لا يستفيد أصلا؟!.

أما مكتبات المدارس الخاصة فهي أفضل حالا.. فتجدها مرتبة أنيقة تحوي كل ما يحتاج إليه الطالب.. إذ يضطر في بعض الأحيان أن يدخل المكتبة لاستعارة بعض الكتب لإجراء بحث أو دراسة ما.. ويكون المدرس حينها بالمرصاد.. فيناقش الطالب في أمور كثيرة متعلقة بالبحث.. ومن الممكن أن يكتشف إن كان معد البحث شخصا آخر وليس الطالب نفسه.

كنت أقضي بعض أوقات الفسح في مكتبة المدرسة للقراءة كوني لا أملها أبدا ولن أتوقف عنها إلى أن يحين أجلي.. أجلس وحيدا غارقا بين أسطر الكلمات.. إلى أن غردت العصافير فجأة.. وهمست الورود!!.. فعرفت أن (إيما) قد دخلت المكتبة.. تحفزت كل حواسي وأنا أحاول جاهدا ألا أنظر إليها.. أكره أن أرمق الفتاة بنظرات الإعجاب.. فهذا يجعلني أبدو كواحد من هؤلاء الأوغاد الذين يلتهمون الفتاة التهاما بنظراتهم.. لكم أن تتصوروا مدى معاناتي في عدم النظر إلى وجهها الملائكي.. طلبت (إيما) من أمين المكتبة واحدا من كتب التاريخ.. فجلبه لها ونظرات الإعجاب لا تفارق عيناه على الرغم من أنها في عمر ابنته.. لا أدري ما هو شعورها وتلك النظرات تطاردها في كل لحظة.. شيء كهذا قد يكون رائعا في بعض الأحيان.. ولكن في كل الأحيان؟!.. إن هذا قد يحيل حياة الإنسان إلى جحيم.. وهذا هو حال نجوم السينما العالميين الذين دائما ما يقولون بأن نظرات الإعجاب تضايقهم أحيانا.. لأنهم يريدون أن يكونوا أناسا عاديين بعض الأوقات.. و(إيما)

كانت نجمة هذه المدرسة.. وإنني واثق أن أجمل جميلات هوليوود كن سيشعرن بالغيرة من جمالها وأناقتها الدائمة لو رأينها.

-هل ترغب بشيء يا (خالد)؟!.

سألني أمين المكتبة بلهجة أبوية.. فهو يعرف أنني يتيم الأبوين.. لذا كان يتعاطف كثيرا معي.. كما أنني من الرواد الدائمين لمكتبة المدرسة وأصبح بيننا شيء من العِشرة.

قلت له بأدب:

-شكرا يا سيدي..

سألني باهتمام:

-ماذا تقرأ؟!

أريته غلاف الكتاب الذي بيدي.. وقلت:

- 200 يوم حول العالم!!.

-أهاه.. إنه كتاب جيد للكاتب الكبير (أنيس منصور).. لقد قرأته من قبل.. وأثار اهتمامي كثيرا.. كما أنني...

قطع حديثه دخول أحد المدرسين إلى المكتبة وهو صديق شخصي له.. فاستأذن وتركني ليذهب ويجلس معه.. وظللنا على طاولة القراءة أنا و(إيما) فقط.. تجلس على بعد أمتار قليلة مني تقرأ أحد كتب التاريخ باهتمام شديد.. فاستغللت الفرصة لأمعن النظر في ملامحها الملائكية.

أخبروني.. هل يوجد في الكون جمال كهذا؟!.. هل يوجد في الكون سحر كهذا؟!.. كنت أنظر إليها في هيام.. لكنها فجأة استدارت لتنظر إلي!!.. شعرت بإحراج شديد جدا فدفنت وجهي الذي احمر خجلا في الكتاب.. أحاول قدر الإمكان أن أندمج مرة أخرى في القراءة.. لكنني بعد لحظات لمحتها بنظرة جانبية وهي تنهض من على كرسيها لتأتي وتجلس مقابلي.. هنا شعرت بأن العرق يغمر وجهي من شدة الخجل.. ما الذي تريده مني يا ترى؟!.

نظرت إلي وابتسمت قائلة:

-مرحبا.. هل تسمح لي بسؤال؟!.

استجمعت ما أملك من شجاعة لأقول بلطف:

-يبدو لي أنك تعرفين كل شيء.. إنك تجيبين على كل سؤال ببساطة.. فما الذي قد تودين معرفته من شخصي المتواضع؟!.

قالت برقة تذيب الصخر وابتسامة رائعة لا تفارق شفتيها:

-اسمح لي تطفلي ولكن.. لماذا أنت دائما هكذا وحيد معزول عن باقي الطلبة؟!.. إنني لم أرك تجلس مع أحد من قبل أو تصادق أحدا.. وكأنك تعيش في عالمك الذاتي.. مرة أخرى أعتذر عن تطفلي.. ولكن عزلتك هذه لفتت انتباهي نوعا ما.

قلت لها بخفوت شديد سببه الخجل وعدم الثقة بالنفس:

-لا أعتقد أنني أفتقد شيئا في عزلتي.. أشعر بأنني أعيش في عالم تافه.. وأن السوقية تنتصر يوما

بعد يوم.. في حين أن صوت الحكمة هامسا يكاد لا يسمع في زحمة الحياة.

كان ما قلته هو مفتاح حديثنا.. فقد تحدثنا بعدها عن حال الدنيا.. وشرعت تستجوبني عن حياتي ونفسي استجوابا ناعما رقيقا.. فأجبتها بكل صراحة عما أرادت.. ولا أخفي عليكم بأنني لم أمنع نفسي من استشعار لذة خفية في ذلك..

تناقشنا بعدها بعدة قضايا سياسية وعلمية.. فراحت تتحدث وكأنها تعرفني منذ زمن.. وبرغم هذا لم تبد لي متحررة أو وقحة.. بل بدت وكأنها تناقش أخاها أو قريبها بلا أي غرض سوى المناقشة في حد ذاتها.. إن هذا الأسلوب غير معتاد هنا في الشرق.. فعادة ما نتوقع من الفتاة التي لا نعرفها أن تكون شديدة التحرر أو شديدة الحياء.. ولا نفهم أي أسلوب آخر للتعامل مع الفتيات.. أما هذه البساطة فهي غريبة بالفعل.

انقطع كل شئ فجأة عندما سمعت أكثر صوت كرهته في حياتي!!!.. صوت جرس المدرسة معلنا نهاية الفسحة.. وقد أثار هذا غيظي كثيرا.. فمع (إيما) أستطيع أن أقضي العمر كله جالسا أتحدث إليها.. لذا تركنا المكتبة عالما أننا على الأقل غدونا صديقين.

كان لقائي معها في مكتبة المدرسة نقطة تحول بالغة الأهمية.. فبعد هذا اللقاء بدأت علاقتي ب. (إيما) تزداد قوة.. وبدأت شيئا فشيئا أقضي أوقاتا طويلة برفقتها في الفسحة.. أو حتى بين أوقات الحصص الدراسية حيث نتحدث عن كل شيء تقريبا.

كانت تقول بأنها لم تتوقع أبدا أن تجد شخصا مثلي.. قارئ.. مثقف.. له اطلاع واسع.. متفوق.. ذكي.. طيب القلب.. وكان هذا يرضي غروري كثيرا.. أما هي.. فلم تفعل سوى أنها زادت من إعجابي بها.. فلا يمكن لأحد أن يتخيل أن هذا الرأس الجميل يحوي مخ عبقري.. والعباقرة -كما علمتنا القصص والأفلام-لا علاقة لهم بالجمال بتاتا.. لكن هذه الحسناء الملائكية حطمت هذه القاعدة تحطيما.

3 أسابيع مضت منذ لقائنا الأول.. 3 أسابيع قضيت فيها أوقاتا رائعة مع هذه الفتاة في المدرسة.. والغريب أنني أؤكد لكم مرة أخرى وأخرى أنني لم أر بها عيبا واحدا.. حتى ثيابها وحذاؤها.. نفس الأناقة والنظافة الشديدة.. كأنها ابتاعتهم للتو!!!.. كنت أود سؤالها عن هذا الأمر.. لكنني خجلت من التدخل بشؤونها.

ولا أنسى أن علاقتي ب. (إيما) كانت شيئا فاق قدرة الطلبة على التخيل.. وأخرسهم تماما.. وحين ثابوا لرشدهم أدركوا أن الفتاة لن تكون لهم.. كانوا يكرهونها بشدة بعد أن هاموا حبا بها.. لماذا؟!.. لأنها لم تخترهم.. بل اختارتني أنا؟!.. هكذا يرون الأمر.. يعتقدون أننا نعيش قصة حب -وإن كنت أتمنى ذلك-إلا أن هذا لم يكن صحيحا مع الأسف.. لنقل إنه صحيح من جانبي أنا.. فقد أحببتها بالفعل.. من هو الأحمق الذي لا يفعل؟ !!.. ولكم أن تتصوروا نظرات الحسد التي كانت تلتهمني التهاما من زملائي حين كانوا يروننا معا.. ولو كانت نظراتهم سهاما تقتل لحولتني إلى مصفاة!!.

لقد أخبرتها كل شئ عني.. عدا قصتي مع تحضير الأرواح بالطبع.. أخبرتها عن جدتي.. هواياتي.. طموحي.. أحلامي.. وعما إذا كان هذا العالم يستحق أن نعيش به.. وما إذا كان هناك أمل أن تختفي السوقية من عالمنا.. فأصبحت أحب الحياة.. وأحبها هي بجنون.. ولكن علاقتنا بقيت في المدرسة فقط ولم تتجاوز أسوارها إطلاقا طوال تلك الأسابيع.

كان الشيء الوحيد الذي يضايقني هو تجنبها الحديث عن نفسها بشكل واضح.. كنت أنا من يتحدث في معظم الأحيان.. هي فقط تسأل.. وأنا أجيب!!.

وقد تجرأت ذات يوم وطلبت منها أن تأخذ رقم هاتفي.. وجاء الجواب الذي لم أتوقعه على الإطلاق:

-بالتأكيد إن هذا سيسعدني كثيرا.

قالتها بحماس لم أتوقعه.. لتنفرج أساريري.. فكتبت لها رقم هاتف البيت.. على أمل أن تتصل بي في نهاية الأسبوع!!.

يوم (الأربعاء) من شهر أكتوبر.. كنت أنتظر على أحر من الجمر موعد اتصالها في العاشرة مساء.. وكانت جدتي قد ذهبت إلى الفراش مبكرا كما هي عادتها.. فأعددت جوا رومانسيا للمكالمة الموعودة.. صوت (Enya) الهادىء الحالم ينبعث من جهاز التسجيل.. وضوء النوم الخافت جعل غرفتي تبدو وكأنني أعيش حلما جميلا.. أي ضير في أن يحب الإنسان حبيبته بجنون؟!.. لم أجد الوقت للإجابة على هذا السؤال.. ففي تمام العاشرة دق جرس الهاتف.. وأنا لا أدري حال الهاتف في بيوتكم.. لكنه عندي لا يدق إطلاقا.. لذا كنت واثقا أنها هي!!.

-مرحبا (خالد).. كيف حالك؟!.

قلت في هيام ولهفة:

-أهلا (إيما) أشكرك كثيرا على اتصالك في الموعد المحدد.

ثم ازدردت لعابي لأقول بهيام:

-إنك دقيقة في كل شيء.

دار بيننا بعد ذلك حديثا جانبيا عاديا لفترة بسيطة.. ثم:

-(خالد) لماذا طلبت مني محادثتك في الهاتف؟!.

قلت لها بعد لحظات من السكوت والتردد:

-(إيما) أرجوك لا تغضبي مني.. أود فقط أن أخبرك بأنني.. بأنني.. بأنني أهيم حبا بك.. أحبك بكل ذرة من كياني.. و...

وأخبرتها كم أنا مفتون بها.. وكيف تسللت هي إلى حياتي كالحلم الجميل.. حتى أنني تركت لها نفسي في رضا وارتياح.. ولو طلبت مني أن أتبعها إلى آخر الأرض لفعلت دون تردد.. أعرف جيدا الفارق الشاسع بين الهيام والسحر.. وبين الحب والافتتان.. وكلاهما لا يبطل الآخر ولا يتعارض معه.. إلا أن مشاعري مزيجا من كل هذا ناحية حبيبتي (إيما).. رحت بعدها أقول بانفعال صادق:

-حبيبتي.. إنك رقيقة لطيفة لم تتربي إلا على أجمل القيم في الحياة.. ومن يراك يشعر وكأنك خلقت من فورك من فرط أناقتك وطهارتك.. إنك تجعلينني أشعر بأنني ملفوفا بالمخمل بعيدا عن مخالب المجتمع الشرير.. أنت أجمل من أن تكوني في هذا العالم.. أنت.. أنت....

لم أستطع إكمال حديثي من فرط الانفعال.. شعرت بأنها رأفت لتوتري وانفعالي.. فقالت مقاطعة:

-(خالد).. إنك أنت الإنسان النادر.. أنت مختلف.. ومتميز.. إنك إنسان حنون طيب القلب تحب الخير.. صدقني هذا ما جعلني أتقرب إليك وأكسب صداقتك.

قلت باكيا:

-(إيما) إنني أطمع فيما هو أكثر من صداقتك.. إنني أحبك.. أحبك يا حبيبتي.. وأقسم لك بأنك أول حب في حياتي.. وآخر حب.. إنني ضعيف لا أملك شيئا من الوسامة.. ولا أملك سوى قلبي الذي يحبك ويموت في هواك.

لا أدري كيف ولا متى بكيت وبدأت أتمخط كالطفل الصغير.. فقالت بحنان جارف وبصوت مليء بالحسرة:

-أرجوك أن تهدأ يا (خالد).. ما الذي فعلت بك الحياة؟!.

-لم تفعل شيئا على الإطلاق.. لعل هذا سبب كاف للبكاء.

-(خالد).. إنك تحبني وقد لاحظت هذا منذ فترة.. أما مشاعري أنا ف.. ف.. أرجوك أعطني فرصة.. امنحني مزيدا من الوقت!!.

مسحت دموعي وكففت عن البكاء محاولا أن ألملم شتات نفسي.. ثم شرعنا نتحدث مرة أخرى بكلام مليء بالأحاسيس والمشاعر.. كانت أمسية ساحرة جميلة كالحلم.. حتى أننا ظللنا نتحدث لأكثر من 4 ساعات.. وعندما وضعت السماعة.. كان قلبي يخفق بهيام..

أنا غريب الأطوار الذي أملك عالما ذاتيا لم يدخله أحد ولا يعيش فيه أحد غيري.. جاءت هذه الفتاة الرقيقة فجأة لتحتل عالمي وتغزو وجداني دون أي مقاومة مني.. وأنا سعيد بذلك.

أكثر ما أخشاه أن تتصل بي لاحقا وتخبرني بأنني شاب ممتاز وما إلى هذا الكلام لكننا لن ننسجم مع بعضنا بعضاً.. وأن هناك ألف فتاة أفضل منها.. ومن هذا الكلام الذي تقوله الفتيات عادة لمن لا يردن كسب وده.. كان هذا الشيء يثير خوفي كثيرا وينغص على عيشتي.. فلا يوجد هناك أي تكافؤ بيننا من أي نوع.

ثم خطر لي خاطرا أفزعني.. وهو أنها لا تريد سوى صديق تثق به ربما.. وقد وجدت بي هذا الصديق.. فأنا الوحيد الذي لم يطاردها لكسب ودها كما فعل الأوغاد في المدرسة.. لا أدري.. حقا لا أدري.. خطرت بذهني أيضا الأمور الأخرى التي تحيرني في (إيما).. فلماذا تصر على إخفاء كل ما يتعلق بحياتها الخاصة؟!.. أنا لا أعرف عنها سوى أنها وعند خروجها من المدرسة تستقلها سيارة فارهة حديثة إلى منزلها.. وتقوم نفس السيارة بإيصالها إلى المدرسة.. لا أعرف أين تسكن.. ولا أعرف أي شيء من أي نوع عنها.. إنها مجهولة تماما يحيط بها غموض شديد.. لماذا تخفي عني خصوصياتها؟!.. أعلم أن غموض المرأة هو سرها المقدس.. ولكن ليس إلى هذا الحد!!.

غرقت في خواطري هذه وأنا مندسا تحت اللحاف حتى ذبت في عالم الأحلام.

تطورت علاقتي ب. (إيما) كثيرا بعد محادثتنا الأخيرة عبر الهاتف.. فرحنا نقضي وقتنا في المدرسة سويا.. ثم أتصل بها في المساء نتحدث لمدة ساعة أو أكثر بعد نوم جدتي التي لم أخبرها -بالطبع- أي شيء عن حبيبتي.

كنا -(إيما) وأنا-نحرز الدرجات النهائية في اختباراتنا.. لكن إجاباتها كانت أفضل.. كان كل مدرس يقولها بصراحة إن إجابات (إيما) ذكية جدا.. أي أنها تمنحك إجابات بطريقة جديدة قد لا يعرفها المدرس نفسه!!!.. خصوصا في المواد العلمية.. وبالطبع لم يتغير شيء من الانبهار المستمر بها.. دائما نفس الأناقة.. وذات الثياب الجديدة للغاية.. ودائما الجمال الساحر والملامح البريئة

الملائكية.. لا يمكن لأحد أن يمل (إيما).. فهي دائما تملك الجديد.. حديثها عذب.. روحها شفافة.. حتى إنني أتساءل عن حال أهلها الذين أنجبوا هذا الملاك.. وقد استمرت علاقتي بها على نفس المنوال وإن لم أشر مرة أخرى إلى حبي لها خوفا من مضايقتها.. وكان هذا عذابا ونار لا تطفئها كل أنهار الأرض.. لقد كنت أحترق عزيزي القارئ.. أحترق حقيقة لا مجاز.

في أحد أيام عطلة نهاية الأسبوع.. وبالتحديد بعد منتصف ليلة (الخميس).. كنت نائما بعد أن حادثتها لما يقارب الساعتين في الهاتف.. عندما رن جرس الهاتف مرة أخرى.. تململت.. وشعرت بالضيق لأن ترك الفراش في هذا الجو البارد -بفعل جهاز التكييف-أمر غير إنساني.. يجب أن أذكر هنا أنه لا يوجد سوى هاتفان في الشقة.. أحدهما في حجرتي والآخر في الصالة.. وقد اعتدنا على فصل سلك الهاتف عند النوم حتى لا يزعجنا أحد بحجة أنه قد طلب الرقم الخطأ.. أما هاتف غرفتي فلم أكن أفصل سلكه.. خصوصا بعد أن صرت أتحدث إلى حبيبتي (إيما) باستمرار.

جرس الهاتف يرن بإلحاح.. أطلقت سبة.. ونهضت غاضبا لأرفع السماعة.. أعرف أنه على الأرجح شخصا قد طلب رقما بالخطأ.. نظرة سريعة إلى الساعة لأعرف أنها الواحدة بعد منتصف الليل.. قلت بشيء من الحدة:

-آلو

سمعت صوت الملائكة يقول:

-ألو.. (خالد)

إنها هي مرة أخرى!!.. طار النوم من عيني تماما وقلت بشيء من الارتباك:

-(إيما).. آسف.. لم أكن أعلم أنه أنت..

-(خالد).. أريد أن أخبرك بشيء.. هل أستطيع أن أراك؟!.

قلت بلهفة:

-بالتأكيد.. في أي وقت تريدينه.

-الآن.. هل هذا ممكن؟!.

اتسعت عيناي ذهولا وأنا أردد:

-(إيما).. الآن؟؟!!.. مستحيل!!.

بدا لي وكأنها أصيبت بخيبة أمل:

-ألا تستطيع أن تراني الآن؟!.

-بالتأكيد أستطيع.. ولكن ماذا عنك.. كيف ستخرجين وحدك.. وهل سيسمح لك أهلك بذلك؟!.

أجابت بتوتر لم أعهده فيها من قبل:

-لا تقلق بشأني.. أريد أن أراك الآن فحسب.. أرجوك.

ترجوني.. (إيما) ترجوني.. بل أنا الذي أتوسل إليها أن تأتي.

-بكل تأكيد.. أين تريدين أن نلتقي؟!.

-هل أستطيع زيارتك في منزلك؟!.

صعقت تماما عندما قالت هذا.. لكنني تمالكت نفسي وقلت بحذر:

-بالتأكيد.. إن جدتي نائمة.. تستطيعين زيارتي الآن وسنجلس في غرفتي.. ولكن إن أتيت لا تطرقي الباب.. اتصلي من هاتفك الخلوي.. لأفتح لك..

-إذا افتح الباب.. أنا في انتظارك الآن!!.

كان هذا كافيا كي يغمى علي من هول المفاجأة.. لماذا جاءت لزيارتي؟!.. وكيف خرجت من بيت أهلها؟!.. وكيف عرفت عنواني؟!.. ومتى؟!.. ولماذا؟!.. و.. لا يوجد وقت لهذه الأسئلة الآن.. نهضت كالملسوع من فراشي.. رأيت وجهي في المرآة فبدا قبيحا إلى أقصى درجة حال أي شخص استيقظ من النوم للتو.. ولو أضفنا إلى ذلك شعري المنكوش ومنامتي.. لكم أن تتخيلوا!!.. لن أجد وقتا للاغتسال وارتداء شيئا ملائما.. إنها تنتظرني عند باب الشقة ولن أدعها تنتظر طويلا.. ستراني بهذا الحال المزري وليكن ما يكن.. لا شك أنها لا تتوقع أن تجدني مرتديا بذلة سهرة مثلا.

خرجت من غرفتي لأفتح لها الباب و.. وجدتها بروعتها وجمالها كما عهدتها دائما.. لم يتغير شيء على الإطلاق سوى لمحة حزن استطعت استشفافها من ملامحها.. فأشرت إليها أن تتبعني.. وقدتها بهدوء وحذر كي لا نصدر أي صوت قد يوقظ جدتي.. نمشي متجهين إلى غرفتي.. لندخل أخيرا وأقفل الباب خلفي.

بالطبع كدت أموت خجلا من مظهري المزري الذي لا أسمح لامرأة سوى جدتي أن تراه.. وهززت رأسي في حرج ملقيا عليها التحية بعد أن جلسنا في الغرفة.. ضوء مصباح النوم الخافت المعتاد.. وصوت (Enya) الهادئ الجميل ينبعث من جهاز التسجيل مرتفعا قليلا حتى لا تنتبه جدتي لصوتنا.. فآخر ما أريد هو أن تعرف أنني أستضيف فتاة في غرفتي.. وقد جعل كل هذا غرفتي أشبه بحلم جميل.. خاصة مع وجود حبيبتي (إيما).. أجمل وأرق فتاة رأيتها في حياتي.

كانت ترتدي فستانا جميلا جعلها فاتنة إلى درجة يتحول المجرم أمامها إلى طفل صغير.. وهذه أول مرة أراها ترتدي شيئا غير الزي المدرسي.. إلا أن لثوبها نفس الميزة التي تثير حيرتي.. إذ يبدو جديدا للغاية.. ونفس الشيء بالنسبة لحذائها.. علما بأنها قد خلعت حذائها لأرى ولأول مرة أجمل وأرق قدم أراها في حياتي.. قدم رقيقة لم يكس كعبها بطبقة خشنة كالصنفرة كما هو الحال مع معظم الأقدام.. مضت لحظات من الصمت وأنا أشعر بحيرة لقدومها المفاجيء.. مع انبهار لا يوصف بهذه الفتنة وهذا القوام الرشيق الذي تتفوق به على أفضل عارضات الأزياء في العالم.. ثم.. استطعت أن ألتقط أنفاسي وأسألها:

-(إيما).. لماذا أتيت؟!.

قلت بخجل:

-عفوا.. أعني.. أي ريح طيبة ألقت بك؟!.

انحنى عنقها حتى بت لا أرى وجهها.. فظلت ساكنة لحظات.. وحين رفعت رأسها فهمت الحقيقة.. لقد كانت تبكي!!!.. تبكي بتلك الطريقة التي تفاجئنا بها الفتاة حين لا نتوقع أن هناك ما يدعو للدموع.. هنا جن جنوني.. لم أستطع رؤيتها تبكي بهذه الصورة دون أن أفعل شيئا.. نهضت وجلست بقربها.. فقد كانت تجلس على فراشي وأنا بالمقابل على كرسي المكتب الذي أضع عليه جهاز الكمبيوتر.. كم وددت أن أمسك بيديها الرقيقتين وأقبلهما وأذوب بهما.. كم وددت أن

أحتضنها.. علما بأنني لم ألمسها إطلاقا منذ عرفتها.

-(إيما).. ما الذي يجري؟!.

قالت والدموع بعينيها:

-(خالد).. أنا.. أنا أحبك!!.

كاد أن يغمى علي.. (إيما) تحبني أنا؟ !!.. شعرت أن جسدي يرتجف بقوة.. لا أستطيع السيطرة على أعصابي.. قلت بكلمات صادقة منفعلة:

-(إيما) حبيبتي.. إن حياتي ليست سوى هراء طويل من دونك.. إنني أذوب في هواك.. أعشق كل ذرة من كيانك.. لقد كنت أبكي بحرقة في طفولتي لأنني أرغب في دخول عالم ديزني الخيالي حيث لا وجود سوى للحب والخير.. وأنا وجدت هذا العالم من خلالك أنت يا حبيبتي.. إنني أعيش معك أجمل لحظات عمري.. أجمل فترة من الصفاء الروحي الكامل.. حتى بدأت أعتقد أنني مت أخيرا وصرت روحا شفافة بعيدة عن المرض والألم والحزن.. كل هذا بفضلك أنت يا حبيبتي.. إنني إلى عينيك أنتمي.

كانت تنظر إلي بهيام ممزوجا بالحزن.. ثم تذكرت شيئا فاستطردت بحماس:

-حبيبتي.. لماذا تبكين؟!.. إن هذه لهي أجمل لحظات حياتنا.. فلنعشها ونستمتع بها.

نظرت إلي بهيام.. ومدت يدها لتمسك بيدي.. و.. أخيرا لمستها.. لم ألمس بحياتي يدا رقيقة بلورية هشة كهذه.. حتى خلت للحظة أنني سأهشمها بيدي.. صوت (Enya) الحالم لا يزال يتغنى ويتحدث بالتأكيد عن مشاعري ويصف خفقات قلبي كما لم أستطع أبدا أن أصفها.. هنا قالت (إيما) بهيام:

-حبيبي.. أحبك..

لقد أسكرني حبها تماما.. فهأنذا أقف كالمسحور أشاهد شيئا يفوق الوصف.. أشاهد سحر وفتنة لم أشاهدهما في حياتي.. و:

-وأنا أذوب في هواك يا حبيبتي

قلتها وأنا ممسك بيديها الرقيقتين الناعمتين.. هل تفهم تلك اللحظات؟!.. حين يتجمل الوجود.. وتشعر في روحك برضا هائل عن نفسك وعن الكون؟!.. حين تتمنى أن تظل في هذا المكان والزمان حتى تموت؟!.

-حبيبي.. أغمض عينيك وحاول أن تسترخي.

قالتها بصوت هادئ ناعس.. فوجدت نفسي مفتونا مسحورا أستجيب لها برغم إرادتي.. أقسم أنني فقدت كل إرادتي.. إنني أتأمل قليلا.. أغمض عيني باسترخاء شديد ويدها ما زالت تمسك بيدي.. ثم قلت بخفوت شديد جدا وأنا أشعر بشيء لم أشعر به في حياتي:

-الكون.. الفضاء.. النجوم.. هل أنا أحلم؟!.

تردد صوتها الهادئ الدافئ في عقلي وكأنه قادم من عالم الأحلام:

-حبيبي.. أنت لا تحلم.. جزيئاتي وجزيئاتك تمتزج بالكون ذاته.. ليس هناك كيان مادي لنا.. نحن طاقة تبحر عبر الأبعاد الأربعة.. أنا وأنت فقط في الفضاء.. الكون يفصح عن أسراره لنا فقط.. أنا

وأنت روحان يجوبان الكون بلا أجنحة نحو عالم آخر أكثر جمالا ورحمة.. هل تشعر بلذة الهرب يا حبيبي؟!.. أن تلقي بأعبائك وتحلق؟!.

لم نعد في هذا العالم.. لقد ذبنا تماما.. تلاشينا في ذلك السر الذي يحكم قوانين الكون ودوران الذرات وهجرات الطيور.. امتزجنا بالنجوم والليل والقمر حتى غدونا جزءا منها!!.

التزمت الصمت لأكثر من نصف ساعة وكنت في شبه غيبوبة قبل أن أستفيق بسبب صوتها الحنون الذي همس برقة:

-حبيبي.. استيقظ.

فتحت عيناي وكأنني كنت في عالم آخر كل شيء فيه طاهر وجميل.. ثم تداركت نفسي وقلت بحيرة ودهشة شديدة:

- حبيبتي.. ما الذي جرى.. ما الذي فعلتِه؟!.. لقد شعرت وكأنك انتزعت عقلي من جسدي وجعلتيني أبحر في الفضاء.

ابتسمت بعذوبة وقالت:

-إنه الحب يا حبيبي.. أنا شعرت بالشيء ذاته!!.

هل قرأتم الكلمات المتعلقة بتحليقي في الكون بين النجوم.. أقسم لكم بأن هذا ما شعرت به تماما.. شعور رائع لذيذ لا يوصف.. وكأنها سرقتني من نفسي وأعادتني إليها!!.. وكأن ذرات جسمي قد تفككت لتسبح في الفلك بهدوء بعيدا عن ضوضاء العالم.. هنا همست بدهشة وانبهار ونشوة وأنا أسأل حبيبتي:

-من أنت؟!.

فكانت تبتسم ابتسامة تجعلني أذوب وتقول:

-أنت تعرفني جيدا.

حاولت أن أكون جادا.. حاولت وفشلت.. فخرج صوتي حنونا هادئا وأنا أقول:

-ولكن هناك أمور غير عادية.. مجيئك في ساعة كهذه.. ثيابك وحذاؤك الجديدان دائما.. جمالك الساحر.. أنت جميلة من الطراز الذي يتحول الرجال أمامه إلى أطفال لا يفقهون شيئا.. أنت قادمة من نفس العالم الذي جاءت منه (دليلة) و(جولييت).. الفارق هو أنك أجمل منهن بكثير.. كما أنني لا أعرف أي شيء عن حياتك الخاصة.. ألم يحن الوقت لأعرف؟!.

تنظر إلي بهيام وحب وتقول:

-نحن معا.. أليس هذا ما يهم؟!.. سأخبرك بكل شيء لاحقا.. كن صبورا!!.

ثم.. رأيت عينيها تستكشفان المكان.. تنظر إلى صورتي مع جدتي المعلقة على الحائط فوق فراشي.. وتنظر إلى صورتي الأخرى وأنا في العاشرة من عمري أنظر إلى الكاميرا وأبتسم ببلاهة.. التفتت ناحية (الكومودينو) فرأت ورقة صغيرة وقد كتبت عليها اسمها أكثر من مرة.. وهذا ما أفعله مؤخرا حين أجلس في غرفتي وأفكر فيها.. إذ تجدني لا شعوريا أكتب اسمها بنقوش مختلفة.. فكانت تنظر إلي بامتنان وحب..

وقد خطر ببالي الحلم.. الذي رأيتها فيه قبل أن أراها فعليا في المدرسة.. ووجدت أن هذه فرصة

مناسبة لأخبرها عن الحلم.. فذكرت لها أنني صعقت عندما رأيتها في المدرسة.. إذ كان الأمر شبيها برؤيا تتحقق أمام عيني..

فأبدت استغرابها من ذلك.. ثم قالت بهيام:

-لعلها رؤيا بالفعل يا حبيبي.. لعله قدرنا أن تتلاقى أرواحنا قبل أن تتلاقى أجسادنا.

هناك دائما اللحظة المؤسفة التي تدرك فيها حقيقة أنك لن تظل في هذا الموقف إلى الأبد.. لا بد من كلمة (إلى اللقاء).. وبعدها تندس تحت أغطية فراشك مفعما بالأحلام تتخيل نفسك تعيش في عالم بريء مليء بالحب ولا شيء غيره.. ما أجمل الحب.. لن أبالغ أبدا لو قلت لكم بأنني قضيت للتو أجمل لحظات عمري مع حبيبتي (إيما).. لحظات من المفترض أن تخلد في كتب التاريخ.. من هي (دليلة) حتى تقارن بحبيبتي (إيما)؟!.. من المستحيل أن تكون روح (جولييت) بطهارة روح حبيبتي (إيما)؟!.

لقد تغيرت أمور كثيرة في حياتي.. أصبحت إنسانا متفائلا شديد المرح.. وحين تأملت وجهي في المرآة وجدت سحرا خاصا لا شك فيه.. السر هو النظرة.. النظرة الواثقة في العينين.. وحيوية الوجه.. إنه الإكسير السحري الذي تذوقته.. الحب!!.

وقد تكررت زيارات (إيما) لي في الشقة والمكوث في غرفتي لعدة ساعات أيام الأربعاء والخميس دون أن تعلم جدتي بالطبع.. كنا نتحدث في كل شيء وعن كل شيء.. لحظات رائعة لا تنسى.. وقد حصلت على ما هو أكثر من ذلك حين كانت حبيبتي تمسك بيدي وتدعوني أحيانا كثيرة للتأمل.. كما يفعل محترفي اليوجا!!.. فتزايدت مشاعري الإيجابية كثيرا وازددت ثقة بنفسي.. وازددت عشقا لهذا الملاك الرقيق.. كنت أشعر أنها تمنحني نوعا من الصفاء الروحي.. سألتها كيف تستطيع فعل هذا.. فتقول بأنها تمارس رياضة اليوجا بانتظام شديد.. وتعرف خطوات معينة تطلب مني ممارستها لأصل إلى هذا الشعور اللذيذ الذي وصفته لكم.

أعرف ما تفكرون به.. إن أي تفسير خلقي صارم سيقول أن هذه الفتاة مستهترة لأنها تخرج من منزلها في أوقات متأخرة من الليل دون علم أهلها.. لتزور حبيبها في غرفته.. لكني أؤكد لكم أنها كانت مهذبة بسيطة عفوية جدا لم أر أي شيء مشين في سلوكها.. ولم أفعل أكثر من الإمساك بيديها.. وقد نقلت لها هذا الخاطر مرة فكانت تقول ببراءة ورقة:

-المفترض أن نكون أذكى من أن نخضع أنفسنا لقوانين العادات والتقاليد.. الخطأ في ذهن هؤلاء الذين يملأون الطرقات ولا يضيفون شيئا للحياة سوى المزيد من سوء الظن.

كان لها عقل صاف شفاف كقطرة المطر في جزر البحر الكاريبي.. وقلب نقي مليء بالحب تشم فيه رائحة زهور التوليب.. هي من البشر القلائل جدا الذي تجدهم جميلين في داخلهم كما في خارجهم.. وأكاد أقسم أنني لم ألحظ عيبا واحدا في هذه الفتاة.. ألا تخطئ أبدا؟!.. ألا تحضر إلى المدرسة أو إلى غرفتي يوما دون هذه الأناقة البعيدة عن التكلف؟!.. ألن أجد ذرة غبار على حذائها؟!.. ألن أجدها غاضبة يوما ما؟!.. كل هذا جعلني أشعر أنها كالملاك.. بل أشك أحيانا أنني أرى هالة الملائكة تحيط برأسها كما في الصور الدينية!!.. خاصة وأن وجهها الصبوح كان يشع نضارة وجمالا وحيوية دون أن تضع أي مساحيق تجميل.. لن أمل من وصفها أبدا.. ولو رآها أحدكم لما لامني أبدا.

كم دام هذا الحلم؟!.. دام 3 شهور.. ولماذا انتهى؟!.. انتهى لأن الربيع دائما ينتهي.. ومنذ بدء

الخليقة.. كنت أشعر أن ثمة نذير شؤم يخيم على هذا الجو المزدهر.. إن الأمور لا تسير أبدا بتلك السلاسة والبساطة.. فالمصائب قادمة.. وليتها مصائب من التي اعتاد الإنسان سماعها.. بل كانت من نوع آخر!!.

ففي بدايات شهر يناير.. أذكر أن هذا كان يوم ثلاثاء.. حين أصبت بالأنفلونزا.. وأصبحت طريح الفراش تعتني بي جدتي أفضل عناية.. وبجانبي كما هائلا من الأدوية.. حتى إنني غبت عن المدرسة يومين متتاليين.. ولم أستطع حضور حفل المدرسة السنوي لتكريم الطلبة المتفوقين حيث كانت (إيما) الأولى على المدرسة وحللت أنا -ولأول مرة-ثانيا.. لكني كنت سعيدا رغم ذلك.. تقاريري لم تسوء.. بل حافظت على مستواي الدراسي.. إلا أن (إيما) كانت أفضل مني.. وهذا يشعرني بالفخر.

الغريب أن (إيما) اتصلت بي ليلة (الثلاثاء) وتحدثنا بعض الوقت قبل أن تصر على إنهاء المكالمة لأرتاح.. خاصة وأن صوتي بدا متعبا منهكا من شدة المرض.. فظللت طريح الفراش حتى إنني لم أشعر بتحسن سوى أواخر يوم (الجمعة).. والغريب أن (إيما) لم تتصل بي على الإطلاق.. ولم تزرني كما ظلت تفعل منذ 3 شهور بشكل دائم وفي كل عطل نهاية الأسبوع.

لقد عزوت الأمر إلى أنها تريدني أن أرتاح قدر الإمكان حتى أشفى من مرضي.. وحاولت أن أقنع نفسي بذلك.. على أن أذهب للمدرسة في اليوم التالي وألتقي بحبيبتي هناك.

يوم السبت صباحا.. ذهبت إلى المدرسة بلهفة لأرى (إيما) فلم أجدها كما هي عادتها في الحضور مبكرا!!.. انتظرت حتى طابور الصباح لكنها لم تحضر.. غريب هذا!!.. هل أصابتها الأنفلونزا هي الأخرى؟!.. انتهى طابور الصباح ودخلنا الفصل.. وكان بالطبع مقعدها فارغا.. نادى المدرس أسماءنا ليوقع على كشف الحضور.. لكنه لم يناد اسمها.. ما الذي يجري؟!.. هل انتقلت إلى فصل آخر مثلا؟!.. قد يكون هذا حصل فعلا.. ولكن متى وكيف؟..

كتمت خواطري وأنا أشعر بالقلق.. أترقب نهاية الحصة إلى أن دق الجرس أخيرا.. عندها اندفع الطلبة خارج الفصل في حين انشغل بعضهم بوضع كتاب الفيزياء في حقيبته ليخرج كتاب وكراسة اللغة العربية وهي حصتنا الثانية.. أما أنا فاندفعت خلف مدرس الفيزياء وسط حشود الطلبة في ذلك الرواق الضيق المؤدي إلى ساحة المدرسة لأسأله بلهفة:

-أستاذ؟!..

-آه.. كيف حالك يا (خالد)؟!.

تعرفون بالطبع مدى تفوقي ومدى احترام المدرسين لي..

-هل لي أن أسألك سؤالاً؟!.. أين (إيما)؟!.

سألني بحيرة:

-من؟!

-(إيما).. زميلتنا في الفصل؟!

قال باستغراب:

-لا توجد لدينا فتاة بهذا الاسم.. ولو كنت تمزح يا بني فأنا على عجالة لأن لدي حصة أخرى و...

قاطعته باستغراب دون مراعاة لقواعد اللياقة:

-أستاذ!!.. (إيما) الفتاة التي تجلس في الخلف.. هل نسيتها؟!.

رد وقد تغيرت لهجته إلى شيء من الصرامة:

-أنا أعرف كل تلامذتي ولا يمكن أن أجهل أحدا منهم.. خاصة إذا كانت فتاة بهذا الاسم الذي لم أسمع به من قبل.

تركني وهو يمشي مسرعا للحاق بحصته.. في حين وقفت مكاني وأنا أخاطب نفسي مستغربا:

-كيف ينسى (إيما)؟!.. يا له من أحمق!!.

تذكرت شيئا فذهبت مسرعا إلى الفصل حيث كشف الحضور.. فتحت الكشف وبحثت عن اسمها فلم أجده؟!.. ما الذي يجري؟!.. توجهت كالملسوع إلى أحد طلبة الفصل وسألته مباشرة:

-أين ذهبت الفتاة؟!..

-أي فتاة؟!

-(إيما)..

-من؟!.. لم أسمع بها من قبل؟!.. هل هي طالبة معنا في المدرسة؟!

قلت بحدة:

-بل معنا في الفصل.. ما الذي جرى لك؟!.. هل نسيتها؟!.. إنها زميلتنا منذ بداية السنة الدراسية تقريبا!!.

رد باستغراب:

-ما الذي تتحدث عنه يا (خالد).. لا توجد أبدا فتاة بهذا الاسم في الفصل.

هنا سقط قلبي.. وشعرت بحيرة وذهول ما بعده ذهول؟ !!.. سألت طالبا آخر وطالبة أخرى.. والإجابة واحدة.. حتى أنهم نظروا إلي باستغراب وكأنني أؤكد لهم ظنونهم.. فكثير من طلبة الفصل والمدرسة يطلقون علي لقب (المعقد) كما أخبرتكم في البداية.. لأنني في حالي ولا أصادق أحدا على الإطلاق.. وأنا أعلم هذا وأتجاهلهم.. وهم يرون الآن -بوجهة نظرهم- دليلا لا يقبل الشك على جنوني وعقدي الدفينة.. لكن هذا لم يهمني.. إذ لم أترك أحدا إلا وسألته.. وكانت الإجابة واحدة.. لا أحد يعرف (إيما).. وجميعهم يصرون على أنه لا توجد في مدرستنا فتاة بهذا الاسم أصلاً.. لكم أن تتصوروا ذهولي ودهشتي.

انتظرت حتى حان وقت الفسحة وأنا مشوش الذهن تماما.. فذهبت إلى مشرف جناح الصف الرابع الثانوي.. دخلت غرفته وإذ به يلتهم ساندويتش أحضره معه من البيت.. دخلت غرفته ناسيا كل أساليب التهذيب من طرق الباب وغيره.. وسألته بلهفة ممزوجة بشيء من الحدة:

-أين ذهبت؟!.

رفع رأسه بهدوء وخداه منتفخان بطعام لم يجد الوقت ليمضغه.. وتساءل بدهشة:

-عما تتحدث؟!

قلت له بصوت بذلت جهدا خرافيا كي أجعله هادئا:

-عن (إيما)

-من؟!!

قلت بنفاد صبر:

-أتحدث عن (إيما).. أين ذهبت؟!

مط شفتيه وقال:

-لا أعرفها.. ولا توجد لدينا فتاة بهذا الاسم..

هنا جن جنوني.. فقلت وأنا أضغط على أسناني باذلا جهدا خرافيا كي لا أصرخ بوجهه:

-أستاذ.. أنت بالتحديد من قدمها إلينا في الفصل عندما انتقلت إلى مدرستنا في بداية العام الدراسي.. كيف نسيت بهذه السرعة؟!.

نظر إلي لحظات وكأنه يتذكر.. ثم قال بحزم:

-أنا لم أقدم لكم أي فتاة ولم تنتقل لدينا أي فتاة هذا العام.

تصاعد الدم إلى رأسي وقلت بغضب:

-إذا فنظام العمل هنا لا يزيد على نظام سوق الأغنام!!.

هنا طبعا فقد السيطرة على أعصابه.. فنهض من مكانه ووقف أمامي وهو يقول بعصبية:

-قلة الأدب هذه يا ولد لا نريدها هنا.. أنت تلميذ مهذب للغاية.. وهذه أول مرة أراك تتحدث فيها بهذه الطريقة الوقحة.. سأسامحك هذه المرة لأنها الأولى!!.. اذهب إلى فصلك.

المشكلة أنني طالب محترم جدا.. من الذين يحترمون أساتذتهم ويجلونهم حقا.. فما كان غضبه من الأشياء التي تناسب شخصا حساسا مثلي.. ولولا الظرف الذي أعيشه لما جرأت على هذا الكلام.. لذا اكتفيت بما قلته وخرجت من غرفته مذهولا مصعوقا.. ما الذي يجري؟!.. أين ذهبت حبيبتي؟!.. هل يمزحون جميعا؟!.

جلست في فترة الفسحة أفكر وأجوب ساحة المدرسة كالنمر الحبيس أو الكلب المسعور.. أو.. لا أدري بالضبط!!!.. لكنني أجوب مثله الآن.. إنهم يحاولون دفعي للجنون.. كيف ينكر الجميع وجود (إيما).. كيف؟!.. كيف؟!.. ظل السؤال يتردد في ذهني طوال الوقت.. هل هي مزحة مثلا.. كيف يتفق الطلبة والمدرسين ومشرف الجناح جميعا على مزحة كهذه.. ولماذا؟!.. إننا لسنا في أول (ابريل)!!.. وإن كنا كذلك فلا يمكن أن أتصور بعين الخيال أن هناك مزحة تمت بالاتفاق بين الجميع ضدي.. هذا عسير التصديق ويكاد يكون مستحيلا.

في الحصة الرابعة من نفس اليوم وحين كان مدرس اللغة الإنجليزية ينادي أسماء الطلبة لتحضير كشف الغياب.. كنت قد وصلت إلى ذروة العصبية.. عندما تجاوز مثل باقي المدرسين اسم (إيما) وكأنه لم يكن موجودا أصلا في كشف الغياب.. فقاطعت المدرس وأنا أسأله بنفاد صبر:

-أستاذ.. أين هي (إيما)؟!.

التفت إلي باستغراب.. و.. نفس القصة.. لا أريد تكرارها حتى لا يصيبكم الملل.. لكن هذه المرة اختلف أمر واحد.. إذ نهضت من مقعدي وقلت لجميع الطلبة بعصبية:

-هل هذه لعبة سخيفة منكم؟!.. أين (إيما)؟!.. أين ذهبت؟!.

لم ينبس أحد ببنت شفة.. فهذه أول مرة يسمعونني أصرخ فيها بهذه العصبية.. دعكم من أن المفاجأة قد أخرستهم تماما.. إلا أن المدرس قد صرخ بي قائلا:

-اجلس يا (خالد).. ما الذي يجري لك.. لا توجد أبدا فتاة بهذا الإسم عندنا في الفصل.

رد أحد الطلبة بخبث:

-يظهر أن (خالد) قد جن فعلا.

-اخرس.

قالها المدرس بحدة حتى يعيد الهدوء إلى أجواء الفصل.. وهكذا جلست صامتا رغما عني.. إلا أنني كنت أغلي في داخلي.. في حين أسمع همس بعض الطلبة وغمزاتهم عني بأنني مجنون ومعقد كما يقال دوماً عني.

انتهي اليوم الدراسي.. وخرجت من المدرسة وسط نظرات السخرية التي أراها على وجوه أكثر زملائي في الفصل.. فالمراهقون والشباب عموما هم ملوك التعذيب النفسي في العالم ولا أدري سببا لهذا.. المهم أنني عدت إلى البيت وفي ذهني ألف خاطر وخاطر.. فكان يومي هادئا جدا حيث بذلت جهدا هائلا كي أبدو طبيعيا أمام جدتي.. وفي الفراش راحت الأفكار تتصارع في ذهني.. إن ما يحدث لهو أمر غريب يفوق الوصف.. لن أطيق الانتظار حتى يأتي الغد.. أريد أن أخبر المدير بما يجري.. ستكون له كلمة.. وإن كانت هناك مؤامرة فأنا واثق من أنه سيكشف كل شيء.

ظللت أفكر طوال اليوم بما قد يحدث غدا حتى جاء الليل أخيرا وغبت عن الوجود.. ولم يكن نومي هنيئا كما يقولون.. بل كان متقطعا مليئا بالكوابيس.. وعند استيقاظي في الصباح الباكر للذهاب إلى المدرسة.. تمنيت لو أن كل ما حدث في الأمس كان حلما.. ولكن هيهات!!.

ذهبت في الصباح الباكر قبل أن يدق جرس الطابور لرؤية المدير.. لكنه لم يكن قد وصل بعد.. فاضطررت للذهاب إلى الفصل كاتما غيظي.. وبالطبع فقد تزايدت سخرية الطلبة مني.. وكانوا بين الحصص الدراسية وفي فترة الاستراحة القصيرة يطلقون تعليقاتهم السخيفة من طراز: ((هل (إيما) هذه مجنونة مثلك؟!.. من المؤكد أنها مجنونة.. لأنها جزءاً من عقلك أصلا.. نياهههها)).. أو.. ((هناك مؤامرة كبرى في المدرسة.. ولسوف تكتشفها أليس كذلك؟!)).. وتعليقات كثيرة أخرى.. حتى أن الفتيات كن يتهامسن ويسخرن مني.. لكن كل هذا لم يهمني.. أريد أن أذهب إلى غرفة المدير في الفسحة.. أريد أن أتحدث إليه.

لم أكذب خبرا حين جاء وقت الفسحة.. إذ خرجت راكضا من الفصل.. حتى أنني تعثرت عند عتبة الباب.. لأصبح أضحوكة مجسدة!!!.. ضحك وسخرية لا نهاية لهما.. لا يهم.. حقا لم أخيب ظن الطلبة إطلاقا بتأكيد ظنونهم نحوي.. إنني غريب الأطوار صامت أكثر الأحيان.. والآن أخبرهم بوجود فتاة في المدرسة لم يشاهدها سواي على حد زعمهم!!.. ماذا يريدون أكثر من ذلك حتى يؤمنوا بأنني معقد أو مجنون؟!.

وصلت إلى مكتب المدير وأنا ألهث.. طرقت الباب..

-تفضل!!

قالها باقتضاب..

دخلت غرفته وإذا به يقوم بالتوقيع على بعض الأوراق.. رفع رأسه ونظر إلي.. فقال بلهجة أبوية:

-أهلا (خالد).

بالتأكيد هو يعرفني جيدا.. فأنا الأول على المدرسة.. منذ الصف الأول الابتدائي وحتى الآن.. وهو بالمناسبة نحيل الجسد قصير القامة يرتدي بذلة رسمية.. وذو وجه ممتلئ مريح يشعرك بالأمان والثقة حين تتحدث إليه.. إنه إنسان تربوي فعلا قبل أن يكون إداريا.. كما أنه متعاطف جدا معي كوني يتيم الأبوين.. و..

-إذا كان الأمر غير مهم فأرجو أن تأتي في وقت لاحق.

قالها برجاء.. لكني لم أستطع الانتظار:

-أستاذ.. هناك شيء ما يدور في المدرسة.. شيء غريبا.

نظر إلي بدهشة..

-ما الأمر؟!

-هناك مؤامرة واسعة النطاق لا أعرف دوافعها!!.

قال بقلق:

-ما هذا الكلام يا (خالد)؟!.. ما الذي تتحدث عنه بالضبط؟!.

-لقد اختفت فتاة من الفصل والجميع ينكر أنها وجدت أصلا..

-ومن هي الفتاة؟!

-اسمها هو (إيما ال...)

قطب حاجبيه وكأنه يحاول أن يتذكر.. ثم قال:

- لا أعرف أحدا بهذا الإسم.. وهو ليس من الأسماء التي تنساها بسهولة.. دعني أطلب مشرف الجناح ولنر ما سيقوله..

بعدها بدقائق كان المشرف موجودا في غرفة المدير:

-هل توجد لديكم فتاة اسمها (إيما)؟!

رد عليه وهو يرمقني بنظرة جانبية غاضبة:

-لا..

- كذب!!.. صرخت وأنا أثب على قدمي محنقا.. عازما على تحطيم رأس أي إنسان.. ولما لم أجد.. ركلت الكنبة فكادت ساقي أن تتحطم!!.. ولولا الخجل لوقعت أرضا أتأوه.

نظر لي المدير نظرة عتاب.. وقال بهدوء:

-(خالد).. إهدأ قليلا.. ولا تتكلم بهذه الطريقة أبدا مرة أخرى.. لا تغير نظرتي لك.

هذا الرجل معجب بي.. معجب بذكائي وتفوقي ولنهمي للمعرفة.. وليس بجمال منظري طبعا.. أستطيع أن أرى هذا في عينيه.. لكنه بالطبع لا يكشف لي عن ذلك بصريح العبارة.

أكمل مشرف الجناح حديثه قائلا بحزم:

-لقد جاء (خالد) إلى مكتبي يسألني عن هذه الفتاة المزعومة.. وأخبرته أنه لا توجد لدينا طالبة بهذا الإسم.. ما الأمر يا سيدي؟!.

قال المدير بحزم:

-أرجو تزويدي بقائمة أسماء الطلبة في كل فصول الصف الرابع ثانوي.

إذا ما زال المدير يعتقد أنني محق.. أعرف أنه يثق بي كثيرا.. لكن لم أتوقع أن تكون ثقته بي إلى هذه الدرجة.. وبالطبع فإن ما حدث بعد ذلك كان كافيا لزعزعة هذه الثقة.. إذ لم يجد أي فتاة بهذا الاسم في سجلات المدرسة.. عندها فقط نظر إلي وقال بحزم:

-خالد.. إنك واهم.. أو مخطئ.. فلا توجد لدينا طالبة بهذا الاسم.

هذا كابوس مريع يأبى أن يتزحزح.. من المؤكد أن جرس المنبه سيرن الآن.. عندها سأضحك كثيرا.. ولكن كل شيء يوحي بأن ما يحدث حقيقي بالفعل.. قلت للمدير وأنا أكاد أبكي:

-سيدي.. إن (إيما) زميلتي في الفصل.. وهي متفوقة جدا حتى أنها كانت الأولى على المدرسة.. ولأول مرة أحتل أنا المركز الثاني تاركا لها المركز الأول بجدارة.. لقد -وأستمحيك عذرا لذلك- خلبت هذه الفتاة لب الجميع بجمالها وسحرها وذكائها وتفوقها الدراسي.

نظر إلي المدير باستغراب وقد بدأت نبرة صوته تتغير.. ليقول بشيء من الصرامة:

-لقد أخبرتك يا (خالد) بأنك واهم.. وأرجو أن تذهب الآن.. فلا يوجد لدي ما أستطيع تقديمه لك.. ثم إنك أنت الأول على المدرسة هذه السنة أيضا ولم يتفوق عليك أحد.

قلت بذهول شديد:

-أقسم لك يا سيدي أنها كانت زميلتي في الفصل طوال العام الدراسي الحالي.. لم أرها وحدي.. بل رآها الجميع معي.. كيف تجهلون أو تنسون أفضل طالبة لديكم في أهم مرحلة دراسية.. إنه الصف الرابع ثانوي.

رد بشيء من الحدة وقد نفد صبره:

-لن أعيد كلامي.. هل أكذب عليك أنا أيضا؟!..

كنت على وشك القول بأنني لا أرى ما يمنعه من الكذب.. ولا أرى ما يمنع أن يكون مخادعا هو والمدرسون والطلبة الأوغاد.. لكني لحسن الحظ لم أنطق بكلمة.. وشعرت بأنه يحاول السيطرة على غضبه ليواصل كلامه:

-قبل أن ترحل.. دعني أخبرك بشيء.. كل الأوهام تبدو حقيقية.. ليست هناك أوهام تبدو كأنها أوهام.. صدقني.. لقد كنت واهما.

ثم أكمل بشيء من التردد:

-قد.. قد تحتاج أن تزور طبيبا نفسيا يا (خالد)..

نظر إلى الأسفل قليلا وكأنه يفكر إن كان يجب أن يخبرني بما سيقوله.. ثم أطلق زفرة صغيرة وهو يقول:

-أنت يتيم الأبوين.. وصداقاتك شبه معدومة.. لذا أعتقد أنك معرض جدا للإصابة بالأوهام..

لست خبيرا في الطب النفسي.. لكن أعتقد أنني على حق.

استدرت خارجا من مكتبه دون أن أرد على كلامه.. شاعرا بالضياع وأحمل أطنانا من الهموم والتوتر وفي ذهني ألف سؤال وسؤال.. 3 شهور عشتها كالحلم الجميل.. 3 شهور ليست سوى أحلام وأوهام؟!.. هذا مستحيل.. مستحيل تماما.. لقد كانت (إيما) هي كل شيء في حياتي.. وكنا نحب بعضنا إلى حد الجنون.. فجلسنا معا في حجرتي.. ومزحنا معا.. لو كان كل هذا وهما لأصبح الوجود كله وهما أيضا.. لست من مصدقي كلام الفلاسفة الإغريق الذين قالوا أن الحياة نفسها غير حقيقية.. وأنا واثق من أنه لو لمس أحدهم عود ثقاب مشتعل أو انغلق الباب على إصبع قدمه لعرف أن هذا الوجود هو الحقيقة المجسدة.

خرجت من مكتب المدير وذهبت إلى ساحة المدرسة غاضبا متوترا حزينا وقد تبقى على نهاية الفسحة بضع دقائق.. هنا رأيت أحد الطلبة البغيضين جدا والذين يسخرون مني دائما.. بل يسخر من كل شيء وأي شيء ويظن نفسه مضحكا.. هو فتى ممتلئ الجسد له رقبة متعرقة أكثر الوقت.. ثقيل الظل له ابتسامة صفراء بغيضة تجعله مقرف المنظر إلى درجة غير معقولة.. لذا كنت أتجنبه قدر الإمكان.. ولكن هذه المرة جاء هو إلي بابتسامة خبيثة ليقول:

-هل تعرف ما أظن؟.. أعتقد أنك مصاب بازدواج بالشخصية.. وهذه الفتاة التي تدعي وجودها ليست سوى شخصيتك الأخرى.. نياهاهاهاه!!.

وبعدها ضربة عنيفة على كتفي.. هنا فقدت التحكم نهائيا في أعصابي.. وتدفق الأدرينالين أنهارا في دمي.. وصرت قادرا على القتل والركل والضرب والعض والصراخ و.. إلخ.. فوثبت نحوه.. وكورت قبضتي لألكمه في أنفه.. أغلى لكمة كان لي أن أوجهها في حياتي.. لم أظن يوما أن الضرب ممتع إلى هذا الحد!!.. بالطبع أخذته المفاجأة تماما.. فلم يُعرف عني أبدا بأنني من هؤلاء الفتية الذين يتشاجرون.. ترى هل هو الإيحاء أم أن عظام أنفه قد تهشمت حقا؟!.. وقبل أن يفهم أنني ضربته.. وجهت له لكمة أخرى في معدته.. وأخرى وأخرى.. ثم وثبت لأنشب مخالبي في عنقه.. ووجهت له سيل من اللكمات.. كان قويا.. لكني كنت غاضبا.. سددت له لكمات لم أتوقف عن تسديدها إلا عندما سقط على الأرض.. وشرعت بعدها أشبعه ركلا.. ركلات عشوائية تجاه ضلوعه.

-هذه من أجل سخريتك مني

طاخ.. بوم..

-هذه من أجل دفعي في الشهر الماضي

طراخ.. بوم..

-هذه من أجل ثقل ظلك وسخافتك وتدخلك بشؤون الغير..

طراخ.. بوم.. طاخ.. طاخ.. بوم..

دق الجرس معلنا نهاية الفسحة.. لكن بدا أنني لن أتوقف حتى يموت هذا الوغد بين يدي.. ولم أتوقف فعليا إلا بعد أن شعرت بيد قوية تمسكني من قفاي!!.. التفت لأرى يد وكيل المدرسة.. أما الصبي فقد تحول إلى نفاية.. وتحول قميصه الناصع البياض إلى أحمر ناصع الاحمرار -إن صح التعبير-بسبب الدماء التي سالت من فمه وأنفه وأسنانه بعد هذا السيل من الصفعات والركلات.. كان الوكيل يجرني جرا إلى غرفته وأنا أصرخ وأتوعد وتخرج من بين أسناني عبارات التهديد

والوعيد لهم.. وأنا لا أدري من هم بالضبط!!!.. كنت أريد أي شئ أصب غضبي عليه.. من الواضح أن تماسكي النفسي أصبح هشا جدا بعد أن قابلت المدير وأنكر هو الآخر وجود (إيما).. لقد وصلت إلى مرحلة تجعلني أتشاجر وأصرخ وأضرب لدى أي استفزاز.

كنت على الرغم من صراخي في حالة ذهول تام.. قبل أيام قليلة كنت أعيش أسعد لحظات حياتي.. وفجأة انقلب كل شيء رأسا على عقب لأجد نفسي أواجه شيئا غريبا لا تفسير له!!!.. حتى إنني بدأت أميل إلى أنني حقا مجنون.. عدد من الطلبة يحتشدون حولي في فرح عند مدخل إدارة المدرسة ليروا ذلك الوغد الذي سينال جزاءه: أنا.. وهم يتمنون أن تزداد الأمور سوءا.

أدخلني الوكيل مبنى الإدارة وإلى غرفة المدير مرة أخرى.. كان ينتفض غضبا ويصرخ وهو الذي لم يتوقع مني إطلاقا شيئا كهذا:

-أفضل طالب في المدرسة يتصرف بهذا الأسلوب.. ما الذي تركته للفاشلين؟!.. إنك لست (خالد) الذي أعرفه.. لقد تغيرت كثيرا في فترة قصيرة للغاية.. ما الذي يجري لك؟!.

قالها المدير بعصبية بعد أن علم بما حدث.. لم أجد ردا على سؤاله.. فالتزمت الصمت تماما وإن كان بركان الغضب باديا على ملامحي.. ليقول بعصبية:

-يؤسفني يا (خالد) أنني سوف أفصلك من المدرسة لعدة أيام!!.

ثم أردف بلهجة العليم ببواطن الأمور:

-إنك تثير قلقي.. ثيابك مهملة.. نظراتك زائغة حائرة.. لقد تغيرت كثيرا.. إنك تنحدر.

صمت للحظة.. ثم قال:

-اسمع.. يجب أن ترى طبيبا نفسيا.. شخصيتك باتت غير مستقرة وتتوهم أشياء غير موجودة.. أنت حتما تحتاج إلى طبيب نفسي.

ضايقتني كثيرا النبرة التربوية في صوته.. حتى أنني صرت على وشك قتله.. فقلت بحدة:

-أستاذ.. يمكنك أن تعاقبني كما تشاء.. لكن هذا لن يغير حقيقة أن هناك فتاة اسمها (إيما)!!.

قال بحدة مماثلة:

- لا تكابر.. أنت تعلم جيدا أننا لا نخدعك.. لا توجد فتاة في المدرسة بهذا الاسم.. ألا تفهم هذا؟؟!!.

سكت قليلا محاولا السيطرة على أعصابه.. ثم قال:

-أنت في طريقك للخبال.. وقد حان وقت سماع رأي الطب النفسي.. سأعطيك رقم طبيب نفسي وهو صديق لي.. وسأعرف إن كنت قد ذهبت إليه أم لا.. ستغيب عن المدرسة لمدة أسبوع.. وسأتولى أنا حمايتك من أهل الطالب الذي تهجمت عليه.. لأنني أشك أنك مسؤولا عن تصرفاتك.. لا يمكن أن تكون نفس الطالب الذي أعرفه طوال تلك السنوات.

لم أرد عليه.. فقد انفجرت ماسورة عواطفي وأحزاني.. بكيت أمامه.. ولأول مرة أظهر ضعفي أمام أحد.. لا أصدق أنني مجنون.. إنهم هم الكاذبون الأوغاد.. لقد فعلوا شيئا بحبيبتي.. فعلوا شيئا لا أدري دوافعه!!.

لا أدري لماذا تذكرت مقولة الفيلسوف الألماني نيتشه: ((كلما ازداد أعدائي.. ازددت قوة)).. وهو

قول غبي.. فأنا أرى أن الجميع أعدائي.. ولا أشعر بأي قوة.

عدت إلى البيت بعد الظهر.. وقد دخلت سريعا إلى الحمام متحججا لجدتي بأنني أريد قضاء حاجتي.. وكنت طبعا لا أريدها أن تلحظ ثيابي التي توسخت من فعل الشجار وتمزقت في بعض الأجزاء.

أخذت حماما دافئا وذهني يعمل بسرعة البرق.. ثم ذهبت لتناول الغداء مع جدتي بصمت مقبض جعلها تشعر أنني لست على ما يرام.. سألتني عن سبب ضيقي.. فقلت لها بأنني ما زلت متعبا قليلا بسبب الأنفلونزا وسأكون بخير.

دلفت بعدها مسرعا إلى غرفتي.. أحتاج إلى ترتيب أفكاري على الورق كما أفعل دائما عندما أكون مشتت الذهن.. أمسكت بورقة وقلم وبدأت التدوين بعصبية بالغة.. لقد حدث كل شيء عندما أصبت بالأنفلونزا وغبت عن المدرسة ليومين متتاليين لحقتهما عطلة نهاية الأسبوع... وبالطبع فاتني حفل تكريم الطلبة المتفوقين.. في هذه الأيام حدث شيء لا أدري ما هو.. لا أستطيع أن أفكر سوى بتفسيرين:

1) فرضية الجنون.. وهي أفضل الفرضيات ها هنا.. أتراني مجنونا حقا؟!.

ترى.. هل كل ما مررت به طوال تلك الفترة كان تلفيقا سببه طفولتي المعقدة وذهني المكدود؟!.. مستحيل.. أنا أعرف نفسي.. ولكن.. كل المجانين يزعمون أنهم يعرفون أنفسهم مثلي.. حسن.. لنقل بأنني قد أكون مجنونا إلى حد ما.. فماذا بيدي أن أفعل.. أتعالج؟!.

2) فرضية المزحة.. وهي مزحة عسيرة حقا تم ترتيبها من قبل جميع من في المدرسة.. حيث اجتمعوا وقرروا تدبير هذا المقلب لي.. وهذا شيء مستحيل تقريبا.

لا يوجد أي تفسير آخر سوى أن كل ما يحدث هو حلم.. حلم شديد التعقيد.. ربما أصحو من النوم في أي لحظة.. عندها سيكون كل ما حدث هو حلم من نسج خيالي.. من يدري؟!.. ربما كانت حبيبتي نفسها أكذوبة.. جزء من حلم كبير أراه وأنا نائم في فراشي.. ربما كانت حياتي كلها حلم يراه طفل هندي أو مكسيكي لا يتجاوز عمره الـ 5 أعوام.. إن من الأحلام ما يبدو أكثر واقعية من الواقع ذاته.

إنني ضائع تماما.. ربما يجب أن أزور الطبيب النفسي بالفعل.. لدي إجازة إجبارية فرضها علي المدير أستطيع أن أفعل فيها الكثير.. أحتاج أن أعرف ما يجري لي.. وإلا سأجن حتما وسأعترف بعدها أنني مجنون بنسبة 100%.

في صباح اليوم التالي استيقظت متعبا.. يقولون أن المرض الوحيد الذي يصحو فيه المريض مرهقا بعد نوم تسع ساعات كاملة هو الاكتئاب.. كل الأمراض الأخرى تقريبا يصحو منها المريض أفضل حالا.. وأنا بالفعل أشعر باكتئاب شديد.. الاكتئاب الخام -على غرار النفط الخام-الذي من الممكن أن تضع قطعة واحدة منه في منبع مياه الشرب لتجعل أمة من البشر تقرر زيارة مستشفى الطب النفسي. أخبرت جدتي بأنني أشعر بالإرهاق وأن الطبيب قد منحني راحة أخرى لثلاثة أيام.. أي لنهاية الأسبوع.. وخرجت بعدها إلى عيادة الطبيب النفسي الشهير (......) بناء على توصية مدير المدرسة.. وكنت قد اتصلت به قبلها بيوم للحصول على موعد.. هأنذا أجلس في عيادته منتظرا دوري.. إن العيادات النفسية تؤدي عملا جيدا في (الكويت).. فهي أولا وقبل كل شيء تحتاج إلى مستوى اجتماعي مترف. أنتظر بنفاد صبر إلى أن جاء دوري.. فدخلت إلى غرفة الطبيب

النفسي وصافحته بتوجس.. ثم أخبرته بأنني من طرف السيد (.....) مدير المدرسة.. صافحني بحرارة ودعاني إلى الجلوس.. قلت له مباشرة بصراحتي المحببة:

-الحق أنني لا أثق بالطب النفسي البتة.. فهو علم ليس له مقاييس.. ولم أكن لآتي لولا إصرار مدير المدرسة على ذلك.

ابتسم وكأنه يتوقع شيئا كهذا:

-لماذا لجأت إلي إذا؟!.

-لأنك على الأقل ستعرف إن كنت مجنونا.

- إن المرض النفسي لا يعني الجنون.. الاكتئاب مرض نفسي.. وكلنا مكتئبون.. لكن بدرجات متفاوتة.

ثم قال وكأنه تذكر شيئا:

-دعنا لا نضيع الوقت.. ولتحك لي مشكلتك.

طلب مني بعدها أن أرقد على الأريكة الواسعة في زاوية غرفته.. وقام بإضاءة الغرفة بضوء خافت حتى يساعدني على الاسترخاء.. فرقدت على ظهري أرمق السقف وأرتجف.. ومن عيني سالت عبرتان لم أستطع منعهما.. إن ما حصل لي هو شيئا أجهله تماما.. وما أجهله يثير رعبي حتى لو كان غير خطر.

حكيت له قصتي بصوت حزين أثار شجني شخصيا.. ولم أنس أدق التفاصيل بدءا من رؤيتي ل(إيما) في الحلم وحتى شجاري مع ذلك الولد السخيف.. فظل الطبيب يستمع باهتمام ويسجل ملاحظاته.

بعد الانتهاء سألته وأنا راقد على الأريكة:

-هل أنا مجنون؟!.

قال بصوته الهادئ الواثق وهو يشبك أصابع يديه ببعضهما:

-لا أظن.. فيما مضى كانوا يطلقون على من هم بمثل حالتك (مجانين).. فجاء بعدها علماء النفس ليطلقوا أسماء جديدة.. مثل وساوس.. أو ضلالات..

سألته باهتمام:

-وما هو الفرق بين الاثنين؟!.

رد وكأنه يلقي محاضرة:

-الوساوس يعرف المريض أنها أوهام.. أما الضلالات فيصر المريض على أنها واقع ويقاتل من أجل أن يبرهن على ذلك.. والوساوس أو الضلالات لا تعني الجنون بالضرورة.. وإلا لما عاد في الكون عاقل.

ثم سكت قليلا قبل أن يكمل:

- هناك عدة تفسيرات لحالتك.. أعتقد أنك واهم.. فالأوهام ترضي حاجة نفسية ما.. وأنا أعتقد أنك تتوهم وجود فتاة تحبك لأنك محروما من العلاقات العاطفية كما أخبرتني.. وقد يكون هناك

سبب آخر.. وهو البارانويا.. أو جنون الاضطهاد.. فأنت تعتقد أن الجميع يحيكون مؤامرة ضدك لأنك ترى نفسك شديد الذكاء وحقك مهضوم بنفس الوقت.. على كل حال لا أستطيع الجزم بتفسير محدد إلا بعد أن أدرس حالتك جيدا.. لكن أولى خطوات العلاج هي أن تؤمن أن هذه الفتاة لم توجد قط على أرض الواقع.. هل تؤمن بهذا؟!.

هززت رأسي بقوة نفيا.. وقلت:

-بالطبع لا.

-وماذا عن كل المحيطين بك؟!.

-رأيي بصراحة أنهم أوغاد كاذبون جديرون بحطب جهنم.. فما الذي يجعلني واهما ويجعل الناس صادقين؟!.

رد مبتسما:

-أحب أن أصدقك يا بني.. لكن لا يوجد دليل على صدقك.. المنطق والعقل يقولان أنك تعاني أمراضا واضطرابات نفسية.. إنك تمر بضغوط كثيرة أحرقت جهازك العصبي.. فحياتك رتيبة مملة أكثر من اللازم.. لذا لا بد من الفرار بعيدا.. أستطيع أن أوصي لك بإجازة طبية لمدة أسبوع كي تسافر مثلا أو تفعل أي شيء آخر يريح جهازك العصبي.. إن مرضك نفسي بحت.. لا شك في ذلك.

قلت بحدة:

-لا توجد لدي مشاكل نفسية.

ضحك وهو يقول:

-حين يقول لي مراهق حساس يتيم الأبوين عديم الأصدقاء.. تعرض لضرب مبرح قضى بسببه شهرا في المستشفى بأنه لا يمر بأي مشاكل نفسية.. عندها سأتهمه بالسخف.

-ولكن.. لماذا يحدث لي هذا الآن بالذات؟!.

-لأن الضغوط وصلت ذروتها الآن بالذات.. أنت هادئ متحفظ خجول ميال للوحدة.. وعقلك الباطن لا يحب هذا.. لهذا تحرر جزء من عقلك.. هذا الجزء نشط إيجابي.. يفعل كل ما لا تجرؤ على فعله.. أرجوك اختلط بالناس قليلا.. إن البقاء وحيدا مع فكرة كهذه لهو الطريق المفروش بالورد إلى الجنون.

ساعة ونصف مرت على المقابلة.. سجل فيها الدكتور ملاحظاته.. وطلب مني زيارته في وقت لاحق كي يدرس حالتي بتأني.. فكل كلامه الذي قاله هو مجرد نظرة أولية تحتاج إلى تأكيد.

نهضت من على الأريكة وودعته على أن أزوره غدا.. الأفكار تتضارب في عقلي.. لم لا يكون كلامه كله صحيحا؟!.. لم لا تكون حياتي كلها وهما؟!.. هل أنا هو أنا حقا؟!.. ما الذي يثبت هذا؟!.. الواقع أنني أنا نفسي لم أعد واثقا من شئ.. كل ما عشته كان ملموسا وماديا إلى حد مرعب.. لكني لم أهلوس من قبل.. لربما كانت الهلاوس مقنعة هكذا.

عدت إلى الشقة وإلى غرفتي.. طيلة الليل ظللت أذرع الغرفة كالأسد الحبيس.. أدخن سيجارة وهمية هي قلمي.. وأحدث أشخاصا لا وجود لهم.. الأفكار تتصارع في رأسي حتى أنها لتسحق

بعضها بعضا.. هنا سالت العبرات مرة أخرى من عيني.. فالبكاء بمثابة صمام الأمان كي لا ينفجر الإنسان.. أنا عاجز عن عمل أي شيء وأملك خيارين فقط.. أفضلهما مر.. إما الاستسلام بأنني جننت أخيرا.. أو أموت غيظا وأضرب رأسي بالحائط.

بعد حوالي أسبوعين أصبحت حالتي النفسية تحت الصفر.. فقد نمت ذقني.. وأصبح شعري مبعثرا.. فبدوت كالمجانين.. أنتم تعرفون أن الصحة والنظافة مرادفان للسعادة.. والاكتئاب يجعل المرء شاحبا قليل الاستحمام.. لذا صرت أتجنب الجميع في المدرسة.. حتى المدير الذي لم ينس أن يسألني عن لقائي مع صديقه الطبيب.. وقد أخبرته كاذباً أن كل شيء على ما يرام.. وأنني في طريقي إلى العلاج.

أنظر إلى نفسي في المرآة.. ما أقبحني!!.. لا أجد سببا يجعل فتاة كـ(إيما) -إن وجدت أصلا- تهيم بي.. لا بد أنني ظريف أو رائع إلى حد مذهل.. بحيث تغطي جاذبية روحي على وجهي المريع.

سهر.. توتر.. قلق.. غضب.. حزن.. ماذا يبقى من جهازك العصبي بعد هذا؟!.. أرى وجهي في المرآة وكأنه وجه خريج سجون و(ولد شوارع) كما نقول في (الكويت) عن الشباب عديمي التربية.. رباه.. كانت أياما قاسية بحق.. لقد ذهبت إلى الطبيب النفسي 3 مرات بعد المرة الأولى إياها.. ووعدته بأنني سأحاول نسيان الأمر وإقناع نفسي بأنني واهم.. ولا أدري حقا إن كنت أستطيع إقناع نفسي بأمر كهذا.

وبالطبع لاحظت جدتي كل التغيرات التي طرأت علي.. حتى أنها لم تستطع السكوت أكثر من ذلك.. فعادة لا تسألني عما يضايقني وتنتظر مني دوما أن أشكو إليها.. لكن هذه المرة الأمر فاق صبرها.. فجاءت ذات ليلة إلى غرفتي وجلست بجواري على طرف الفراش.. لتحيطني بذراعها و:

-(خالد).. لا أستطيع أن أراك بهذه الحالة وأسكت أكثر من ذلك.. إنك تقلقني كثيرا يا بني.. لقد تغير حالك.. لم تعد تأكل جيدا.. أنظر إلى وجهك في المرآة.. لم تعد (خالد) ولدي الذي أعرفه.. هل هو الحسد؟!.. لا شك أنه كذلك.. الجميع يحسدك على تفوقك.

وشرعت تقرأ آيات قرآنية وتبسمل وتحوقل كي تبعد عني الحسد والكآبة التي أمر بها.. لم أرد على كلامها.. فأكملت قائلة وهي تكاد تبكي:

-ليس لي في هذه الدنيا سواك.. بذلت كل ما أستطيع كي أربيك على أفضل القيم.. آملة أن يكون لك مستقبلا باهرا.. فأرجوك يا ولدي لا تحطم كل ما بنيته من أجلك.. أرجوك تذكر جيدا أحلامك وأمانيك للمستقبل.

التفت إليها بهدوء.. ثم قبلت جبينها ويدها وأخبرتها أنني متعب قليلا.. لكني سأكون على ما يرام.. نظرت إلي بقلق.. ثم نهضت لتقبل جبيني وتحتضنني بقوة.. قبل أن تخرج بعدها من الغرفة.. يا لجدتي الحبيبة.. أرجوك سامحيني.. لكنني مشوش الذهن.. وأشعر أنني ضائع.. آه.. لو علمت بما جرى لي.

جلست في غرفتي حزينا مهموما.. أتساءل إن كنت فعلا واهما أم مجنونا.. لكن كيف يكون الجنون أليما قاسيا هكذا؟!.. يفترض أن يكون الراحة ذاتها.. حمقى من قالوا إن المجانين في نعيم..

غرقت في هذه الخواطر حتى جاء وقت النوم.. وسرعان ما غبت عن الكون من شدة الإرهاق والتوتر.. دون أن أعلم أن هذه الليلة هي الليلة الموعودة!!.

حلم.. حلم من تلك الأحلام الغريبة.. أركض في الأدغال وشيء مجهول لا أدري ما هيته يطاردني..

ثم أجد نفسي بعدها أعيش فيلما سينمائيا وأتحدث مع أحد نجوم هوليوود في حديقة غناء.. بالطبع حلم غير مترابط ولا يخضع لمنطق.. ثم.. ظهر فجأة ضوء ساطع قوي جدا.. حتى إنني استيقظت من شدة هذا الضوء الذي ظننته جزءا من حلمي.. لكن.. لا.. أنا لا أحلم.. ماذا يحدث في غرفتي؟!.. صوت هامس ينادي بخفوت:

-(خالد).. (خالد).

هل أنا واهم أم أنه صوتها بالفعل؟!.. تداركت نفسي بعد ثوان قليلة والتفت إلى مصدر الصوت فرأيت مشهدا لن أنساه مدى الحياة!!.. مشهد من المفترض أن يخلد في كتب التاريخ.. حبيبتي (إيما)!!.. إنها هي.. كانت تقف أمامي بصورة هي أبدع ما خلق الخالق عز وجل.. جمالها يفوق كل وصف وتصور.. لم أشعر بالخوف.. بل شعرت بنشوة هائلة وأنا أراها.. وكأنني تحت تأثير مخدر.

كانت ترتدي ثيابا غريبة بيضاء لامعة تزيدها بهاء وإبهارا.. وبكل الرهبة والانبهار.. تطلعت إليها في انبهار ونشوة للحظات وهي تبتسم ابتسامة حزينة..

فوجدت نفسي أسألها همسا وقد عرفت الآن أن اللغز الذي أنا بصدده سيتضح.. وسأعرف سر عذابي طيلة الشهرين الماضيين:

-من.. من أنت؟!.

أتاني صوتها رومانسيا عذبا رقيقا كعهدي به وهي تقول:

-أتيت من كوكبي يا (خالد).. أتيت من كوكبي يا حبيبي.. من أجلك.

رددت مصعوقا مصدوما:

-من كوكبك؟!.. أتعنين أنك؟!

-نعم.. نحن من مخلوقات الله عز وجل ومن كوكب يبعد عن كوكبكم ما يقرب من ألفي سنة ضوئية!!!!.

خرجت الكلمات من فمي بصعوبة من هول المفاجأة وقلت بصوت متحشرج:

-لـ.. لا أصدق ما أرى.

ثم ازدردت لعابي وقلت بصوت مرتجف:

-ولماذا؟!.. لماذا تزورين كوكبنا؟!.

قالت ببراءة عذبة:

-إنه عملي.. فأنا مستكشفة أرتاد الفضاء لاستكشاف الكواكب المأهولة.. ودراسة حضارة كل كوكب أنتقل إليه.

-ولماذا في (الكويت) بالذات؟!.

قالت برقتها التي تقتلني:

-من قال هذا؟!.. هناك مجموعة كبيرة منا في كوكبك.. يفوق عددنا 200 شخص تقريبا.. موزعين في كل أنحاء العالم.

كان النوم قد طار من عيني تماما وأنا أحدق بها مذهولا مصعوقا.. هل هذا يعقل؟!.. مخلوق

فضائي من كوكب آخر في غرفتي؟!.. إنه شيء لا يصدق قد يحلم به الملايين من الناس وآلاف العلماء.. وهأنذا بكل بساطة أستقبل أحد تلك المخلوقات في غرفتي!!!.

عدت أسألها وجسدي ينتفض بشدة:

-لكن.. لكن.. هناك أمور كثيرة لا أفهمها.. كيف.. كيف حدث ما حدث؟!.. كيف نسي الجميع أمرك وتذكرتك أنا فقط؟!.. كيف حلمت بك أول مرة قبل رؤيتي لك في المدرسة؟!.. كيف تسافرين إلى كوكبك وتعودين إلينا بهذه البساطة رغم فارق المسافة الهائل بيننا؟!.. وكيف تتحدثين لغتنا؟!.. و..

قاطعتني ببساطتها المحببة بعد أن لاحظت أنني ألهث وأنا أتحدث إليها من هول المفاجأة وقد بلغ مني الانفعال مبلغه:

-حبيبي.. سأخبرك بكل شيء!!.

تقدمت إلي وجلست بجانبي على الفراش قبل أن تمسك بيدي بقوة محاولة منحي شعورا بالاطمئنان.. ثم نظرت إلي بحنان جارف وقالت:

-(خالد).. نحن نفوق حضارتكم بآلاف الأعوام.. وقدراتنا العقلية متقدمة جدا بالنسبة لكم.. إننا نستطيع قراءة أفكاركم.. أما أنتم فما زلتم تعيشون في بدايات هذا العلم وتطلقون عليه اسم: (تليباثي) ([4]).. كما نستطيع أن نخترق عقولكم ونمحو منها ما نرغب أن تنسوه.. وذلك بطرق متطورة جدا لم تتوصلوا إليها من التنويم المغناطيسي الذي لا يزال علما رضيعا لديكم.. في حين يجيده كل سكان كوكبي بإتقان.. إنكم في بدايات الطريق فحسب وستحتاجون لألفي عام على الأقل لتصلوا إلى ما وصلنا إليه من علوم.. إن ما نفعله ليس سوى سيطرة الروح والعقل على الجسد.. وهذا ما يجعلنا نتحكم تماما في عقولنا.

صمتت قليلا.. واستطردت:

-لقد أمسكت بميكروفون الإذاعة في المدرسة يوم تكريم الطلبة المتفوقين ووقفت في ساحة العلم حتى ألفت انتباه الجميع.. عندها مارست مرحلة متطورة جدا لم تصلوا إليها بعد من التنويم المغناطيسي.. فاستطعت أن أجعل الجميع ينسون كل ما يتعلق بي.. وقمت بعدها بمسح كل ما يتعلق بأوراقي وملفاتي من أجهزة الكمبيوتر.. دون أن أنسى بالطبع شطب اسمي من كشف الحضور.. كل هذه أمور بسيطة جدا لا تشكل أي صعوبات لنا.. وحتى تزوير أوراقي للانضمام إلى المدرسة كان من الأمور السهلة.

ساد المكان صمتا طويلا.. قبل أن تسألني بحنان ممزوجا بالخجل:

-ألست غاضبا مني لأنني خدعتك؟!.

ابتسمت في حزن وقد احتشد الدمع في عيني:

-كيف لي أن أغضب منك؟!.

ابتسمت بتأثر.. ثم أكملت:

-حتى النقود التي دفعها من انتحل شخصية والدي -وهو بالطبع مواطن من كوكبي- كرسوم للمدرسة.. كانت مزورة ولكن لا يستطيع أفضل خبرائكم أن يكشف أمرها.. فهي مصنوعة بوسائل تفوقكم تطورا بكثير.. المشكلة أنك مرضت وغبت عن المدرسة في تلك الأيام.. كنت غائبا مع

ستة آخرين بينهم مدرس.. وكان الحصول على عناوينهم ليس بالأمر بالصعب على الإطلاق.. فقمت بزيارتهم ليلا ومارست التنويم المغناطيسي معهم.. أما انتقالي من مكان لآخر بهذه البساطة فهو بوسيلة الانتقال الآني ([5]).. وأنت تعرف أن الانتقال الآني ما زال علما رضيعا عندكم يحتاج مئات السنين حتى يصل إلى طموحاتكم.. كنت في كل يوم أذهب إلى المدرسة وأعود بعدها إلى كوكبي بواسطة الانتقال الآني.. وعندما أزورك في شقتك.. كانت الزيارة تتم بنفس الطريقة.. أي أنني أبيت في كوكبي يوميا وأنهض صباحا لأنتقل إلى هنا.. كل هذا بفضل الانتقال الآني الذي قطعنا فيه شوطا طويلا جدا.. لكن بالطبع لا يستطيع أحد من كوكبنا أن يستخدم وسيلة الانتقال هذه إلا إذا كان مستكشفا وعضوا في هيئة دراسات أبحاث الفضاء.

انتهت من كلامها ولم يتوقف انبهاري.. ثم انتبهت إلى أنها تنظر إلي بحنان وتتوقع المزيد من الأسئلة.. فسألتها بصوت متحشرج وأنا أشعر أن العبرات بدأت تنزل من عيني:

-وماذا عن ثيابك العجيبة؟!.. إنني لم أجد ذرة غبار واحدة على حذائك أو ثيابك.

ابتسمت بحب وهي تقول:

- ثيابي مصنوعة من أقمشة مبتكرة شديدة النعومة والصلابة بنفس الوقت.. وخيوطها قوية متماسكة جدا.. لا تنس أنها مصنوعة بتكنولوجيا متطورة للغاية قياسا لكم.. أما الحذاء فهو من مادة لم تتوصلوا إليها بعد.. إنها مادة مقاومة الاحتكاك ويستحيل خدشها أو تآكلها.. أما طلاء الحذاء فهو من مادة تطرد ذرات الغبار بواسطة مجال كهرومغناطيسي محدود!!..

سكتت قليلا.. ثم قالت وكأنها تذكرت شيئا بالغ الأهمية:

-حبيبي.. كوكبنا شبيه جدا بكوكبكم.. شبيه إلى درجة لا يمكن أن تتصورها.. كما أن تكويننا بشري تماما.. فلا يمكن أن تجد فرقا بين سكان الكوكبين.. ولكن الحياة في كوكبنا بدأت قبل كوكبكم بفترة طويلة جدا.. أي أننا كنا نعيش في العصور الوسطى -كما تطلقون عليها-في الوقت الذي كان كوكبكم يمر في العصر الجليدي.. نحن وأنتم نتبع النظرية التي تقول: (البدايات المتشابهة تؤدي إلى نتائج متشابهة).. وبدايات كوكبينا متشابهة.. لكننا نسبقكم في عامل الزمن.. أي أنني عندما أكون في كوكبك.. أشعر وكأنني أعيش أحداثا تاريخية في كوكبي.. والمعلومات التي تتلقونها في المدرسة قد عفا عليها الزمن عندنا وتعتبر من البديهيات.. لهذا كنت متفوقة جدا بمقاييسكم.

صمتت مرة أخرة لتلتقط أنفاسها.. ثم تابعت حديثها الذي لا يصدق لتقول:

-إننا نعيش في عالم مثالي مليء بالحب والسلام.. في بيئة مثالية خالية من التلوث.. ويحكم كوكبنا مجلس من الحكماء.. إن حياتنا بسيطة جميلة.. لم نقسم أنفسنا إلى دول وأجناس وطوائف كما تفعلون هنا.. لقد حاولت أن أختار الهجرة إلى كوكبك والإقامة معك لأنني أحببتك بالفعل وما زلت أحبك.. لكن الحياة في كوكبك مستحيلة.. التلوث والفقر والمجاعات.. القوي يأكل الضعيف.. حروب بسبب طوائف وجماعات.. الحياة عندكم أسرع مما ينبغي.. أعقد مما ينبغي.. وأكثر مادية مما ينبغي.. قد تظن أنه من المبتذل أن أقول أن العاطفة قد ماتت في عالمكم تاركة المجال للمادة.. إلى آخر هذا الكلام الذي يقوله الجميع تقريبا دون أن يدركوا أهميته.. لكنها الحقيقة.. الحقيقة المؤلمة!!.

سألتها دون أن يفارقني الانبهار:

-ولماذا لم تزوريني في غرفتي للسيطرة على عقلي كي أنساك؟!.

ردت بأسف:

-لم أشأ على الإطلاق أن أمحو من عقلك ما تعرفه عني.. شعرت أن هذا عمل قاس.. لكني كنت مخطئة.. مخطئة جدا بتركك ضائعا هكذا.

- وماذا عن الحلم؟!.. لقد حلمت بك قبل رؤيتك كما أخبرتك سابقا.. فهل كان هذا الحلم نبوءة؟!.

قالت بحنان:

-إن الانتقال الآني لا يحدد لنا نقطة هبوطنا على كوكبك.. هذه أكبر مغامرة لنا كمستكشفين.. لأننا نجهل تماما أين سنهبط.. لكن كانت نقطة هبوطي هي غرفة نومك لحسن الحظ!!.. وكنت أنت نائما.. فوجدتها فرصة كي أخترق عقلك لأتعلم لغتكم.. وهي من الأمور التي يحلم بها علماؤكم ولديهم تجارب بدائية جدا في هذا الأمر بالمناسبة ([6]).. لهذا حلمت بي.. لأنني اخترقت عقلك.. لقد تعلمت منك اللغتين العربية والإنجليزية اللتين تجيدهما.. وتعلمت منك كل ما تعرفه.. لقد اكتشفت أن بك عيوباً.. وهذا أمر بديهي.. فمن منا ليس له عيوبا.. لكني وجدت فيك طيبة وصفاء روحي لم أجدهما عند أحد هنا.. لهذا أحببتك.. أحببتك قبل أن نتبادل الحديث في مكتبة المدرسة.. أعلم أنك ستقول إنني سأجد الكثير من الرجال في كوكبي وسيسعدهم أن ينالوا حبي.. لكني لا أملك قلبي.. إن قلبي قد أصبح ملكا لك.. وأنا سعيدة بذلك.

أنهت حديثها وقد اغرورقت عيناها بالدموع.. فانهارت أعصابي تماما.. وشرعت أبكي كطفل!!.. لم أدر قط أنني أملك كل هذه الدموع.. وأنه يمكنني البكاء أمام فتاة.. عندها قامت تربت على كتفي بحنان.. ذلك الحنان الذي لا تمنحه سوى حبيبتك.

ثم قالت بحزن وهي تمسح دموعي بيدها الرقيقة البلورية:

- لقد أحببتك كثيرا يا (خالد).. أنت إنسان نادر.. تحب الخير ولا تكره أحدا.. لقد كنت أقرأ أفكارك.. حتى عندما كنت بجانبك في غرفتك لم تفكر أبدا في شهواتك.. بل كنت محبا مخلصا لي.. إنني أحبك.. أحبك يا (خالد).. أحبك بكل ذرة من كياني.

ثم تنهدت لتقول:

-حبيبي.. أعرف أنك عشت في عذاب مؤخرا لأن الكل ظنك مجنونا في حين أنك الوحيد العاقل بينهم.. لقد جعلني هذا أشعر بذنب عظيم.. لم أشأ أن أمحو ما في عقلك عني.. وفي نفس الوقت كنت مترددة بإخبارك بكل شيء منتهكة قوانين كوكبي.. لكنني قررت أن أضرب تلك القوانين بعرض الحائط من أجلك.. من أجلك يا حبيبي.. كما أن أحدا لن يعرف أنني أخبرتك بهذا السر.. لأنني أعلم أنك ستحتفظ به لنفسك.

نظرت لها بنظرة هي مزيج من الحب والحزن والامتنان.. ثم سألتها السؤال الذي أخشى إجابته:

-حبيبتي.. ماذا سيحدث الآن؟!.. إلى ماذا سينتهي حبنا؟!.

سكتت للحظات خلتها دهرا.. وقالت بعدها بحزن شديد:

-إنكم كائنات جديرة بالدراسة.. أنتم قادرون على تحقيق أجمل الأحلام.. وصنع أسوأ الكوابيس.. ولكن معظم ما يفعله بنو جلدتك هو صنع الكوابيس.. وهذا يخيفني كثيرا.. إنكم تشعرون بالضياع.. بالوحدة.

ثم.. انفجرت ببكاء خافت أذاب قلبي.. وقالت والدموع تنهمر من عينيها:

- كم أتمنى أن نكون معا للأبد.. صدقني يا (خالد) إنني أتعذب.. أتعذب كثيرا.. لا أريد الابتعاد عنك.. لكن مهمتنا انتهت في كوكبكم.. والعودة إليه تحت أي ظرف ممنوعة تماما.. فقوانيننا تحرم ذلك.. ولن يسمحوا لي بجلب أحدا معي.. هذا محظور تماما.. وداعا يا حبي الأول والأخير.. أقسم لك بأنني لن أنساك أبدا.. وسيظل حبك في قلبي ما حييت.

صحت بلوعة وأنا أمسك بيديها بقوة:

-لا تتركيني يا حبيبتي.. خذيني إلى كوكبك.. أرجوك.. أريد أن أعيش معك.. إنني إلى عالمكم أنتمي.. لا أريد الحياة هنا.

قالت والدموع تنهمر من عينيها:

-لا يمكن يا (خالد).. لا يمكن يا حبيبي.. هذا مستحيل وإن كنت أتمناه من كل قلبي.. لن يسمحوا لك.. سامحني.. سأرحل إلى كوكبي تاركة قلبي معك.. قلبي الذي لن أهبه لأحد سواك.. إنني أحبك يا حبيبي.. وداعا.

ثم ضغطت على زر صغير في ساعة كانت ترتديها.. فتلاشت بعدها بثوان قليلة عائدة إلى عالمها.. كدت أن أجن.. حتى أنني نسيت حذري.. ورحت أصرخ:

-إيماااااااااا

أصرخ حتى بح صوتي ونزفت شراييني.. وانفجرت أوردة عنقي.. وتمزقت أوتار حنجرتي:

-إيماااااااااااااااااا

كانت هذه آخر صرخة في رصيد حنجرتي.. رحت بعدها أبكي بكاء هستيريا.. وسمعت جدتي تناديني وهي تدق باب غرفتي بقوة وتصرخ هلعا:

-(خالد) افتح الباب يا بني.. ما الذي يجري؟!.

فتحت لها الباب وارتميت في حضنها وأنا أبكي:

-إنه كابوس يا جدتي.. كابوس صحوت منه للتو!!!.

-بسم الله الرحمن الرحيم.. اذكر الله يا بني.

قادتني بعدها إلى فراشي وهي تقرأ بعض الآيات القرآنية.. ثم قبلتني وهي تطمئنني.. لتبقى معي في غرفتي أكثر من نصف ساعة لم تكف فيها عن النظر إلي بنظرتها الحنون الخائفة على حفيدها وابنها الوحيد.. قبل أن تعود إلى غرفتها بعد أن اطمأنت بأنني سأنام أخيرا.

كنت مندسا تحت الأغطية أنتفض بقوة وأبكي بكاء ينيط القلوب.. وفطنت إلى أنني لا أحب (إيما) فحسب.. بل أذوب في هواها.. أذوب في هوى تلك الطفلة البريئة التي منحت كل عذوبة روحها لي.. وأحلم أن أعيش في عالمها.. وكان كل هذا يقتلني قتلا.. لا أصدق أنني لن أراها مرة أخرى.. ولا أصدق أنني سأعيش في هذا العالم الأسود في حين يوجد عالم آخر جميل نظيف طاهر مليء بالحب والسلام.

أيام قليلة مرت على رحيلها.. حزن عميق جدا.. شعور بأنني وحيد إلى أقصى حد.. أنا الوحيد الذي يعلم علم اليقين أن هناك كوكبا آخر يزخر بالحياة.. أنا الوحيد الذي يعلم أن مخلوقات هذا

الكوكب قد زارتنا وما زال بعضها هنا.. أنا الوحيد الذي يشعر أننا سكان كوكب الأرض مجرد نمل نعيش فوق برتقالة فاسدة.. فنتصارع ونكره ونحقد.. بينما يردد الكون لحنه الأعظم دون أن نصغي.

أمشي على شاطئ البحر ليلة (الإثنين) في وقت متأخر.. أريد بعض الهواء النقي.. أنظر إلى النجوم بأسى.. تلك النجوم التي كانت لامعة براقة قبل أن يغمرها صدأ المدينة ويصيبها التلوث الضوئي.. أمعن النظر فيها بحزن.. كان الشاطئ خاليا تماما من البشر بسبب البرودة الشديدة.. وكان كل شيء يتلألأ تحت ضوء القمر.. لم يكن هناك من يراني سوى خالقي.. يداي في جيب بنطالي.. والريح تصفر في أذني كأنني أصغي السمع إلى قوقعة عملاقة.. رذاذ البحر يبلل وجهي ويملأ فمي بمذاق مالح.. رمال.. رمال.. وخواطر لا تنتهي.

لقد كان يوم لقائي بـ(إيما) يوما مخلدا في تاريخ البشرية كونه لقاء بين مخلوقين عاقلين من كوكبين مختلفين.. لكن لن يعرف أحد ذلك سواي.. فقد قررت بالفعل أن أكتم هذا السر ولا أبوح به لأحد ما حييت.. وحتى لو كشفت السر.. فلن يصدقني أحد ولسخروا مني.. ولن ألومهم في الواقع إن اعتبروني مجنونا.. إن الكلام عن وجود مخلوق فضائي في (الكويت) لا يختلف كثيرا عن الكلام عن بطريق في مجمع الفنار التجاري.. سألت نفسي مرارا: لماذا حدث كل هذا لي أنا بالذات؟!.. ثم وجدت أنه سؤال سخيف بلا معنى.. فلو حدثت هذه القصة لـ(عبد العزيز) أو (سلمان) أو حتى (متولي).. لبدا الأمر غريبا بنفس القدر!!.

لقد تعلمت أشياء كثيرة من تلك التجربة.. تعلمت أن أفهم الكون وأحبه بعدما أضعت أوقاتا طويلة في محاولات خرقاء لتغييره أو تهذيبه.. تعلمت معنى التسامح مع الكون.. وأن الإنسان ضعيف جدا وثمين جدا بنفس الوقت.. وأننا ننتمي إلى شيء عظيم لا أدري ما هو.

كم أفتقدها.. كم أحبها.. أحاول أن أفعل ما كانت تفعله حبيبتي معي.. أركز تفكيري.. أمتزج بالكون.. أحاول ألا أوجد.. أنبذ مخاوفي الخاصة.. أذوب في الأبدية.. أفقد ماديتي.. ثم أدرك أنني أوهم نفسي وأنني عاجز عن التأمل كما كنا نفعل سويا.. فأتأمل النجوم حزينا و:

-(إيما).. أنا بحاجة إليك.

أهمس بهذا وأنا أبكي.. يبدو أنني أمضيت 90% من وقتي معها أبكي كالأطفال.. ولكن لا أعتقد أنكم تلومونني.

أتذكر كلمات (عبد الحليم حافظ)..

«ما أصعب أن تهوى امرأة يا ولدي ليس لها عنوان»..

رباه!!.. ألن ينتهي كل هذا الألم؟!..

بدأت حياتي بعدها تعود طبيعية شيئا فشيئا.. وقد احتجت إلى جهود كونية كي أصلح الخراب الذي أحدثته.. تحججت لدى البعض بإرهاق أعصابي.. أو بحيرتي.. أو بمرضي النفسي.. أو بخرقي وغبائي.. واعتذرت بشدة لذلك الولد الذي أشبعته ضربا.. المهم أن كثيرين لم يقبلوا مبرراتي.. وصرت أتحمل سخرية الطلبة بشجاعة وثقة بالنفس لأنني وجدت لذة برؤية جهل الآخرين.. فهم لا يعرفون ما أعرف.. كما أن الأيام تمر بسرعة.. وما هي إلا شهران أو أقل حتى أتخرج من الثانوية.. لألتحق بكلية الطب.. علي أن أبذل كل جهدي في الدراسة.. علي أن أتخرج بنسبة عالية جدا تشرفني وتشرف جدتي.

ولا أنسى أن أخبركم بما فعلته بعد ذلك.. فقد اشتريت خاتم زواج.. ونقشت بداخله اسم حبيبتي (إيما) مع تاريخ لقائنا.. لن أتزوج إلا (إيما).. فمن يدري.. ربما تعود.. ربما تتغير قوانينهم.. كل شيء ممكن.. وحتى إذا لم تعد فسأظل أحيا بذكراها.

هل تشككون في وقائع تلك القصة؟!.. هل تسخرون مني؟!.. لا تنكروا هذا.. أنا أعرف أسلوب الشباب في السخرية.. أعرف تلك النظرات التحتية والتعليقات الخفيضة التي لا يمكن تبين مصدرها.. أنا لا أكذب.. ولماذا أكذب؟!.. لم أعد راغبا في أن أخترع الأحداث لأثير شغف أحد.. ولو أثارت الأحداث السابقة اهتمامكم فاعلموا أنها أحداث حقيقية تماما لا فضل لي فيها.. وأن هذه التجربة قد غيرتني تماما وفتحت عيني على أمور كثيرة جدا.. كل هذا بسبب فتاتي وحبيبتي (إيما).. التي يعتقد الجميع -سواي-أنها لم تكن!!.

الغابة السوداء!!

أخيرا!!.. أنهيت دراستي الثانوية.. كنت أعد الأيام والساعات والدقائق.. وهأنذا الآن حر.. نجحت بتفوق وظهرت النتيجة لتنفر الدموع من عيني من شدة الفرح.. كنت واثقا من النجاح ومن إحراز معدل مرتفع.. كنت واثقا من أنني على أعتاب دخول كلية الطب.. لكن هذه الثقة لم تقلل من شعوري بالفرحة بعد ظهور النتائج.. وبالطبع كانت فرحة جدتي لا توصف.. فقد اغرورقت عيناها بدموعها الغالية.. وأؤكد لكم وبكل ثقة أنها لم تشعر في حياتها كلها بالسعادة مثلما شعرت وهي تتلقى خبر نجاحي.. فارتميت في أحضانها وقبلت يديها بنهم.. اليدين المعروقتين العزيزتين.. أما هي فقد دفنت رأسها الحبيب في صدري:

-أخيرا يا (خالد).. أخيرا يا بني ستتحقق أمنيتي وأراك تلتحق بكلية الطب.

أرد وأنا أقبل رأسها ويديها:

-أطال الله في عمرك يا أمي لتريني طبيبا ناجحا.. ولأكون دائما عند حسن ظنك إن شاء الله.

كنت أعلم بأنني سأحصل على بعثة دراسية بسبب معدلي المرتفع.. وقد حصلت عليها بالفعل.. لكني رفضتها دون تردد.. نعم.. لن أترك جدتي وحدها أبدا.. أستطيع دراسة الطب في جامعة (الكويت).. وهذا ما أنوي فعله.

تعرفون بالطبع ما مررت به من تجارب غيرت مجرى حياتي تماما وإن لم أخبر أحد عنها.. فمن سيصدقني إذا تحدثت عن تجربة تحضير الأرواح.. أو عن معرفتي بقاتل (راشد) الذي قررت التستر عليه.. أو عن حبيبتي (إيما)!!.. وعندما يطرأ ببالي اسم (إيما) بالذات.. تخرج مني تنهيدة حارة لا شعورية.. هذا الملاك الرقيق الذي خلب لبي.. كم هو مؤسف ألا أملك أي شيء لها على سبيل الذكرى على الأقل.. ولا حتى صورة تذكارية!!!.. آه.. ما زلت أشعر باللوعة عندما أتذكر أجمل أيام عمري التي قضيتها معها.. تلك الأيام الرائعة التي جعلتني أقرر ألا أتزوج أبدا كي أعيش على ذكرى حبيبتي..

ما زلت أعاني جراحا نفسية هائلة لا أعتقد أنها ستشفى بعد قصة حبي العجيبة التي لم يمض على نهايتها أكثر من شهرين.. حتى إن حياتي قد تغيرت كثيرا.. وصرت ميالا إلى الوحدة أكثر من الماضي.. أصبحت أحب الجلوس في شرفة غرفتي معظم الوقت أتأمل النجوم وأشعر بالحزن والنشوة في مزيج غريب.. إنه حزن.. لكنه حزن لذيذ أعجز عن وصفه لكم.. وأصبحت أشعر بثقة أكبر في نفسي سببها شعوري ومعرفتي بأننا لسنا وحدنا في هذا الكون.. وأن الإنسان يضيع عمره في صراعات تافهة ولا يفكر لحظة في تأمل النجوم ليعرف أن الكون يعزف سيمفونيته الخالدة فلا نصغي ولا نتعلم.

لم أكن أعرف بالطبع ما سيحدث لي.. وأن نمط حياتي سيتغير أكثر وأكثر.. وأن ما مررت به مع حبيبتي (إيما) لن يكون أغرب ما رأيت.. فهناك المزيد!!!.. اقرؤوا السطور التالية وستعرفون ما أعنيه.

لم يكن هناك شيء يستحق الذكر في هذا اليوم سوى ذلك الاتصال.. اتصال هاتفي مفاجئ في بدايات شهر يوليو الحارق.. وأنتم تعرفون أن الهاتف عندنا لا يرن إلا نادرا.. كان المتصل هو آخر شخص أتوقعه..

-(خالد) كيف حالك.. إنه أنا.. أستاذ (إبراهيم) مدير مدرستك!!.

قلت بحماس وانفعال صادقين:

-أستاذ (إبراهيم) مرحبا بك.. يا لها من مفاجأة سارة!!.

تبادلنا التحية لبعض الوقت وأنا أتساءل في سري عن سبب هذا الاتصال المفاجئ.. فهذه أول مرة أتحدث فيها إلى مدير مدرستي عبر الهاتف.. لم تطل حيرتي كثيرا حين قال مباشرة:

-(خالد).. أنت تعلم يا بني أنني أكن لك معزة خاصة جدا.. وأنني أحترمك كثيرا.. وحتى في الفترة التي عانيت فيها من اضطرابات نفسية.. حاولت أن أقف معك قدر استطاعتي.

قلت بتأثر:

-أنا لم أنكر هذا لحظة يا أستاذ.. لكن الحمد لله.. لقد تخلصت من أوهامي تماما بعد الاستماع إلى نصائح الطبيب النفسي والانخراط في ممارسة الرياضة.. كما أنني أنوي السفر بعد بضعة أيام لتغيير روتين حياتي قليلا!!.

أنتم تعلمون جيدا أنني كذبت في كل حرف من كلامي.. لا أملك سوى أن أكذب مع الأسف.. ليته يعلم أنني لم أكن واهما.. ليته يعلم أن حبيبتي (إيما) كانت واقعا ملموسا وليست خيالا على الإطلاق.

رد الأستاذ (إبراهيم) بسعادة:

-هذا رائع.. كنت واثقا من أنك ستتجاوز أزمتك النفسية.

ثم سكت قليلا وقال بجدية ليغير مجرى الحديث ويدخل في صلب الموضوع:

-أنا أعتبر نفسي بمثابة والدك.. لذا فإن مصلحتك تهمني كثيرا.. لن أطيل عليك وسأخبرك سبب اتصالي المفاجئ.. إنني مدعو غدا لحفل عشاء في مزرعة الدكتور (علي).. وهو صديق قديم لي وشخصية مرموقة في كلية الطب بنفس الوقت.. أريد اصطحابك معي إلى هذا الحفل.. أريدك أن تلتقي به وتوطد علاقتك معه.. أعرف أنك ستتفوق في دراستك بإذن الله دون الحاجة لأحد.. لكن زيادة الحرص لا تضر.. قد يفيدك الدكتور (علي) في أمور كثيرة عندما تبدأ حياتك الجديدة في كلية الطب.. هه.. ماذا تقول؟!.

قلت ممتنا:

-وهل لي أن أرفض لك طلبا يا أستاذ.. إن لك أكثر من جميل علي.. وأقل ما يمكنني فعله هو الموافقة.

قال بصوته الأبوي:

-رائع.. بارك الله فيك.. سأمر لاصطحابك غدا في الساعة الثامنة مساء.

تذكرت شيئا قبل أن أغلق السماعة:

-عفوا أستاذ (إبراهيم).. كيف عرفت رقم هاتفي؟!.. وهل تعرف عنواني كي تصطحبني غدا إلى الحفل؟!.

ضحك قائلا:

-هل نسيت أنك أفضل الطلبة عندي على الإطلاق وأذكاهم؟!.. ملفك موجود في المدرسة.. ومنه أخذت كل معلوماتك.

أنهيت المكالمة وأنا أشعر بالامتنان الشديد له.. غير عالم بالطبع بما سيحدث في هذا الحفل الذي سأقضي فيه ساعات سوداء لن أنساها مدى الحياة.

في اليوم التالي.. كنت مستعدا.. مرتديا بذلة رسمية كحلية اللون.. لحسن الحظ اشتريت واحدة قبل بضعة شهور.. فأنا وبكل صراحة لا أحب ارتداء الزي الوطني (الدشداشة) على الإطلاق.. ليس لشيء سوى أنني أشعر أنه يعوق الحركة كثيرا عند ارتدائه.. دعك من أن المدير قد طلب مني ارتداء بذلة لأن الحفل على حد قوله رسمي جدا.. وسيكون جميع المدعوين تقريبا مرتدين بذلات رسمية.

و.. قبل الثامنة مساء بدقائق.. كانت سيارة المدير بانتظاري.. فاستأذنت جدتي للخروج وأخبرتها بأنني قد أتأخر قليلا.. نزلت من الشقة لأجد بانتظاري مفاجأة.. لقد كان الأستاذ (إبراهيم) بصحبة زوجته التي لم أكن أعلم أنها ذاهبة هي الأخرى إلى الحفل.. الأمر الذي جعلني أركب السيارة بارتباك وخجل واضحين.

قام بتقديمي لزوجته السيدة (أوراد) التي رحبت بي بحرارة.. وكان واضحا أنه حدثها عني كثيرا.. كانت امرأة في الخمسين من عمرها على أقل تقدير.. ملامحها تبعث إلى الارتياح وتبدو عليها الطيبة الشديدة.. وهي نحيفة الجسد تبدو بصحة جيدة للغاية.. ترتدي حجابا أنيقا وفستانا ينم عن ذوق رائع كما لاحظت لاحقا بعد أن نزلنا جميعا من السيارة.. حتى إنني قلت في سري أنها جديرة بالفعل بزوج طيب محترم كالأستاذ (إبراهيم).. وأحسد أولادهما بالفعل على هذين الأبوين الرائعين وإن كنت أجهل إن كان الله قد رزقهما بأولاد أصلا.

أثناء الطريق كنت صامتا أستمع إلى كلام الأستاذ (إبراهيم) وهو يخبرني أن صديقه الدكتور (علي) يعتبر من أقدم أصدقائه.. وأنه بالغ الثراء.. حيث اشترى للتو مزرعة هائلة في منطقة (الوفرة) الزراعية.. وأن زوجته فرنسية الجنسية تزوجها منذ فترة قصيرة بعد أن ظل أرملا أكثر من 10سنوات.. ولم يرزقه الله أي أولاد من زوجته الأولى.. إن شيئا كهذا نادرا في (الكويت) على حد علمي.

تحدثنا بعدها عن أمور أخرى جانبية إلى أن أصبح الصمت سيد الموقف بعد أن مللنا الحديث ونحن متجهون إلى منطقة الوفرة الزراعية التي تبعد عن شقتي مسافة ساعة ونصف تقريبا حيث مزرعة الدكتور (علي).. صمت مطبق سوى صوت المذياع الذي يبث أغنية (وحياة قلبي وأفراحه) ل(عبد الحليم حافظ).. دائما أشعر أن أيام (عبد الحليم حافظ) كانت مليئة بالحب والمودة.. وأن الدنيا كانت بخير.. حتى إنني أتمنى أحيانا لو كنت قد عشت في ذلك الزمن الجميل.. فترة الخمسينيات أو الستينيات.

ظللت غارقا في خواطري إلى أن وصلنا إلى مزرعة الدكتور (علي).. كانت المزرعة رائعة هائلة الحجم بالفعل تم الاعتناء بها بكل دقة.. فبدت أقرب إلى حديقة لأحد القصور أو القلاع التاريخية التي نشاهدها في أوروبا.. حتى إننا دخلنا المزرعة بالسيارة لمسافة تتجاوز المائتي متر تقريبا قبل أن نصل إلى البيت الذي بناه الدكتور في وسط المزرعة.. وإنني لأتساءل.. كيف سيبدو منزل الدكتور (علي) ومحل إقامته الدائم إن كانت هذه مزرعته فحسب والتي تعتبر مكانا للراحة والاستجمام فقط؟!.

نزلنا من السيارة لنمشي في ممر مرصوف يزدان على جانبيه بالزهور.. وحول الزهور حديقة خلابة معتنى بها جيدا هي الأخرى.. وعند وصولنا.. فتح لنا الباب شخص شديد الأناقة.. بدا واضحا أنه هو الدكتور (علي).. هيئته واعتداده الواضح بنفسه جعلني متأكد أنه هو الطبيب الثري صاحب المزرعة.. ولم أكن مخطئا.. إنه نحيل الجسم كثيف الشعر يرتدي نظارات أعطته وسامة لا بأس بها.. وكان الشيب يملأ فوديه حتى بدا وكأنه طبيب يمثل دور البطولة في فيلم سينمائي.. ولم يكن ينقصه سوى رداء الأطباء الأبيض الشهير.

قام بمصافحتنا بود ليقوم بعدها بمعانقة الأستاذ (إبراهيم) وهو يقول:

-كان لا بد أن أدعوك إلى مزرعتي كي أراك.. لا أصدق أنني لم أر أفضل أصدقائي منذ سنتين.. يا لك من جاحد.. كيف تنسى صديق الطفولة؟!.

يقولها بمرح وعتاب.. ويرد عليه الأستاذ (إبراهيم) بمرح أيضا:

-إنها مشاغل الدنيا التي تسرقنا من أصدقائنا وأحبابنا.

كانت هذه واحدة من اللحظات التي أكرهها كثيرا.. فعند رؤيتك لصديق قديم لم تكن قد رأيته منذ فترة.. لابد من الكثير من الصراخ والمرح والقسم وأن المحبة موجودة في القلب وإن كانا متباعدين جسديا.. وما إلى ذلك من هراء!!.

دخلنا بعدها إلى صالة البيت الرئيسية لنجد أكثر من 30 ضيفا وضيفة.. لم أقم بعدّهم طبعا.. لكنه الانطباع العام.. وكان أول ما لفت انتباهي في هذا البيت الكبير هو النمط الأوروبي الذي بدا واضحا على كل ركن من أركانه.. دعكم من التحف واللوحات الفنية الثمينة هائلة الحجم التي أراها في كل مكان.. بل إن البيت نفسه تحفة فنية.. اللون الأزرق الهادئ الذي يمتزج مع ألوان أخرى.. لتعطي لونا واحدا ينساب بظلال هادئة جميلة.. لا توجد أريكة أو كرسي أو قطعة أثاث ليست في مكانها الصحيح.. مع نباتات زينة رائعة لم أر معظمها من قبل.. كل شيء في منتهى الروعة والجمال.

وقد انتبهت إلى أنني أصغر الحاضرين سنا.. في حين تبين أن الباقين رجال أعمال وأطباء وبالطبع مدير مدرستنا الأستاذ (إبراهيم) وزوجته السيدة (أوراد).

كان جميع المدعوين تقريبا من علية القوم -إن صح التعبير- ولم يفتني أن أنتبه لزوجة الدكتور (علي) الفرنسية.. فقد بدت وكأنها ابنته!!.. إنها صغيرة السن.. جميلة.. بل فاتنة.. بيضاء البشرة رشيقة القوام تحمل على رأسها شعرا أسودا قصيرا.. وعرفت أن اسمها هو السيدة (موريسا).. فكانت تتحدث اللغة الإنجليزية بشكل جيد.. وإن كانت لكنتها الفرنسية ونطق حرف الراء (غ) واضح جدا في كلامها.. ولا أعلم في الواقع سبب زواجها من الدكتور (علي) الذي يعتبر في عمر أبيها.. هل الأمر متعلق بثروته؟!.. هذا جائز لكنه ليس من شأني بالطبع.

كان حفلا رائعا شبيها بحفلات رجال الأعمال التي نشاهدها في السينما.. أكواب العصير تتوزع على الحضور من خادمتين ترتديان زيا موحدا.. والحديث غالبا ما يكون جانبيا بين مجموعات من الضيوف أو علنيا أحيانا قليلة.. جو صاخب نوعا ما أشعرني بشيء من عدم الارتياح.. خاصة وأنني أعيش حياة هادئة راكدة بعيدة عن الصخب تماما.. دعكم من أن الأستاذ (إبراهيم) مدير المدرسة قد انشغل عني بمصافحة هذا والحديث مع ذاك.. كان واضحا أن له صداقات وصلات عديدة مع معظم الحضور.

وبما أنه ليست لي أي علاقات شخصية على الإطلاق سواء مع أشخاص مهمين أو غير مهمين داخل نطاق الحفل أو خارجه.. فقد اخترت الذهاب إلى المكان الوحيد الهادئ البعيد عن كل هذا الصخب.. الشرفة.. حيث المفر الوحيد لي من كل هذا الصخب وإن بدا هذا أمرا غير لائق.. نعم.. تسللت إلى هناك وأعطيت ظهري لكل هؤلاء الناس.. ثم رحت أرمق الظلام النقي المخيف على المزرعة الكبيرة.. لتنتابني رجفة حزينة في عروقي.. هذا الشعور المتفرد الذي زاد كثيرا منذ أن عرفت (إيما).. مع تلك اللحظات الحميمة حين تدير ظهرك للصخب وتقف وحدك في الظلام شاعرا بلذة الحزن.. لذة الشجن.

أسمعهم خلفي يضحكون باستمرار.. وفي جو الحفلات والولائم تصبح كل دعابة بسيطة وكأنها نكتة عظيمة تدفع الجميع إلى الضحك والقهقهة ولا أعرف لذلك سببا في الواقع.. لكني انتبهت إلى أنهم قد صمتوا جميعا فجأة.. فاستدرت لأرى ما هنالك.. وإذ بالدكتور (علي) يقف بمنتصف الدرج المؤدي إلى الدور الثاني وكأنه يريد أن يلقي خطابا ثوريا.. فدخلت إلى صالة البيت الفخمة لأراه يتحدث بثقة هائلة:

-أتشرف بوجودكم هنا.. وإنها لفرصة نادرة أن أقوم بدعوة أقرب أصدقائي لمزرعتي الجديدة.

وهنا تعالى التصفيق.. وكأنني في البلاط النمساوي.. إن هذا الجو يختلف كثيرا عن أجواء الدعوات المعتادة في (الكويت).. حيث ينتهي الأمر بصواني اللحم والدجاج على الأرض ليتجمع حول الواحدة منها 5 أو 6 أشخاص للإجهاز على ما فيها.. أما هنا فالأمر يختلف والجو رسمي لأقصى حد.. و.. كأن المدير قد قرأ أفكاري.. فمال إلى أذني هامسا مبتسما:

-لقد أقام الدكتور (علي) في أوروبا أكثر من 23 عاما.. وهو منبهر كثيرا بكل ما هو غربي.

أومأت برأسي متفهما.. واستمر الحفل بصورته المعتادة.. أتأمل وأجوب المكان بعيني.. التماثيل الأثرية الرائعة التي تبدو لي إغريقية واللوحات الفنية بالغة القدم والفخامة.. كل هذا إلى جانب الإفراط في توزيع نباتات الظل.. وهذا مريح للعين إلى حد لا يوصف.. لقد كنت أستمتع بروعة المكان وأنا منطويا ملتصقا بالمدير.. الأمر الذي أعطاني شعورا طفوليا محببا بأنني في حماية (بابا).. وهو أمر لم أشعر به في حياتي.. بل إنني لم أستخدم كلمة (بابا) على الإطلاق.. أما كلمة (ماما) فقد قلتها لجدتي وما زلت أقولها.

كانوا يصخبون.. يمرحون.. يضحكون.. لكنني كنت أنظر إلى كل شيء بشرود وبنظرة خاوية.. عيناي ترحلان إلى عوالم أخرى غير مرئية.. سمعي وذهني في أرض أخرى.. أرض نائية بلا بشر.. ورحت أدعو الله أن ينتهي هذا الحفل بأسرع وقت كي أنفرد بنفسي وأحلامي.. إن جو الحفلات هذا لا يناسبني إطلاقا.. ماذا؟!.. تقولون إنني إنسان كئيب لا يستمتع أحد بمرافقتي؟!.. أقول: معكم حق!!.

وأنا غارق في تلك الخواطر التفت لأرى لوحة قديمة جدا يطل من كل جزء منها العمق الحضاري لأوروبا وتاريخها العريق.. لكنها رغم ذلك بدت مخيفة لا تخلو من البشاعة.. والغريب أنها كانت تحتل ركنا هاما من البيت.. كيف لم ألحظها من البداية؟.. لا أعلم.

كان الدكتور (علي) يقف مزهوا وهو يشرح لنا ولع زوجته بالتحف الأثرية واللوحات الفنية القديمة.. لأنه -كما يقول- يحترم هواية زوجته ويحب ولعها بالآثار التي نطلق عليها اسم (الأنتيك).. حتى أنه دفع ثروة طائلة للحصول على هذه التحف واللوحات الفنية.. لكن أحد الحاضرين قاطعه ليسأل السؤال الذي يجول بخاطري في هذه اللحظة بالذات:

-معذرة لمقاطعتك يا دكتور (علي).. لكن هذه اللوحة غريبة للغاية.. وأرجو ألا تنزعج لو قلت بأنها تبدو مخيفة بعض الشيء.. فليست كل اللوحات الفنية الأثرية جميلة.. أليس كذلك؟!.

سمعت همهمة من البعض تؤيد كلام الضيف الذي سأل ذلك السؤال.. تأملت اللوحة مرة أخرى.. لا يمكن ألا ينتبه أحد لهذا الجو الكابوسي المريع الذي يجعل روحك تقشعر بين الضلوع.. كانت اللوحة تحوي أشجارا سوداء وسماءها قرمزية حالكة.. لا أستبعد أن يكون الرسام مريضا نفسيا.. حيث يرينا قطعة من ذاته المنذرة بالويل والأهوال.. وكان أكثر ما يثير الاشمئزاز في اللوحة هو تلك المرأة.. امرأة سوداء الشعر ترتدي ثوبا أسودا طويلا تدير ظهرها لنا فلا نستطيع تبين وجهها..

لوحة مرعبة بحق.. بل هي الهول ذاته.. كما أن الطابع العتيق الأثري لها الذي لا تخطئه العين الخبيرة ولا حتى العين غير الخبيرة قد أعطاها جوا كابوسيا رهيبا..

-يا للبشاعة!!.

كذا صحت دون أن أشعر.. فالتفت إلي الدكتور (علي) مبتسما بفخر لا أعرف سببه.. ليحمر وجهي خجلا ويبدو ارتباكي واضحا.. ثم التفت إلى من سأله هذا السؤال ليقول:

- قد تكون بشعة.. لكنها ثمينة للغاية وبالغة القدم.. إذ يعود عمرها لأكثر من 500 عام.. لقد اشتريتها من أوروبا ودفعت ما يقارب النصف مليون جنيه إسترليني ثمنا لها.. إنها لوحة (الغابة السوداء).. ألم تسمع بها من قبل؟!.

هز الضيف رأسه علامة النفي.. لن أعرف أبدا لماذا يهوى الأثرياء جمع تلك الأشياء الغريبة.. فهناك من يشتري الأفاعي النادرة.. وهناك من يقتني التحف ويدفع الملايين للحصول عليها كما يفعل الدكتور (علي).. لقد قرأت العجائب في أحد الكتب التي تتحدث عن الهوايات الغريبة التي يمارسها الأثرياء عادة.. أي فائدة ستعودها عليهم تلك الهوايات؟!.. بالطبع لا شيء سوى قتل وقت الفراغ.

استطرد الدكتور (علي) قائلا بصوت مرتفع كي يسمعه الحضور:

-إن وراء هذه اللوحة قصة مشوقة للغاية.

نظر إلى زوجته بخبث.. ليكمل قائلا:

-هي التي سترويها لكم.. فهي التي طلبت مني شراء اللوحة.. وتعرف قصتها بكل تفاصيلها المهمة.

التفت إليها الجميع باهتمام.. فابتسمت بثقة.. وبشيء من الفخر بدأت تروي قصة اللوحة:

- يعود عمر هذه اللوحة إلى عام 1504م.. حيث كانت هناك مقاطعة هادئة في (فرنسا) يعيش فيها فلاحون بسطاء يحكمهم حاكم طيب متسامح يحبه الجميع.. وكانت توجد على الحدود الغربية للمقاطعة غابة كثيفة قيل أنه تعيش فيها ساحرة اسمها (ناتاشا).. لم ير أحد هذه الساحرة من قبل ولم يعرف الأهالي البسطاء مكان إقامتها.. لكن أسطورتها كانت متداولة بشكل واسع.. خاصة بعد أن اختفى في الغابة 4 من أطفال القرية.. حيث ظن الجميع أن هؤلاء الأطفال قد اختطفتهم الساحرة لتحقيق مآربها المخيفة.. ولم يجرؤ أحد من الأهالي البسطاء على الولوج إلى الغابة للبحث عن الأطفال بعد أن أصبحت بمثابة المنطقة المحرمة التي يخشى الأهالي -وحتى الحاكم نفسه-الولوج بين أشجارها الكثيفة المتشابكة.

صمتت السيدة (موريسا) قليلا لترى تأثير كلامها على وجوهنا.. كنا جميعا مشدودون تماما إلى

القصة.. فابتسمت بفخر وأكملت قائلة:

-وبعد سنوات طويلة توفا حاكم المقاطعة.. ليحكمها ابنه الذي كان رجلا شجاعا باسلا وكاثوليكيا متدينا.. لذا كان أول ما أراد فعله هو تحطيم أسطورة تلك الساحرة.. فالإنجيل واضح وصريح بشأن ممارسة السحر.. والساحر أو الساحرة كما تعلمون ملعونان في كل الأديان السماوية.. لكن لم يكن إقناع الأهالي البسطاء باقتحام الغابة والبحث عن الساحرة بالأمر السهل.. فقد كانت أسطورتها مسيطرة تماما على عقولهم على الرغم من أن أحدا منهم لم يرها في حياته.. وأمام خوف الأهالي ورهبتهم من الأمر برمته.. لم يجد الحاكم الجديد بدا من أن يقوم بجمع عدد كبير من الرجال الأشداء من المقاطعات الأخرى ليقودهم هو بنفسه للولوج إلى الغابة والبحث عن تلك الساحرة وقتلها بأي ثمن.. وهذا ما حدث بالفعل!!.. ففي غضون شهور قليلة تمكن الحاكم من تكوين جيشا صغيرا قوامه أكثر من 60 رجلا للبحث عن الساحرة في الغابة والقبض عليها وإعدامها.. لكن البحث عن مكان إقامتها لم يكن بالأمر الهين.. خاصة في غابة هائلة الحجم كثيفة الأشجار.. فظلوا يبحثون فيها لفترة طويلة وصلت إلى أسبوعين تقريبا.. إلى أن جاء الفرج ووجدوا كوخا صغيرا متواضعا مخفيا وسط الأشجار العملاقة.. فاقتحموه.. وفتشوا كل ركن فيه.. وبدا واضحا لهم من خلال الأوراق التي وجدوها في الكوخ والتي احتوت على رموز غريبة لم يفهموا منها شيئا أن هذا هو المكان المقصود.. كما عثروا على اللوحة التي ترونها أمامكم الآن.

سكتت قليلا لتلتقط أنفاسها وسط صمتنا التام.. ثم أكملت:

-لقد قيل أن الساحرة استطاعت بوسيلة ما أن تحول جسدها بواسطة السحر إلى صورة مرسومة وهي تلك الموجودة في اللوحة!!.. قد يبدو هذا سخيفا.. لكن هذا ما كان يقال بالفعل حول تلك اللوحة بوجود المرأة التي تدير لنا ظهرها.. خاصة بعد اختفاء الساحرة تماما وعدم ظهور أي أثر لها.. ولسبب أجهله.. لم يتخلص أحد من اللوحة.. لتنتقل بعدها إلى الكثير من التجار حتى استقرت في مزرعتنا هذه بعد 500 عام تقريبا.. إنها تحفة أثرية رائعة وإن كانت بشعة المنظر.. وقد أطلق على اللوحة اسم (الغابة السوداء) كما أخبركم زوجي العزيز.

انتهت من حديثها الذي كان باللغة الإنجليزية بالطبع ولم ينته انبهارنا.. لوحة عمرها 500 عام؟!.. قصة مثيرة بالفعل ومخيفة نوعا ما!!.. حتى إن جو الحفل قد بدا لي وأنه تسمم.. خاصة مع هذا الصمت الذي سيطر تماما على المكان.. لكن.. بدأت أجواء المرح تعود بعدها بلحظات.. حيث بدأ المدعوون بالاندماج مرة أخرى والحديث حول أمور بعيدة عن تلك اللوحة.. أحاديث متنوعة لم يكن لي أي دور فيها سوى الاستماع.. ولم يفت الأستاذ (إبراهيم) أن يخبر الدكتور (علي) عني وأنني سأكون طالبا جديدا في كلية الطب.. وأن عليه أن يرعاني وينتبه إلى ذكائي.. خاصة وإنني نابغة أحتاج إلى الاهتمام كي أصبح من أفضل الأطباء.. ليس هذا كلامي.. بل كلامه هو.. وأنا أشكره كثيرا في الواقع.. فشرع الدكتور (علي) بدوره يسألني أسئلة عديدة متعلقة بميولي وهواياتي.. ولماذا أريد أن أصبح طبيبا وما هو الفرع الذي سأجد نفسي فيه.. إلخ.

مر الوقت سريعا.. حتى إنني نظرت إلى ساعتي ووجدتها تتجاوز الحادية عشرة والنصف تقريبا!!.. وبدأ الزوار بالانصراف واحدا تلو الآخر حتى تبقى ستة أشخاص فقط.. أصحاب المزرعة بالطبع وهم مضيفينا الدكتور (علي) وزوجته الفرنسية (موريسا).. الأستاذ (إبراهيم) مدير مدرستنا وزوجته السيدة (أوراد).. وشخصي المتواضع.. بالإضافة إلى رجل أعمال عرفت أن اسمه هو السيد (حامد).. وهو بالمناسبة قصير القامة نسبيا.. يتمتع بصحة هائلة وذو بنية رياضية على الرغم من سنوات عمره التي تجاوزت الـ50 كما بدا لي.. وهو رجل أعزب يرفض تماما فكرة

الزواج.. لأنه يرى في الزواج علاقة متشابكة معقدة هي مزيج من النكد وتحمل المسؤولية!!.. فعادة ترى المرأة أن الرجل كاذب كبير يتصنع الرقة.. في حين يراها هو سخيفة تافهة لا هدف لها في الحياة.. إن الرجل والمرأة -والكلام للسيد (حامد) أيضا-لا يكشفان عن نفسيهما إلا بعد الزواج بفترة قصيرة.. حيث تختفي كل مظاهر الحب والرقة التي كانا يعيشانها بداية زواجهما.. فلا نرى الرجل يفعل ما يفعلونه في السينما حين يضع البطل الجاكيت على كتف زوجته خوفا عليها من البرد.. بل هو في الواقع يتمنى لها أن تبرد وتموت ويستريح منها ويعود لحياة العزاب التي تبدو له أمنية يدفع من أجلها نصف عمره.. ولا نرى المرأة رقيقة حساسة كما كانت قبل الزواج.. بل تصبح مجرد كتلة من الشحم واللحم حتى تكاد لا تصدق أنها نفس الفتاة التي أحببتها وتزوجتها.

هذه هي الخلطة البشرية الموجودة في تلك المزرعة الهائلة.. وما دمت أنا معهم.. فلك أن تتوقع مصيبة ما.. والواقع إن ما سيحدث ليس بمصيبة.. بل شيء آخر سيغير مجرى حياتي.. ذلك المجرى الذي أصبح يتغير أكثر من اللازم مؤخرا.. لكن.. دعونا لا نستبق الأحداث.

جلسنا جميعا في صالة الاستقبال وباسترخاء أكبر.. خاصة بعد أن أصبح المكان هادئا برحيل الزوار.. مرت ساعة تحدثنا فيها حول أمور متفرقة وقد بدأت أشعر بالملل والنعاس.. المشكلة أن الأستاذ (إبراهيم) يرى أنه من أعز وأفضل أصدقاء الدكتور (علي).. لذا يظن أن من حقه المكوث ليكون آخر الخارجين ولقضاء أطول وقت ممكن مع صديق العمر.. خاصة وأن مشاغل الدنيا تجعل من لقاءات كهذه فرصا قليلة جدا.. وأعتقد أن الأمر نفسه ينطبق على رجل الأعمال السيد (حامد) الذي بقي أيضا.

كان كل شيء يوحي بأن السهرة اقتربت من نهايتها.. إلا أن السيدة (موريسا) استأذنتنا للذهاب إلى المطبخ لجلب بعض أكواب العصير لأنها -كما أخبرتنا-صرفت جميع الخدم الذين أنهكهم التعب على أن يعودوا جميعا في الغد للتنظيف.. و.. بعد ذهابها إلى المطبخ بدقيقتين على الأكثر.. حدث شيء لم يتوقعه أحد على الإطلاق.. إذ انقطع التيار الكهربائي ليحل علينا الظلام فجأة!!.. فشهقت السيدة (أوراد) فزعا.. لينهض مضيفنا الدكتور (علي) من مكانه وهو يضحك بطريقة توحي أن كل شيء تحت سيطرته.. وراح ينادى زوجته بصوت مرتفع كي تسمعه وهي في المطبخ:

-(موريسا).. أرجو أن تجلبي لنا بعض الشموع.

سمعناها ترد بصوت متوتر وقد بدا واضحا أنها تخشى الظلام:

-هذا ما أفعله.

ثم أردف الدكتور (علي) بمرح مصطنع محاولا تلطيف الجو:

-لحسن الحظ أن هذا قد حدث بعد أن رحلوا جميعا.. أما أنتم فلستم أغرابا ولن أشعر بالخجل أمامكم.

همهموا بكلمات الشكر.. لم تكن هناك أي أضواء قادمة من أي مكان خارج البيت.. فهو يقع وسط مزرعة كبيرة كما علمتم.. وتبعد عنا أقرب مزرعة مسافة بعيدة نسبيا.. لذا كان الظلام دامسا.. والحقيقة أنني كنت أشعر بالتوتر بعض الشيء.. فأنا -وعلى الرغم وجود الصحبة الآدمية- أخشى الظلام.. أخشاه بشدة منذ قصتي الكابوسية إياها مع تحضير الأرواح.

-هل نذهب للتأكد من صندوق الكهرباء؟!.

قالها الأستاذ (إبراهيم) مستفسرا.. ليرد عليه الدكتور (علي) بحرج:

-لا عليك.. إن أشياء كهذه تحدث.. سأذهب أنا على كل حال.. سأستخدم قداحتي.. لقد نسيت أن أشعلها حتى أبدد بعضا من هذا الظلام.

وبالفعل أشعل قداحته ونهض ليطمئن على صندوق الكهرباء في الطابق العلوي.. لم يغب أكثر من 5 دقائق على الأكثر.. قبل أن نسمع صراخا رهيبا..

-أنقذووووووني.. آآآآآآآآه!!!!.

كان هذا صراخ الدكتور (علي) قادما من الطابق العلوي.. تجمدت الدماء في عروقنا.. وسمعنا بعدها بثوان صوت زوجته تنادي من المطبخ بهلع:

-ما الذي يجري هنا؟!.. أرجوكم تعالوا إلي.. لا تتركوني وحدي!!.

كان واضحا أن صراخ الدكتور (علي) والظلام الشديد أصابها بذعر هائل.. حتى أصبحت لا تجرؤ على أن تأتي بنفسها وتريد من يأتي إليها ليصطحبها إلى صالة الاستقبال.

صعقنا لثوان مما يحدث حتى أننا تجمدنا بدورنا في مكاننا ونحن نشعر بارتباك شديد عاجزين عن اتخاذ أي رد فعل.. لكن الأستاذ (إبراهيم) كان أول من تدارك الوضع وتحرك.. فقد هب من مكانه مسرعا معتمدا على صوت السيدة (موريسا) حتى يعرف مكان المطبخ ليذهب ويأتي بها إلى صالة الاستقبال.. وكان في نفس الوقت ينادي الدكتور (علي) أيضا كي يعرف مكانه وسبب صراخه.. لكن هذا الأخير لم يرد على الإطلاق.. وبالطبع فإن هذا قد سبب له ارتباكا وخوفا شديدين على صديقه وعلى ما يجري.. فاصطدم بقطعة من الأثاث في طريقه إلى مكاننا.. حتى إنني سمعته يطلق سبابا ناسيا كل قواعد اللياقة.. وبعد لحظات بدت لنا دهرا.. سمعنا صوته قادما مع السيدة (موريسا) وهي تسألنا بفزع وبصوت باك:

-ما الذي حدث لزوجي؟!.. لماذا كان يصرخ؟!.. لنذهب إليه.. ماذا ننتظر؟!.

رد عليها السيد (حامد) بتوتر:

-لا نعرف أين نبحث عنه في الطابق العلوي.. فالبيت كما هو واضح كبير ومليء بالغرف.. والظلام دامس!!.

صاح الأستاذ (إبراهيم) بشيء من الحدة:

-لن يكون الظلام مشكلة.. ستعتاده أعيننا سريعا.. لنذهب أنا وأنت للبحث عن الدكتور (علي) يا سيد (حامد).

ترك الأستاذ (إبراهيم) السيدة (موريسا) مع زوجته ونهض مع السيد (حامد) للبحث عن الدكتور مستعينين بجهاز إشعال البوتاجاز الذي لم تنتبه إليه السيدة (موريسا) إلا بعد أن سألناها عنه.. وهذا ليس غباء منها بالطبع.. فكل إنسان معرض لأن ينسى في ظروف كهذه.. خاصة حين يسمع أقرب أقربائه وهو يصرخ بهذه الصورة التي أفزعت الجميع.

غاب الأستاذ (إبراهيم) والسيد (حامد) بعض الوقت ونحن غارقون في ظلام اعتادته أعيننا نوعا ما.. ليعودا بعد دقائق بدت لنا دهرا.. والتوتر باديا على وجهيهما رغم نور مشعل البوتاجاز الخافت.. كنا نخشى سماع خبر وفاة الدكتور (علي) صراحة بسبب مس كهربائي أو ما شابه.. بل وهذا ما قالته السيدة (أوراد) بصوت مرتجف.. لكن السيد (حامد) فجر قنبلة لم نتوقعها إطلاقا عندما قال بحنق:

-لم نجده على الإطلاق.. لقد اختفى!!.

صاحت السيدة (موريسا) بهلع حقيقي:

-كيف؟!.. كيف اختفى؟!.. وإلى أين ذهب؟!.. لا يمكن أن يذهب لأي مكان بعد صراخه هذا.. ولماذا كان يصرخ أصلا؟!.. فمن يصاب بمس كهربائي يصرخ بطريقة تختلف تماما عن صراخ زوجي الذي طلب منا أن ننقذه.. ولو سلمنا بأن مسا كهربائيا قد أصابه لرأيتماه مستلقيا على الأرض بلا نفس.. أما أن يختفي فهذا أمر أمريب غير مفهوم.

والواقع أن كلامها صحيح تماما.. كذا قلت في سري.. كيف يختفي الدكتور (علي) بعد سماعنا لصراخه؟!.. ولماذا؟!.. وأين ذهب؟!.. هل هو حي؟!.. هل هو مصاب؟!.. لا أدري.. اللعنة.. إنه أمر محير فعلا.

ظللنا في هذا الوضع بعض الوقت مصدومين مشدوهين في حالة رعب.. وكان التوتر يسيطر علينا تماما.. حتى السيدة (موريسا) دفنت وجهها في راحة كفيها وهي تهتز بقوة من شدة الانفعال والقلق على زوجها.. في حين رأيت السيدة (أوراد) ملتصقة تماما بزوجها وكأنها تستمد منه الأمان وعلامات القلق بادية على كل خلجة من وجهها.. أرى ساق السيد (حامد) اليسرى تهتز بوضوح.. والتوتر يسيطر عليه.. أما الأستاذ (إبراهيم) فكان أكثرنا تماسكا.. إذ رأيته جالسا يفكر بعمق محاولا فهم ما يجري.

ثم.. دقائق قليلة حين سمعنا فجأة أصواتا هائلة جعلتنا نثب كالقرود من على مقاعدنا.. حرك الأستاذ (إبراهيم) المشعل الصغير بيده لنرى ما يحدث حولنا.. وهنا رأينا شيئا مهولا لم أكن لأصدقه لولا أن شاهدته بنفسي!!..

صحت بالجميع بهلع:

-أنظروا!!.. قضبانا حديدية أقفلت على الأبواب والنوافذ!!.

لم يكن هناك داع لإخبارهم بهذه الملاحظة الغبية.. فقد شاهدوا جميعا ما حدث.. لكنه التوتر والانفعال الزائد الذي يجعل من يرى حادث سيارة يصرخ ويقول ببلاهة: ((انظروا.. حادث سيارة!!)).

كان ما حدث يفوق الاحتمال.. حتى إننا وقفنا مشدوهين وقد التصقنا لا شعوريا ببعضنا من شدة الرعب ونحن نرمق ما يحدث بذهول ما بعده ذهول.. هنا صاح السيد (حامد) بعصبية شديدة وهو يهرع مسرعا ناحية الهاتف:

-سأطلب الشرطة.. إن الأمر يفوق الاحتمال.

لكن -بالطبع- تبين أن خط الهاتف مقطوع.. أما بالنسبة للهواتف المحمولة فقد كانت جميعها خارج منطقة التغطية.. حتى إن السيدة (أوراد) قالت بحيرة شديدة:

-هذا مستحيل.. من المفترض أن تعمل الهواتف النقالة.. إن منطقة (الوفرة) ليست خارج نطاق التغطية!!.

عاد السيد (حامد) وجلس على مقعده كاتما غيظه أو ربما خوفه.. كنا في أسوأ حال ممكن.. والخواطر والأفكار تصطرع في أذهاننا بسبب ما يحدث.. أشعر بأننا نبحر في ليلة مظلمة دون أي وسيلة للإنارة.. فلا نرى أمامنا وقد نصطدم بأي شيء في أي لحظة ونغرق.. تخيل أن يكون

شعورك كهذا.. دعكم من أننا منقطعين تماما عن العالم الخارجي.. فحتى لو صرخنا لما سمعنا أحد هنا.

وجدت نفسي بعد هذه الخواطر السوداء أسأل نفسي بعصبية وبصوت مسموع من دون قصد:

-ما الذي يجري هنا بالضبط؟!!.

قال السيد (حامد) وكأنه تذكر شيئا:

-مهلا.. سيفتقدنا ذوينا وسيتصل أحدهم بالشرطة لا ريب.

قلت وأنا أحاول أن أستجمع أفكاري وأسيطر على أعصابي:

- لا أعتقد أن من قام باحتجازنا هنا سينتظر ذلك!!.. هذا هو التفسير الوحيد لوجود هذه القضبان الحديدية التي هبطت فجأة قبل قليل.. وأراهن بأن التيار الكهربائي قد قطع بفعل فاعل.

صمتوا جميعا.. إن كلامي منطقي تماما ولا يحتاج لذكاء.. لكن الأستاذ (إبراهيم) صاح فجأة وكأنه تذكر شيئا هاما:

-لقد نسينا أمر الدكتور (علي) تماما.. يجب أن نبحث عنه مرة أخرى.. قد يكون في خطر.. لقد كان صراخه مخيفا.. وكأن أحدهم كان يحاول ق... أ.. أعني.. يجب أن نبحث عنه مرة أخرى..

لم يشأ أن يقول أن الدكتور (علي) كان يصرخ وكأن أحدهم يحاول قتله.. فقد تذكر أن زوجة الدكتور تجلس معنا.. ثم أكمل حديثه بحذر:

-لن أدع أحد أقرب أصدقائي في ظرف كهذا.. إنني أعرف الدكتور منذ عقود من الزمن.. ولم أسمعه قط يصرخ بهذه الصورة.

صرخت السيدة (موريسا) فينا جميعا مفرغة كل انفعالاتها:

-فلنبحث عنه مرة أخرى إذن.. ماذا ننتظر؟!.

نظرنا إليها جميعا بإشفاق شديد.. ثم سألها السيد (حامد) بحيرة وشحوب وجهها قد بلغ مبلغا:

-وما أدرانا أنه لا يزال في البيت؟!.

صمتنا جميعا.. كل شيء محير مربك بالفعل.. أشعر أن يدا خفية تعبث بنا.. ولكن.. تذكرت شيئا هاما فسألت السيدة (موريسا):

-كم عدد مخارج الفيلا؟!.. وكم عدد الغرف؟!.

قالت وهي تحاول أن تحصي عدد الغرف:

- هناك مخرجين للفيلا.. أحدهما موجود في المطبخ.. والآخر هو البوابة الرئيسية التي دخلتم جميعا منها.. أما بالنسبة للغرف فأعتقد أن الفيلا تحوي 9 غرف.. مع 7 حمامات.. بالإضافة إلى مطبخين.. وهناك بالطبع غرفة الخدم.. وغرفة السائق.. و...

سألتها مقاطعا:

-وأين هم الخدم مع السائق؟!

قالت بنفاد صبر:

-أخبرتكم قبل قليل بأنني أرسلتهم جميعا إلى البيت على أن يعودوا غدا بعد الظهر للتنظيف.. فلا أحد يقيم هنا سوى حارس المزرعة.. وقد أعطيته اليوم إجازة.. فلم يكن هناك داع لوجوده.. أعتقد أنه ذهب ليقضي الليلة مع أصدقائه وسيعود غدا بعد الظهر.

صاح (حامد) بغضب:

-ما هذا النحس؟!.. إما أنه نحس.. أو أن الجميع قد تآمروا على وضعنا في هذا المأزق!!.

قلت محاولا فك خيوط هذا اللغز المتشابكة:

-لو كان هناك مخرجان للبيت فقط.. فهذا يعني أن الدكتور (علي) ما زال موجودا في الفيلا.. فلكي يخرج من هنا.. يجب عليه أن يمر من الصالة الرئيسية التي نجلس فيها الآن.. نحن جالسون هنا منذ اختفائه.. ولم نره يغادر المكان.

صاح الأستاذ (إبراهيم) بحماس منفعل وهو يقول:

-لنبحث عنه مرة أخرى إذا.. سنبحث في كل ركن من الفيلا هذه المرة.. سأذهب أنا مع الأستاذ (حامد).. وسيبحث كل منا منفردا اختصارا للوقت.. فالمكان كبير جدا.

هنا قالت السيدة (موريسا) بحدة:

-لن أجلس وحدي هنا!!.

رد الأستاذ (إبراهيم) مطمئنا:

-سيكون معك (خالد) وزوجتي.. فلا خوف عليكم.

قالت بعصبية سببها توتر الموقف:

-لا أقصد أنني أخشى المكوث هنا.. بل أريد البحث عن زوجي.. لن أجلس هنا في حين لا يعلم سوى الله ما الذي جرى له.

نظر إليها السيد (حامد) قليلا ثم قال باستسلام:

-حسنا.. تعالي معنا لو أردت.

نهضت لتصحب السيد (حامد) للبحث عن زوجها.. في حين ذهب الأستاذ (إبراهيم) وحده إلى ناحية أخرى من الدور العلوي.. أما أنا فقد مكثت مع السيدة (أوراد) التي كانت متكورة حول نفسها من شدة الخوف والتوتر.. أعيننا اعتادت الظلام تماما وقد مضى علينا أكثر من ساعة في هذا الجو المشحون منذ انقطاع التيار الكهربائي واختفاء الدكتور (علي).

شعرت بأنني يجب أن أفعل شيئا بدلا من جلوسي هكذا دون هدف.. فنهضت لأجلس بقرب السيدة (أوراد).. وقلت لها محاولا بث الاطمئنان على روحها:

-لا تخشي شيئا يا سيدتي.. سنجد الدكتور (علي) بإذن الله.. وبعدها سنجد وسيلة للخروج من هنا.

سألتني بشرود:

-كيف؟

-من المؤكد أن ذوينا سيفتقدوننا وسيتصلون بالشرطة.

-وماذا عن من ينوي إبقاءنا هنا لغرض في نفسه؟!.. ألم تقل ذلك قبل قليل؟!.. ألا يثير هذا قلقك؟!.

خرست تماما.. فهذا ما أظنه بالفعل.. أشعر أن شيئا غير عادي يحدث هنا.. وأن هناك من يعبث بنا لسبب ما زلت أجهله.. وأن...

-النجداااااااااااااااااااااااااااااااه

كان هذا صوت السيدة (موريسا) قادما من الطابق العلوي.. تلاه صوت السيد (حامد) وهو الآخر يصرخ وكأن شياطين الدنيا تطارده:

-النجداااااااااااااه.. أنقذووووووووووني.. آآآآآآآآآآه..

وصوت أشياء تتحطم!!.

تجمد الدم في عروقنا.. وسمعنا الأستاذ (إبراهيم) وهو يصرخ من الطابق العلوي وصوته يتعالى ثم ينخفض بما يوحي أنه يدخل الغرف واحدة تلو الأخرى كي يبحث عنهما:

-ما الذي يجري هنا.. أين أنتم؟!.

تمالكت نفسي وصحت بالسيدة (أوراد):

-يجب أن نصعد إليهم لنرى ما يحدث.

لم تقل شيئا.. ولكن رد فعلها كان عمليا جدا.. فقد نهضت مسرعة مستندة إلى ذراعي.. ويظهر أن خوفها على زوجها الموجود في الطابق العلوي تغلب على خوفها من هذا الجو المخيف السائد في المكان.. فهرعنا إلى الطابق العلوي دون أن نصطدم بشيء بعد أن اعتادت أعيننا الظلام كما علمتم.. لنجد الأستاذ (إبراهيم) واقفا بوجوم بجانب إحدى الغرف.

ارتمت زوجته في حضنه وهي تنتحب قائلة:

-الحمدلله أنك بخير.. الحمدلله.. ما الذي يجري في هذا المكان اللعين؟!.. ما الذي يجري؟!!.

لم يرد عليها واكتفى باحتضانها لإشعارها بالأمان.. بينما وقفت أنا عاجزا عن التفكير للحظة.. ثم ذهبت إلى الغرفة لأستوضح ما رآه الأستاذ (إبراهيم).. فما رآه على الأرجح هو الذي جعله يقف واجما هكذا.. لكن:

-لا تنظر.

قالها لي بصرامة.. وكان هذا وكأنه أمر مباشر كي أنظر.. لذا دخلت الغرفة.. وإذ ب(موريسا) ملقية على الأرض.. فـشهقت بقوة.. ولكن الأستاذ (إبراهيم) أخرسني بإشارة من يده ليقول:

-إنها فاقدة الوعي فحسب.

أنظر حولي بحثا عن السيد (حامد).. لكني لم أجده.. لقد اختفى تماما!!.. دخلنا الغرفة جميعا للتأكد مما إذا كانت السيدة (موريسا) بخير.. حاولنا إنعاشها.. لتستيقظ بعدها بثوان وقد احتاجت للحظات كي تعرف أين هي وتستوعب ما حدث لها.. ثم استدركت كل شيء وشرعت تتحدث بتوتر وتتلفت يمينا ويسارا وهي تقول:

-لقد رأيت شيئا مهولا سبب لي رعبا ما بعده رعب!!.. امرأة طويلة الشعر ترتدي رداء أسودا

فضفاضا هاجمتنا بخفة وسرعة متناهية وبيدها سكين كبيرة الحجم!!!.. لم أتبين ملامحها.. فقد كان شعرها الطويل يغطي الكثير من ملامح وجهها.

صمتت قليلا وكأنها تحاول أن تعب أكبر قدر ممكن من الهواء في جوفها.. لتكمل قائلة:

-لقد اتجهت تلك المرأة مباشرة إلى السيد (حامد) الذي تجمد في مكانه من هول الرعب.. ولم تعطه لحظة واحدة ليفكر بما يحدث.. بل قامت بسرعة متناهية بطعنه بوحشية عدة طعنات وهو يصرخ بهلع لا حدود له!!.

أضافت وهي تبكي بحرقة:

-لقد أغمى علي من هول ما رأيت.. فقد شاهدت السيد (حامد) وهو يذبح أمامي.. كان مشهدا رهيبا لا يوصف!!.

دفنت وجهها بين كفيها وهي تنتحب.. فاقتربت منها السيدة (أوراد) وأحاطتها بذراعها محاولة تهدئتها.. وإن كانت هي نفسها بحاجة لذلك.. ثم قامت السيدة (موريسا) في هستيريا مفاجئة تسب الظروف التي جعلتها تعيش هذا الجو المرعب.. ثم تسبنا نحن لأننا...!!!.. لا أدري بالضبط ما ذنبنا في الموضوع لكنها رأت أن لنا دورا ما لا تعرف كنهه ويستحق التوبيخ.. ربما لأنها كانت تفضل أن نكون نحن في مكان زوجها.

وبعد دقائق من النحيب سألتهم بتعجب سؤالا بالغ الأهمية:

-أين ذهبت جثة السيد (حامد) إن كان قد قتل بهذه الطريقة البشعة؟!.

لم يجب أحد على سؤالي.. فالإجابة واضحة.. من قتله قد أخذ جثته دون شك.. ولكن.. لا تزال هناك نقاط كثيرة تحتاج إلى توضيح كما لا بد أنكم قد لاحظتم.. فحتى لو قتله أحدهم وأخذ جثته!!.. فإلى أين أخذها.. وأين ذهب القاتل.. أو القاتلة على سبيل الدقة؟!.. ظللت أفكر بصمت حتى إنني شعرت بأنه لا بد من لملمة شتاتنا.. لذا قلت لهم بحزم:

-أعتقد أن علينا الجلوس قليلا والسيطرة على أعصابنا.. هناك بعض الأمور التي تحتاج إلى تفكير!!.

لم يعترض أحد.. بل استجابوا تماما بعد أن شعروا أن علينا فعل ذلك حقا حتى نعرف ما يجري هنا ولنجد مخرجا من هذه المزرعة اللعينة.. نزلنا جميعا إلى صالة الاستقبال.. ثم جلسنا وسط صمت مطبق وكل منا غارق تماما في أفكاره.. قبل أن أسألهم محاولا كشف شيئا من الغموض المحيط بنا:

-هل لاحظ أي منكم شيئا غير عادي وقت الحفلة؟!.

بدا لي السؤال سخيفا مبتذلا يردده رجال الشرطة في كل فيلم وكل مسلسل.. لكن لحسن الحظ لم يهتم أحد لهذا.. بل وعلى عكس ما توقعت.. وجدت الأستاذ (إبراهيم) يضرب رأسه بكفه وكأنه قد نسي شيئا هاما:

-اللعنة.. كيف نسيت هذا.. إنه توتر الأعصاب دون شك.. لقد حدث شيئا ظننته عاديا في البداية.. لكني أراه الآن يثير الريبة بالفعل.. ليس في وقت الحفل.. ولكن قبل ذلك.. فعندما اتصل بي الدكتور (علي) ليدعوني إلى الحفل.. كان قد طلب مني أن أبقى إلى نهاية الحفل ولا أخرج قبل أن يتحدث إلي.. وقال إن الأمر هام جدا!!.

سكت قليلا.. ثم أردف وكأنه يحاول التذكر:

-والغريب أن السيد (حامد) وهو صديق قديم أيضا كما تعلمون.. أخبرني أثناء الحفل أن الدكتور (علي) قد طلب منه نفس الطلب!!!.. ما زلت أجهل إن كان الدكتور (علي) يريد التحدث إلى كل منا على انفراد.. أم أن هناك موضوعا مشتركا بيننا.

سألته السيدة (أوراد):

-وما علاقة ذلك بما يحدث؟!.

مط شفتيه وهو يقول:

-أحاول فقط معرفة ما إذا كان هناك شيئا غير عادي.

ثم التفت إلى السيدة (موريسا) التي كانت في أسوأ حال ليسألها:

-وماذا عنك؟!.. ألم تلحظي شيئا غير عادي أثناء الحفل.. أو قبل ذلك؟!.

ردت عليه بصوت باك:

- كان كل شيء يسير بأفضل صورة.. وأنت تعرف زوجي.. إنه إنسان طيب القلب يحبه كل من يتعامل معه.. لا أعتقد أن له أعداء.. أو فلنقل أن لا أحد يكرهه إلى درجة القتل.

سألتها بتعجب:

-لماذا تظنين أنه قتل؟!.

قالت بعد تردد شديد:

-أ.. أ.. أرجو ألا تسخروا مني.. سأخبركم بما لم أخبركم به منذ البداية.. قد تظنوني أخرف بفعل الظلام والخوف والتوتر الذي نعيشه جميعا الآن.. حسناً.. أعتقد أن الأمر يتعلق باللوحة.

سألها الأستاذ (إبراهيم) في حيرة:

-أي لوحة؟!.

ردت عليه بعصبية:

-لوحة (الغابة السوداء) الأثرية التي أخبرتكم عن تاريخها وما يحاك حولها من أساطير.. لقد أخفيت عنكم بعض الأمور المتعلقة بها لأنني أنا نفسي لم أكن أصدق شيئا منها!!.

ثم صمتت وهي تلتقط أنفاسها.. وقالت وكأنها ستلقي علينا قصة:

- قبل 400 عام اشترى تلك اللوحة أحد الأثرياء الإنجليز من هواة جمع اللوحات الفنية القديمة.. وقد كان عمر اللوحة في ذلك الوقت مائة عام.. لكن بعد أيام قليلة.. وجد الثري مع أفراد أسرته جميعا مقتولين وقد امتصت كمية كبيرة من دمائهم!!.. وكانت هذه الجريمة حديث الساعة في ذلك الوقت بسبب بشاعتها وغرابتها.. وحشد المسؤولون جهودهم لكشف الجاني.. لكنهم لم يعثروا عليه على الإطلاق.. وظلت اللوحة تباع وتشترى في مزادات علنية إلى أن انتقلت بعد الحادثة الأولى بمائة عام إلى تاجر فرنسي.. ليعيد التاريخ نفسه!!.. ويقتل التاجر وجميع أفراد أسرته في ظروف غامضة جدا.. وتكرر الأمر بعدها بمائة عام أخرى أيضاً مع عائلة ثرية اشترت اللوحة.. حيث وجد جميع أفرادها البالغ عددهم 7 أشخاص قتلى وقد امتصت كمية هائلة من

دمائهم!!.. عندها فقط قام أحد الباحثين بدراسة كل ما يتعلق بلوحة (الغابة السوداء).. فانتبه إلى نقطة بالغة الأهمية.. لقد لاحظ الباحث أنه وفي كل مائة عام منذ اكتشاف وجود اللوحة.. يقتل كل من يقتنيها في ظروف غامضة وتمتص كميات كبيرة من دمائهم لسبب مجهول.. الأمر الذي جعل ذلك الباحث يقوم بدراسة شاملة حول تاريخ اللوحة ويكتشف القصة التي أخبرتكم بها أثناء الحفل.. لقد قيل أن الساحرة (ناتاشا) -وكما ذكرت لكم في الحفل- قد استطاعت بوسيلة ما أن تحول جسدها بواسطة السحر إلى صورة مرسومة وهي تلك الموجودة في اللوحة.. وأنها تخرج كل مائة عام لتقتل من يقتني اللوحة لأسباب مجهولة وتسرق دمائهم.. المصيبة أن اليوم يصادف المائة عام الخامسة منذ تاريخ اكتشاف اللوحة!!.

سكتت للحظة ثم أردفت قائلة بعصبية وتوتر بالغين ونحن نستمع إليها بذهول وخوف لا حد لهما:

-بالطبع ستقولون أن كل هذا محض هراء.. ولكنني أقول لكم إن كل الأديان السماوية أكدت وجود السحر.. وعالم السحر ليس له أي مقاييس وأنتم تعلمون ذلك جيدا.. فلا يوجد ما يمنع أن يستغل ساحر أو ساحرة سحرهم لبلوغ هدف كهذا.. لم أصدق هذا الكلام حين سمعته أول مرة.. لكن بعد ما رأيت وبعد كل ما حدث.. أجد نفسي مضطرة لتصديق هذه القصة العجيبة المخيفة.

انتهت السيدة (موريسا) من كلامها.. وبالطبع كان حالنا مزريا.. فقد شحب وجه السيدة (أوراد) تماما.. في حين ارتعدت فرائص المدير.. وكان واضحا أنه يرتجف بقوة وإن حاول أن يخفي ذلك.. أما أنا فقد شحب وجهي حتى ليخيل إلي أنني سأموت في أي لحظة من تلقاء نفسي دون أن يمسني أحد!!.

لحظات طويلة من الصمت المهيب لم ينبس فيها أحد ببنت شفة.. إلى أن قطعت حبل الصمت فجأة وقلت:

-لا أعرف مدى حقيقة تلك القصة.. لكن الأمر المؤكد هو وجود شخص ما في البيت شاهدته السيدة (موريسا).. و...

لم أكمل كلامي.. فقد جال بذهني خاطر مروع.. سألت السيدة (موريسا) بحذر:

-هل أنت واثقة أن الذي طعن السيد (حامد) هو امرأة غريبة الهيئة متشحة بالسواد!!.

هزت رأسها بالإيجاب.. فقلت بتركيز شديد:

-لو كان ما قلتيه صحيحا عن اللوحة وعن المرأة التي قتلت السيد (حامد) طعنا فإن...

لم أكمل كلامي.. بل نهضت مسرعا إلى ركن البيت حيث لوحة (الغابة السوداء) معلقة على الحائط.. إذ لم تكن اللوحة مرئية من مكان جلوسنا.. كنت أتمنى ألا أرى ما أتوقعه.. و...

-يا للهوووووول!!.

صرخت بقوة وقد سرت في جسدي قشعريرة غزت عمودي الفقري.. وأصبت بشلل لحظي من هول الصدمة.. حتى صرت غير قادر على الوقوف!!.. فهرعوا جميعا ليعرفوا سبب صدمتي.. و.. شهقوا بدورهم.. بل صرخوا جميعا في آن واحد.. حتى إن السيدة (أوراد) وقعت على الأرض.. لم تقو ساقاها على حملها بعد ما رأت.. فجلست مصدومة وهي تحدق في اللوحة ببلاهة.. أما السيدة (موريسا) فقد شرعت تصرخ بجنون وهستيريا.. في حين وضع الأستاذ (إبراهيم) يده على

فمه كالنساء مانعا نفسه من الصراخ!!.

كان مشهدا رهيبا لا يوصف.. لقد رأينا لوحة (الغابة السوداء) بكل تفاصيلها سوى أهم جزء منها.. نعم.. لم يكن هناك وجود للمرأة ذات الشعر الأسود الطويل التي تدير ظهرها لنا!!.. كان هذا كافيا لإصابتنا بالجنون.. حتى إنني رحت أردد كالمجنون بالفعل دون أن أستطيع التوقف:

-ستقتلنا.. ستقتلنا.. إنه يومها.. لن ترتاح قبل أن تقتلنا جميعا!!!.. قام الأستاذ (إبراهيم) الذي كان واضحا أنه يبذل جهدا خرافيا للحفاظ على تماسكه بتهدئة السيدة (موريسا).. فكان يربت على كتفها مطمئنا وهو يحتضن زوجته بقوة.

هذا لا يصدق.. لا يصدق!!.. هل من المعقول أن تخرج ساحرة من لوحة كل مائة عام وتقتل وتسفك الدماء؟!.. لا أعرف حدود السحر.. لكن هل من الممكن أن يستغل أحدهم السحر لفعل شيء كهذا؟!.. كنت أشك في البداية بمدى مصداقية القصة.. وظننتها واحدة من الأساطير التي يتناقلها الناس لا أكثر.. لكني فكرت قليلا وقلت لنفسي: لو كانت الساحرة (ناتاشا) تخرج من لوحة (الغابة السوداء) كل مائة عام لتقتل وتسفك الدماء كما يقال.. فهذا يعني أنها الآن موجودة بيننا لتقتلنا طالما أن اليوم يصادف الذكرى الـ500 من تاريخ اكتشاف اللوحة!!.. وقد كان توقعي صحيحا!!!.

عقلي يعمل بسرعة.. أفكر كالمجنون إن صح التعبير.. لا أدري لماذا أشعر أن هناك أمرا غير عادي في كل هذا وأن الأمور ليست كما تبدو.. هناك نقطة بالغة الأهمية لم ننتبه إليها حتى الآن.. قال الأستاذ (إبراهيم) بحزم:

- يجب أن نكون نحن الأربعة في مكان واحد.. وألا نترك بعضنا أبدا.. فطالما نحن في جماعة سنكون بمأمن.

قالت زوجته وهي تجفف دموعها وتهز رأسها موافقة:

-ولكن متى سنجد مخرجا من هذا البيت الملعون؟!.. لو ظللنا هكذا لساعة أخرى فسأجن.. إن ما حدث يكفي ليثري كوابيسي إلى الأبد!!.

يا للنساء.. مهما كانت الظروف.. فلا يمكن أن يتغيرن.. الاستياء يبدو واضحا على وجه (موريسا) لأن السيدة (أوراد) وصفت المكان بأنه ملعون.. ولكن من يلومها على ذلك؟!.

ساد الصمت للحظات وكل منا ينظر إلى الأرض بقلق وتوتر وترقب وقد كاد الظلام أن يصيبنا بالجنون.. فضوء المشعل البسيط لا يكفي لإنارة المكان.. دعك من أن كل واحد منا كان يمسك به دوريا لأن الإمساك بذلك المشعل أمر ممل جدا.. خاصة وأنك تضطر أن تظل ضاغطا على زر الإشعال وأن تكون حذرا ألا تحرق شيئا.. وهناك الحر الشديد بسبب انقطاع التيار الكهربائي وتوقف جهاز التكييف عن العمل.. فحجاب السيدة (أوراد) التصق برأسها بسبب العرق الذي يغمرها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.. كما أنها خلعت حذاءها ذو الكعب المرتفع.. فلا الوقت ولا المزاج يسمحان لها كي تبدو أنيقة.. وينطبق الأمر علي أنا والأستاذ (إبراهيم).. حيث خلعنا جاكيت بذلاتنا مع ربطات العنق.. ورفعنا أكمام قمصاننا.. أما السيدة (موريسا) فقد كانت أسوأنا حالا.. لا تنسوا أنها فرنسية لم تعتد على هذا الجو الحار الذي يكاد أن يسبب لها اختناقا.

كنت أنا من يمسك بالمشعل الصغير هذه المرة.. وكنت أنا من قال بنفاد صبر:

-لا بد من عمل شيء.. لا يمكننا الانتظار هكذا دون هدف.. إننا في مأزق حقيقي.. ولن يبدأ أحد

بالبحث عنا إلا بعد ساعات من الآن.. ويعلم الله ما قد يحدث في تلك الساعات القادمة.. كما أن هناك نقطة محيرة في كل ما يحدث.. أمر غريب جدا.. عضضت شفتي في غيظ وأنا أقول:

-ليتني أتذكر!!.

قالت (موريسا) بعصبية:

-إن هذا الظلام يكاد يصيبني بالجنون.. فلا يوجد لدينا سوى مشعل البوتاجاز هذا.. لنبحث عن شموع.. قد تكون هناك شموع في مكان ما هنا.. أو بطاريات.. إن الأمر يستحق البحث.

لقد قرأت أفكاري.. فهذا بالفعل ما كنت أشعر به!!.. قالت السيدة (أوراد) مؤمنة على كلامها وهي لا تزال ملتصقة بزوجها:

-هذا حق.. ولكن.. نذهب معا.. أو لا نذهب.

صمت زوجها قليلا قبل أن ينهض بحزم ويقول:

-لنذهب معا.

وهكذا نهضنا جميعا وحواسنا متوترة ومتحفزة لأقصى حد.. كنا ملتصقين ببعضنا متناسين كل قواعد اللياقة.. فها أنذا أمسك بكف السيدة (أوراد) في حين أحاط زوجها كتفيها بذراعه.. أما السيدة (موريسا) فكانت تمسك بكف الأستاذ (إبراهيم).. ولو كانوا يقولون لا حياء في الدين.. ولا حياء في العلم.. فأنا أضيف وأقول: لا حياء في الرعب!!.

بحثنا في كل مكان.. وفي كل غرفة.. إلى أن وصلنا إلى إحدى الغرف حيث يوجد دولاب كبير جدا يحتل حائطا كاملا.. كان واضحا أن الغرفة عبارة عن مخزن أو شيء من هذا القبيل.. فتحنا باب الدولاب للبحث عن شموع إضافية أو أي وسيلة للإنارة.. فانبعثت صرخة رهيبة من أفواهنا جميعا!!.. ألن ينتهي هذا الرعب أبدا؟!.. لقد رأينا جثتا الدكتور (علي) والسيد (حامد) مكدستين فوق بعضهما في الدولاب.. وكانت جثة الدكتور (علي) بالذات في حالة مزرية.. إذ بدت شاحبة وكأنها خالية من الدماء.. وكان هذا كافيا ليفقدنا صوابنا تماما!!.. خاصة السيدة (موريسا) التي تأكدت الآن أن زوجها قد قتل.. إذ أصيبت بحالة هستيريا.. حتى إنها خرجت من الغرفة راكضة إلى غير هدى وهي تصرخ بجنون.. وبعدها بلحظات وقبل أن نستوعب ما يحدث..

-النجدااااااااه

نعم.. كانت هذه صرختها.. صرخة رعب وألم هائلة وكأن أحدهم يقتلع عينيها بمطواة.. خرجنا من الغرفة كالمجانين لنلحق بها.. بحثنا عنها في الغرف القريبة لنجدها بعد دقائق قليلة على ضوء مشعل البوتاجاز -الذي لا أظن أنه سيدوم أكثر من ساعة أو اثنتين على أبعد تقدير- جاحظة العينين ملقية عند ركن الغرفة.. كان واضحا أنها قتلت.. فوضعت السيدة (أوراد) يدها على فمها محاولة كتم صراخها.. في حين امتلأت عيناها بالدموع!!.

وقفنا مشدوهين لفترة لا نسمع فيها أي صوت سوى أنفاسنا اللاهثة.. لم نقترب من جثة (موريسا).. فالظلام والعينان الجاحظتان قد لعبا دورهما وأعطيا المنظر رهبة وجوا ثقيلا كالكابوس.. وهذا هو السبب نفسه الذي جعلنا لا نقترب من جثتي الدكتور (علي) والسيد (حامد) رحمهم الله جميعا.. لم يبق سوانا أطال الله بأعمارنا.. 3 أشخاص فقط.. أنا والأستاذ (إبراهيم) وزوجته.. وفي مكان منعزل غريب قتل أصحابه على يد شبح!!.. يا له من أمر رهيب.. لن أنسى

تلك اللحظات المشؤومة ما حييت.. لكن.. هناك النقطة الغامضة التي ما زالت تلح على ذهني والتي قد تكشف كل خيوط تلك الورطة وتنقذ حياتنا.. المشكلة أن الخوف والتوتر يمنعاني تماما من التركيز.

كنا جالسين في صالة الاستقبال.. في حال مزري وقد لعبت حرارة الجو دورا كبيرا في جعل الأمور أكثر سوءا مما هي عليه.. وقد كانت السيدة (أوراد) أسوأنا حالا.. ولو كان لي مزاج رائق للمزاح لقلت أنها متوفية تقريبا.. تنتظر فقط أن نعلن أنها كذلك..

نظرت إلى ساعتي لأعرف الوقت.. مرت ساعتان تقريبا منذ بدأت تلك الأحداث الرهيبة.. ساعتان فقط؟!.. إن الأمر قد بدا وكأنه دهرا.. لا نعرف ماذا نفعل.. ولا يجد أحد منا شيئا يقوله.. لذا التزمنا الصمت.. أحاول أن أراجع الأحداث مرة أخرى.. إن هذا ينفع في الأفلام الأجنبية والقصص البوليسية.. أما في عالم الواقع فقلما ينفع.

قال الاستاذ (إبراهيم) وهو يزدرد لعابه إن بقي له لعاب أصلا:

-قصة السيدة (موريسا) عن الساحرة (ناتاشا) كانت رهيبة مخيفة بالفعل.. إنني أرتعد خوفا كلما أتذكرها.. روح ساحرة تفتك بنا واحدا تلو الآخر.. ولوحة (الغابة السوداء) الملعونة.. هل من الممكن أن يحول أحد روحه إلى صورة؟!.. هل يستطيع الإنسان بواسطة السحر فعل شيء كهذا؟!.

قلت ببطء شديد وأنا أفكر بعمق:

-أستاذ (إبراهيم).. في الواقع إن هذا ممكن من الناحية العلمية.

نظر إلي وزوجته نظرة استفهام.. فقلت كمن يلقي محاضرة:

- أنتما تعلمان أن عالمنا يعتمد في كل مقاييسه وأحجامه على 3 أبعاد رئيسية.. وهي الطول والعرض والارتفاع.. فأي جسم في هذا العالم مهما بلغ حجمه له تلك الأبعاد الثلاثة.. وهذه الأبعاد هي ما تجعل الجسم يبدو لنا مجسما إما بالعين المجردة أو حتى بالميكروسكوب.. لقد خرج الكثير من العلماء بنظريات تشير إلى وجود عوالم أخرى رباعية الأبعاد وأخرى ثنائية الأبعاد.. وتلك الأخيرة تحوي بعدين فقط.. الطول والعرض.. وتفتقر إلى البعد الثالث وهو الارتفاع.. مما يجعلها تبدو تماما كالصورة المرسومة.. فلم لا تكون الساحرة (ناتاشا) قد نجحت بواسطة السحر أن تنتقل إلى عالم ثنائي الأبعاد.. وقد تكون لوحة (الغابة السوداء) نفسها بوابة الدخول إلى ذلك العالم.

سألتني السيدة (أوراد):

-ولكن كيف تستطيع الساحرة (ناتاشا) أن تعيش كل هذه الأعوام؟!.

قلت لها متوقعا هذا السؤال:

-نحن لا نعرف شيئا عن طبيعة مرور الزمن في العالم ثنائي الأبعاد.

هنا صاح الأستاذ (إبراهيم):

-ولماذا لا نحطم اللوحة؟!.. ألن يكون هذا حلا للمشكلة؟!.

قلت له متوقعا هذا السؤال أيضا:

-هنا تكمن المشكلة.. فالساحرة موجودة في عالمنا الآن.. بل ومعنا في البيت.. ولن يضيرها أن تتحطم اللوحة وهي خارجها.. كل ما سيحدث هو أنها ستفقد وسيلة العودة ولكن ليس قبل أن تقتلنا.

عندما قلت الجملة الأخيرة اقشعر بدني.. يا إلهي.. لو كانت نظريتي حقيقية فإننا في ورطة حقيقية.. ولكن.. أنا نفسي غير مقتنع بنظرية العالم ثنائي الأبعاد تلك.. أشعر أن الأمر أعقد من ذلك بكثير.. ما زلت أجد هناك أمرا غريبا في كل ما يحدث.. أمرا بديهيا لكننا لم نلاحظه حتى الآن.. إما بسبب التوتر والخوف والظلام وحرارة الجو التي جعلتنا نبدو وكأننا قد خرجنا للتو من حمام بخار.. أو لأننا أغبياء.

كنا في أسوأ حال ممكن.. وما حدث بعد ذلك بلحظات زاد من هول الموقف.. فقد رأينا مشهدا مرعبا رهيبا لا يوصف.. لقد مرت أمامنا فجأة امرأة ترتدي ثوبا أسودا طويلا.. وشعرها الأسود الطويل جدا يخفي الكثير من ملامحها.. وكانت تحمل سكينا كبيرا ملطخا بالدماء!!!.. مرت أمامنا بهدوء مهيب دون أن تلتفت إلينا أو تصدر أي صوت.. لتدخل إلى غرفة أخرى كان بابها مفتوحا واختفت عن الأنظار!!!.. لكم أن تتصوروا كيف تجمدت عروقنا.. بل انفجرت من شدة الرعب والهلع.. إن كلمة هلع أو (Panic) بالإنجليزية مناسبة جدا للموقف.. فهي تعبر بصدق عن الخوف الجماعي المصحوب بانفلات الأعصاب.. مع عجز تام عن التعقل.. إذ تدافعنا إلى السلم ونحن نصرخ وعلامات الرعب منقوشة نقشا على ملامحنا.. لنصعد إلى الطابق العلوي إلى غير هدى.. واستمر تدافعنا إلى أن دخلنا إلى واحدة من الغرف التي يزخر بها البيت في الدور الثاني ونحن نلهث وقلوبنا تتواثب كالقردة الصغيرة.. ليجلس كل منا في جانب ملصقا ظهره إلى الحائط.. صوت بكاء السيدة (أوراد) الهستيري يكاد يصيبني بالجنون.. في حين أستطيع أن أتبين ملامح الأستاذ (إبراهيم) وهو يبدو مصدوما يمنعه وجود زوجته من أن يولول كالنساء.

عقلي يعمل بسرعة.. وأنا أرجع وأكرر.. هناك شيء ما لم ننتبه إليه.. ما زالت تلك النقطة البديهية التي أخبرتكم عنها تشغل عقلي.. آه لو تذكرت.. لست أحاول لعب دور التحري الشهير (شيرلوك هولمز).. لكنني بالفعل أشعر بأنني قادر على فك رموز هذا اللغز العجيب.. وأن الأمر أكبر وأشد تعقيدا بكثير من قصة لوحة (الغابة السوداء) والساحرة (ناتاشا).. ولكن ما هي هذه النقطة المفقودة؟!.

ظللت غارقا في خواطري إلى أن سألتنا السيدة (أوراد) بصوت مرتجف:

-أين تظنونها قد ذهبت؟!.

رد عليها زوجها بحنق:

-إلى المكان الذي جاءت منه طبعا.

ثم تنهد بقوة وهو يقول:

-إن كل هذا يحطم الأعصاب.. يجب أن نفعل شيئا.. سنقتل أو نموت من هول ما رأينا وسنراه.. لو يعود التيار الكهربائي على الأقل.. سيصبح الأمر أهون بكثير.. إن الظلام يعطي كل ما يحدث طابعا كابوسيا ويجعل الأمور أكثر سوءا.

قلت بشرود:

-نعم.. لو يعود التيار الكهربائي.

ثم التفت كالملسوع ناحية الأستاذ (إبراهيم).. وصحت بصوت مرتفع:

-يا إلهي.. التيار الكهربائي.. يا لغبائي.. كيف لم أنتبه لهذا منذ البداية؟!.

نظرا إلي باستغراب.. وصاحت السيدة (أوراد):

-ماذا تعني؟!.

قلت لها بعصبية بعيدا عن كل قواعد اللياقة:

-دعوني أفكر قليلا.

ظللت صامتا للحظات راجعت فيها كل الأحداث.. وكل ما مررنا به اليوم منذ بداية الحفل.. واضعا بعين الاعتبار انقطاع التيار الكهربائي.. وظهور الساحرة (ناتاشا)..

ثم صحت بهم:

-انتظروني.. لا تتحركوا من أماكنكم.. سأعود بعد قليل.

خرجت من الغرفة مسرعا إلى الغرفتين الأخرتين حيث وجدت الجثث الثلاثة.. عندها فقط تنهدت بارتياح.. إن استنتاجي منطقي تماما ويوجد الآن ما يؤيده!!.. عدت بهدوء إلى غرفة المدير وأنا أبتسم وقد زال خوفي تماما وسط دهشتهما الشديدة:

-أعتقد أنني عرفت ما يجري هنا.

نظرا إلي بغباء لا ألومهما عليه.. فأكملت قائلا:

-أعتقد أنني كشفت سر الأحداث التي تجري في هذه المزرعة!!.

استمرت نظراتهما المتسائلة.. فأردفت:

-حسنا.. إنك أنت يا أستاذ (إبراهيم) من قادني إلى كشف الغموض المحيط بكل هذه الأحداث المخيفة.

قال بدهشة:

-أنا؟!.. كيف؟!.. وأي غموض هذا الذي تتحدث عنه؟!.

لم أرد على أسئلته.. بل قلت مباشرة:

-بالمناسبة.. عندما تركتكما للتو.. كنت قد ذهبت لتفقد الجثث.. لكني لم أجد إحداها.

نظرا إلي بدهشة.. وصاح أستاذ (إبراهيم) بذعر:

-ماذا تعني.. هل سرقت الساحرة (ناتاشا) إحدى الجثث مثلا؟!.

ابتسمت قائلا:

-لا.. إن الأمر أعقد من ذلك بكثير.

ثم تنهدت وقمت أروي لهما استنتاجي:

-كنت طوال فترة انقطاع التيار الكهربائي أحاول أن أتذكر أمرا بالغ الأهمية.. نقطة بديهية جدا.. لكن أحدا منا لم ينتبه إليها مع الأسف.. فبعد انقطاع التيار الكهربائي بفترة.. رأينا جميعا السواتر

الحديدية تنزل لتقفل علينا الأبواب والنوافذ.. هل يبدو لكم هذا عمل من صنع الأشباح؟!.

ثم قلت بشي من السخرية:

-قرأت الكثير عن الأشباح لكني لم أقرأ أبدا عن أشباح تقوم بتركيب سواتر حديدية تعمل بضغطة زر من خلال دائرة كهربائية منفصلة عن تلك التي تمد البيت بالكهرباء.

نظر إلي الأستاذ (إبراهيم) وزوجته ببلاهة.. وغمغمت السيدة (أوراد):

-حقا.. كيف لم ننتبه إلى هذه النقطة؟!.. لكن ما الذي يعنيه هذا؟؟.

قلت بانتصار:

-يعني الكثير يا سيدتي.. يعني أن كل ما يجري هنا هو عمل إنساني إجرامي بحت لا علاقة له بالأشباح أو السحرة.. فالأمر يتعلق بمجرم نفذ خطته لأسباب مجهولة ولدوافع لم نكشفها حتى الآن.

قال المدير بحيرة:

-ولكن من؟!.. من يستفيد من حمام الدم هذا؟!.. من سيستفيد من مقتل الدكتور وصديقه.. بل والسيدة (موريسا) أيضا؟!.

قلت له:

-كما قلت.. أنا لا أعرف الدافع.. ولكن على الأقل أعرف من وراء تلك الأحداث.. هناك أسئلة كثيرة تطرح نفسها.. فقد خرجت قبل قليل لأبحث عن جثتي السيد (حامد) والدكتور (علي).. وقد وجدت الجثتين.. وعندما ذهبت للبحث عن جثة السيدة (موريسا) لم أجدها.. لماذا؟!.. كما أننا رأينا جميعا الساحرة (ناتاشا) تمر أمامنا بشكل استعراضي.. وأنا أتساءل هنا.. ما الذي جعلها تفعل هذا؟!.. كانت فرصتها ذهبية لقتلنا مع حالة الهلع التي أصبنا بها بعد رؤيتنا لها.. لكنها لم تفعل شيئا سوى الظهور ثم الاختفاء.. لماذا؟!.. والسؤال الأهم: من يستطيع فعل كل ذلك؟!.. وإلى جانب تلك الأسئلة.. هناك أيضا نقطة هامة جدا تتعلق بقصة لوحة (الغابة السوداء) العجيبة.. واختفاء صورة الساحرة منها.. جميع هذه الأسئلة والنقاط توجه الاتهام إلى شخص واحد فقط.

سكت قليلا لأسيطر على انفعالي ثم أكملت:

-من المؤكد أنه شخص يستطيع التنقل من غرفة إلى أخرى بسهولة.. شخص يحفظ مكان الغرف عن ظهر قلب.. أليس كذلك؟!.

صمت مرة أخرى استعدادا لتفجير قنبلة.. وقلت بصرامة:

-إن الفاعل هو السيدة (موريسا)!!.

انتفضا بقوة.. وراحا يرمقاني بدهشة.. ثم قال الأستاذ (إبراهيم):

-أعتقد أنك تسرعت قليلا يا (خالد).. لقد...

قاطعته دون مراعاة لقواعد اللياقة:

-بالعكس.. أنا واثق من استنتاجي.. لقد أرادت (موريسا) أن توهمنا بموتها.. لذلك سمحت لنا بمشاهدة جثتها المزعومة.. والدماء التي على جسدها أنا واثق أنها لم تكن دماءها.. بل هو مجرد

لون أو صبغة.. لقد كان موتها مجرد تمثيلية.. وإلا فلماذا اختفت جثتها ولم تختف جثة الدكتور (علي) والسيد (حامد) رحمهما الله؟!.. كانت هذه هي النقطة الأولى.. وهناك النقطة الثانية المتعلقة برؤيتنا للساحرة المزعومة (ناتاشا).. لقد خرجت من مكان ما من البيت ومرت من أمامنا بشكل استعراضي دون أن تفعل أي شيء.. ولو سألتماني عن رأيي فأنا أقول إن السبب الوحيد وراء هذا هو أنها كانت تريد شهودا على أن أسطورة لوحة (الغابة السوداء) حقيقية وأن الساحرة أو شبحها قد ظهر ليسفك الدماء.. وعندها بالطبع سيخاف الناس هذا البيت كثيرا ولن يجرؤ أحد على الاقتراب منه.. وسيصبح بيتا للأشباح تحاك حوله القصص.. خاصة وأنه يقع في بقعة منعزلة تماما.. مما سيزيد الغموض والرعب والإشاعات التي ستحاك حوله.. أما موضوع لوحة (الغابة السوداء) فتذكرا أن كل ما سمعناه وكل ما كان يعرفه الدكتور (علي) عنها قد جاء ذكره على لسان (موريسا) التي استغلت الأساطير التي تحاك حول تلك اللوحة لتحقق مآرب لا نعرفها.. أما عن أهم نقطة وهي كيفية تنقل (موريسا) من الطابق الأرضي إلى الطابق الأعلى بسهولة ويسر دون أن نراها للقيام بتبديل ثيابها والتنكر بشخصية الساحرة (ناتاشا) للقيام بجرائمها.. فأنا هنا استعيد عبارة التحري الشهير (شيرلوك هولمز) عندما قال: ((عندما نستبعد المستحيل فإن ما يتبقى لنا هو الحقيقة مهما بلغت غرابتها)).

سألتني السيدة (أوراد) بحيرة:

-وما الذي يعنيه هذا؟!.

قلت مبتسما:

- كيف تستطيع (موريسا) التنقل بهذه السهولة من مكان لآخر دون أن نراها؟!.. كيف قتلت زوجها ووجدناها بعدها بفترة قصيرة في المطبخ؟!.. كيف ترتدي ثوبها الأسود وشعرها المستعار الطويل في أي وقت تشاء لتضرب ضربتها؟!.. كيف تجد الوقت الكافي لتستبدل ثيابها؟!.. أنا أرى أن (موريسا) تحتاج إلى طاقية الإخفاء لتفعل ما فعلته.. وبما أن هذا هو المستحيل.. فستتبقى أمامنا الحقيقة مهما بلغت غرابتها.. والحقيقة هي أن في هذا البيت ممرات سرية تستغلها (موريسا) لتحقيق مآربها.. أعرف أن الفكرة مجنونة.. لكنها منطقية للغاية.. بل هي التفسير الوحيد.. وكأننا في واحدة من قلاع أوروبا التاريخية التي تزخر بالممرات السرية.. وهناك نقطة هامة تذكرتها الآن.. فعندما سمعنا صراخ الدكتور (علي) رحمه الله من الطابق العلوي.. سمعنا بعدها صوت (موريسا) وهي تستنجد بنا من المطبخ.. وأنا الآن أتذكر جيدا أننا لم نسمع صوتها إلا بعد فترة طويلة نسبيا.. لقد قتلت زوجها بسرعة وتخلصت من ثيابها التنكرية وشعرها المستعار.. ثم هبطت من خلال أحد الممرات السرية إلى المطبخ لتمثل دور الزوجة التي فجعت لصراخ زوجها.. لقد فعلت كل هذا بسرعة تحسد عليها بالفعل.. لكن مع ذلك.. كانت هذه النقطة بالذات ثغرة واضحة.. أنا واثق أنها استغلت العامل النفسي جيدا.. فبعد انقطاع التيار الكهربائي وبعد سماعنا لصراخ الدكتور (علي).. كان من الصعب على أي منا أن يلاحظ أن (موريسا) قد تأخرت قليلا في نداءاتها لنا.

وفجأة.. فتح باب الغرفة.. لأرى (موريسا) تبتسم وتقول بجذل:

-أحسنت يا (خالد) إنك محلل بارع بالفعل!!.

التفتنا جميعا وإذا بها واقفة عند باب الغرفة وهي تبتسم ابتسامة مخيفة تختلف تماما عن ابتسامتها الرقيقة التي كانت تصطنعها خلال الحفل.. وكانت تصوب إلينا مسدسا صغيرا.. وفي

يدها الأخرى مصباحا قويا أنار المكان كله.. وقفنا جميعا في تحفز.. فنظرت إلينا بابتسامتها الشرسة.. وأردفت:

-إنك لست محلل بارع فحسب.. بل أنت عبقري يا (خالد).. لقد حدثنا الأستاذ (إبراهيم) عنك وعن ذكائك برغم صغر سنك.. إن الأمر يحتاج إلى عقلية غير عادية لكشف كل ما يحدث.. لكنك رغم ذلك لست ذكيا بما فيه الكفاية.. إذ لم تعرف حتى الآن الدافع وراء ما جرى!!.

قلت لها بتحد وقد زالت معظم مخاوفي كون أن ما نواجهه ليس شبحا.. بل إنسان.. علما بأن هذا قد يكون أشد خطرا على حياتنا:

-أنت تفهمين اللغة العربية جيدا إذا!!.. ثم من سيهتم بأفكار ودوافع معتوهة مثلك؟!.

ظلت تنظر إلينا نظرة ساخرة استفزت الأستاذ (إبراهيم) حتى أنه صرخ بها كالمسعور:

- ما هو دافعك وراء كل هذا؟!.. لقد قتلت أفضل أصدقائي.. وسببت لنا رعبا ما بعده رعب.. لماذا؟!.. لماذا؟!.

لكنها لم تهتم إطلاقا لثورته.. بل قالت وهي تبتسم بقسوة جعلت من وجهها الجميل أكثر قبحا من أي وجه آخر رأيته في حياتي:

- هل تعرفوني؟!.. بالطبع لا.. طوال الحفل كنتم تتغامزون وتتحدثون عن سبب زواج تلك الأجنبية الصغيرة بذلك الكهل الذي هو في عمر أبيها.. سأخبركم أنا بكل شيء وإن كنت لا أتوقع منكم أن تصدقوا حرفا مما سأقول.

ثم صمتت قليلا كمن يستعد لإلقاء مفاجأة غير متوقعة.. وهذا ما فعلته حقا.. فقد فجرت قنبلة عندما قالت بضحكتها الاستفزازية:

-إن الواقفة أمامكم هي زوجة الدكتور (علي) بالفعل ولكنني لا أدعى (موريسا).. إنني من يطلقون عليها اسم الساحرة (ناتاشا) التي عرفتم قصتها أثناء الحفل!!!!.

صاحت بها السيدة (أوراد) بعصبية بالغة:

- كفي عن التلاعب بنا والسخرية والاستهزاء.

ابتسمت بثقة وهي تكمل:

-إن ما أقوله لكم هو الحقيقة.. أنا الساحرة (ناتاشا).. وأنا أبلغ من العمر ما يقارب 540 عام.. إنها الحقيقة.. فكل 50 عاما تمر على العالم تساوي في جسدي عاما واحدا فقط.. فقد توصلت إلى السر.. سر الخلود.. حلم البشرية منذ الأزل!!.

قلت بصرامة:

-لا يوجد أحد لا يموت.. وإن كانت هذه خدعة جديدة ف....

قاطعتني وهي تقول ببساطة:

-ألم أخبركم بأنكم لن تصدقوني؟!.. إنها الحقيقة.. ولا يوجد سبب يجعلني أكذب عليكم بعد أن انكشفت كل الأوراق.. ثم من قال إنني سأعيش للأبد؟!.. سأموت يوما ما بالطبع.. لكني سأعيش طويلا.. طويلا جدا.. قد أعيش لألفي أو ثلاثة آلاف عام قبل أن أموت.. وأنا بالمناسبة لست ساحرة.. إنما أخبرتكم بذلك كي أثير جوا من الرعب والغموض حول القصة التي أخبرتكم بها حول

لوحة (الغابة السوداء).. فأنا في الواقع كيميائية.. أمارس ما كان يطلق عليه في القرون الوسطى اسم: علم (الخيمياء) ([7]).. لقد تمكنت من بناء بيت متواضع هو أقرب إلى الكوخ.. وقمت بتزويده بكل ما يلزمني للاستمرار بأبحاثي التي بدأتها على الفئران والأرانب.. كنت أحلم طوال الوقت بالتوصل إلى سر الخلود.. ودرست الجسد البشري لسنوات طويلة.. كما درست تركيب دم الإنسان حتى توصلت إلى فصائل الدم المختلفة والمعروفة حاليا قبل أن يتوصل إليها العلماء بزمن طويل.

ثم صمتت وكأنها تسترد ذكرى مريرة.. لتكمل:

- سنوات طويلة مرت من العمل اليومي بلا توقف أو انقطاع تقريبا.. كم من محاولات فاشلة غصت فيها.. كم من احباطات عشتها وأنا وحيدة أعيش في تلك الغابة بعيدة عن الناس الذين كانوا يظنونني ساحرة.. وبعد أكثر من 20 عاما تقريبا من العمل الشاق والسعي المتواصل توصلت إلى حلم البشرية منذ الأزل.. إلى إكسير الشباب.. كان المركب الذي توصلت إليه يكفي لإبقاء شبابي 5 أعوام تقريبا.. أي أن كل 5 أعوام تمر على العالم كانت تساوي عاما واحدا في جسدي.. وخلال سنوات قليلة تطورت أبحاثي كثيرا.. وتطور إكسير الشباب ليكون أكثر فاعلية.. لتصبح كل 50 عاما تمر على أجسادكم تساوي عاما واحدا فقط في جسدي.. كل هذا بكميات قليلة من الدماء لا تتجاوز 10 لترات.. وهي قليلة بالفعل مقارنة مع كمية الدماء التي كنت أحتاجها في البداية.. حيث اضطررت للقتل ولأول مرة في حياتي.. حين تسللت إلى حدود المقاطعة القريبة من الغابة واستدرجت 4 أطفال وقتلتهم للحصول على دمائهم.

لم ننتبه إلى انتهاءها من الكلام إلا بعد لحظات.. فقد كنا ننظر إليها ببلاهة.. يا إلهي!!.. لو قمت بتأليف رواية حول موضوع كهذا لاتهمني الناس بالإغراق في الخيال.. فما بالكم أنني أراه حقيقة واقعة أمام عيني..

كنت أول من أفاق من هول الصدمة.. وقلت وعلامات التفكير تبدو على وجهي:

-أعتقد أنك قتلت الدكتور (علي) والسيد (حامد) لأنك كنت تريدين جثتين كي تستخلصي منهما 10 لترات من الدم.. فكمية الدماء الموجودة في جسم الإنسان تساوي 6 لترات تقريبا.. هذا مفهوم.. وأعتقد أنك اخترت قتل زوجك مع صديقه السيد (حامد) لأن فصيلة دمائهما تشبه فصيلة دمك.. هذا هو التفسير الوحيد لاختيارك لدمائهما على وجه التحديد.. والأمر سهل جدا في معرفة فصيلة دماء زوجك.. ولكن كيف عرفت فصيلة دم السيد (حامد)؟!.

ابتسمت بإعجاب شديد كان سيروق لي كثيرا في ظروف أخرى:

-إنك فعلا ذكي يا (خالد)!!.

قلت ببرود:

-الأمر واضح.. وإلا كنت قد قتلت الخدم مثلا للحصول على دمائهم..

ردت مبتسمة:

- بالنسبة لفصيلة دم السيد (حامد) فقد عرفتها لأنه من المترددين على عيادة زوجي.. وكل معلوماته متوفرة في ملفه الخاص في جهاز الكمبيوتر..

قلت بشيء من الحدة:

-إذا فلوحة (الغابة السوداء) كانت كذبة قمت باختراعها لأنك كنت بحاجة إلى شهود يخبرون رجال الشرطة أن البيت مسكون بالجن مثلا.. وكنت بحاجة لمن يشهد بأننا رأيناك مقتولة حتى تبتعد عنك الشبهات حين تختفي جميع الجثث!!.

ابتسمت بفخر وهي تقول:

-لا وجود للوحة (الغابة السوداء) بالطبع.. فالفكرة كلها من ابتكاري.. وأصدقكم القول أنني كنت أشعر باستمتاع لا مثيل له وأنا أثير الخوف في قلوبكم وأتلاعب بكم.. ولن أبالغ لو قلت إن أحد دوافعي كان استمتاعي الشخصي بما سيحدث.. لقد قمت بالتخطيط للأمر جيدا وأعددت لكل شيء إعدادا دقيقا وتدربت على القيام بكل مراحل الخطة من بدايتها.. فقد طلبت من أحد الرسامين في أوروبا أن يرسم لي تلك اللوحة بتفاصيلها التي تعرفونها.. وطلبت منه رسم لوحة أخرى تحوي نفس التفاصيل باستثناء الساحرة (ناتاشا).. وبعد أن حصلت على اللوحتين.. طلبت من أحد مزوري اللوحات أن يعرضهما لدرجات حرارة مرتفعة ومعاملات كيميائية خاصة حتى تبدوان وكأنهما مرسومتان منذ قرون.. هذا أسلوب مألوف يستخدمه رسامي اللوحات المزيفة.. وهكذا انتظرت حتى تحين اللحظة المناسبة.. وقد حانت عندما قرر زوجي دعوة أقرب أصدقائه بمناسبة شرائه لهذه المزرعة الكبيرة والانتهاء من بناء هذا المنزل الشبيه بالقصر.

-يا للدهاء

قالتها السيدة (أوراد) باشمئزاز.. فنظرت إليها (موريسا) نظرة ساخرة.. وضحكت ضحكة عابثة مستفزة كانت أسوأ بالنسبة لنا من صفعة على قفانا.. حتى إنني سيطرت على أعصابي بصعوبة بالغة وأنا أسألها:

-ولكن كيف عرفت بأن الأستاذ (إبراهيم) سيتركك تذهبين مع السيد (حامد) عندما قمتم بالبحث عن زوجك؟!.

مرة أخرى ابتسمت بإعجاب لأسئلتي الذكية.. وأردفت:

-لقد اعتمدت كثيرا على العامل النفسي.. فلن يطلب مني أحد الذهاب مع الأستاذ (إبراهيم) إن اخترت بنفسي الذهاب مع السيد (حامد) كي أستفرد به وأقتله.. كنت واثقة أن أحدا منكم لن ينتبه إلى هذه النقطة حينها بسبب الجو العام المليء بالتوتر والغموض إلى جانب الظلام الذي كان له حضور لا ينكر.. لم أكن أود قتلهما بصورة تقليدية.. خاصة حين يتعلق الأمر بزوجي.. لأن كل الشكوك بعدها ستحوم حول الزوجة الأجنبية الشابة التي سترث الأموال من هذا الكهل.. وسيتساءل رجال الشرطة عن سبب زواجي منه وعن أمور كثيرة قد تكشفني.. إن رجال الشرطة في أي بلد جبابرة وليس من مصلحتي إقحامهم في القضية.

سألتها مرة أخرى عن أهم نقطة متعلقة بهذه القصة الرهيبة:

-كيف تزوجت من الدكتور (علي)؟!.

ردت ببساطة:

-التقيت به حين كان في بعثة علمية في (باريس).. وهناك قمت بجمع كل المعلومات الممكنة عنه.. وعرفت أنه يحمل فصيلة دم شبيهة لفصيلة دمي.. وأنه ثري.. وهذا أهم ما في الأمر!!.. فأنا لا أعمل.. وفي نفس الوقت أحتاج إلى المال أكثر من أي شخص.. لن أعيش فقيرة أبدا.. أريد أن أستمتع بحياتي بعد سنوات طويلة من الوحدة والفقر والحياة البائسة التي عشتها في الغابة.. لذا

كنت أوقع الأثرياء في شراكي مستغلة جمالي.. خصوصا كبار السن منهم.. لأنهم يدفعون بسخاء.. فلا يحلم أحد منهم أن يحصل على فتاة تبدو لهم في العشرينيات من عمرها.. في البداية كنت أقتل أزواجي وجميع أفراد القصر من خدم وغيرهم.. وكنت أحيانا كثيرة أقع في مأزق.. إذ لم يكن من السهولة معرفة فصيلة دم الناس دون أن أقتلهم أولا.. لذا فقد قتلت الكثيرين الذين لم أستفد من موتهم مع الأسف!!.

غمغمت ببغض:

-يا للحقارة.

لم تكترث لهذه الإهانة.. بل أكملت بلا مبالاه:

-أما في الزمن الحالي فمعرفة فصيلة دم الإنسان من أسهل الأمور.. لقد كنت أحتاج إلى دماء من فصيلة (B+).. إنها فصيلة دمي.. وأحتاج إلى موت زوجي كي أحصل على أمواله لأعيش برفاهية لأعوام طويلة.. فبحثت في ملفات زوجي الطبية عن مرضاه الذين يترددون على عيادته.. لأجد أن الكثيرين منهم يحملون تلك الفصيلة.. منهم السيد (حامد).. فخططت لإبقاء الأستاذ (إبراهيم) وزوجته حتى يكونا شاهدين على أن المنزل مسكون بالأشباح وأنهم شاهدوني قتيلة.. وعندما حضرتم إلى الحفل برفقة (خالد) زاد الأمر من بهجتي.. فهذا معناه وجود 3 شهود وليس اثنان.. ولا أنسى أن أخبركم بأنني قد طلبت من زوجي إبقاءكم على أن هناك أمرا نود إخباركما به.. كون الأستاذ (إبراهيم) والسيد (حامد) هما أفضل أصدقائه.. لقد اعتقد زوجي أن الأمر لن يتعدى هدية سأقدمها لكما باسمه.. لم يكن بالطبع يتوقع ما حدث.

صمتت قليلا لتلتقط أنفاسها.. ثم قالت وكأنها تذكرت شيئا:

- نسيت أن أخبركم أن أكثر التحف واللوحات الفنية مزيفة.. فكنت أطلب من زوجي مبالغ ضخمة.. لكني أشتري التحف واللوحات المزيفة الرخيصة.. وأحتفظ بالمال لنفسي.. لقد كان حريصا جدا على أمواله.. لا أقصد البخل.. بل كان خوفه من أن ترتبط به امرأة من أجل الحصول على حصة من ثروته وليس حبا به.. لذا لم يكن يمنحني شيئا من المال سوى المصاريف البسيطة.. وكل شيء آخر ثمين يشتريه لي هو ملك له في واقع الأمر.. بل وجعلني أوقع على تنازل عن كل ما اشتراه لي من مصوغات ومجوهرات.. ليعود كل شيء إليه إذا فكرت بالطلاق مثلا.. تصوروا هذا!!..

غمغمت ببغض:

-لقد كان محقا في عدم ثقته بك!!.

رمقتني بنظرة جانبية.. ثم أردفت:

- كان هذا الحل الوحيد.. إذ لم أجد أي وسيلة لسلبه نقوده سوى شراء بعض التحف واللوحات الفنية المزورة.. فمثلا لوحة (الغابة السوداء) لم يكلف رسمها مئات الدولارات.. في حين اعتقد زوجي أن ثمنها نصف مليون دولار.. وبالطبع كنت أحصل على تلك النقود وأدخرها وأعطي البائع الذي يعاونني على خداع زوجي مبلغا معينا يتم الاتفاق عليه مسبقا.. وهكذا أواصل جمع المال لتكون عندي ثروة استمتع بها لسنوات طويلة قادمة.. وبعدها أبدأ من جديد رحلة الحصول على رجل يملك أهم صفتان.. الثراء.. وفصيلة دم شبيهة بفصيلة دمي.

صمتت وكأنها انتهت للتو من إلقاء محاضرة شائكة.. فسألتها:

-وماذا عن الممرات السرية؟!.. أنا واثق الآن من وجودها.

قالت بإعجاب شديد:

-إن هذا بالذات ما جعلني أصفك بالذكاء.. بالنسبة للمرات السرية.. فهي موجودة بكثرة في البيت.. وأعرفها جيدا وأحفظ مكانها عن ظهر قلب.. وقد أغويت المهندس الذي قام ببناء البيت بصنعها.. أوهمته أنني أحبه.. إذ لم يكن زوجي يتابع عملية البناء.. فقد اشترى المزرعة وأوكل للمهندس أن يبني البيت بالطريقة التي تروق لي.. لم يتوقع زوجي بالطبع أنني سأطلب من المهندس صنع ممرات سرية.. ولن تعرفوا أبدا أين هي تلك الممرات.. ثقوا بهذا.

سألتها وذهولي لم يفارقني:

-لماذا لا تشتري الدماء بأموالك؟!.

-هذا مستحيل تقريبا.. فيجب ألا يمر على شفط الدماء من الجسم أكثر من 3 ساعات حتى تكون صالحة لاستخدامها لصنع إكسير الشباب.. لن أخبركم بالمزيد.. خاصة فيما يتعلق بصناعة الإكسير.. إنه سري الخاص.

انتهت من شرحها الطويل.. ولم ينته ذهولنا.. يا إلهي.. هذا يفوق التصور بالفعل.. حتى أن (موريسا) أو (نتاشا) -أو أيا كان اسمها- قامت تبتسم بفخر.. ثم قالت شيئا لم أتوقعه على الإطلاق:

-يمكنكم الرحيل إن أردتم.. فأنتم لا تشكلون أي خطر علي.. ولا أعتقد أن أحدا منكم سيروي هذه القصة لأحد.. وإلا سيتهمكم الناس بالخبال.. أما لو أبلغتم الشرطة.. فكل ما سيفعلونه هو البحث عني باعتباري شخصا مهما في القضية.. لكنهم لن يجدوا شيئا.. سأقوم بالتخلص من الجثتين في مكان لن يجده أحد إلا بعد أيام أكون خلالها قد ابتعدت تماما.. إن التنكر من أسهل الأمور.. خاصة حين يتعلق الأمر بامرأة.. كما أنني جمعت أموالا طائلة من زوجي قبل قتله وأودعتها في حسابي السري في أوروبا حيث تنتظرني حياة جديدة باسم جديد.. إنني أخطط لهذا منذ 3 سنوات.. أما أنتم.. فستبقون مجبرين هنا لبضع ساعات أخرى أكون خلالها قد اختفيت وتركت البلد.. إن أوراقي سليمة وكل شيء معد له تماما.. كان لا بد من التعب والتضحيات حتى أحصل على الدم والأموال لأعيش حياة هانئة لمائة عام أخرى قبل أن أضطر إلى القتل من أجل المزيد من الدماء.. والمزيد من الأموال.. تعتقدون بأنني أغامر بكشف أمري عندما أخبركم بقصتي؟!.. أنتم حمقى إذا.. فأنا أفوقكم عمرا وخبرة بقرون طويلة.. ولا تعرفون نصف ما أعرف ونصف ما مررت به من تجارب.

كانت تتحدث إلينا دون غضب وبهدوء شديد.. لا أبالغ إن قلت أن كلامها قد حوى شيئا من الحنان والرقة.. وكأنها تشعر بالأسف لما فعلته.. لكنها وفي نفس الوقت لا ترغب بالاستغناء عن النشوة العجيبة -على حد قولها-عند تناول إكسير الشباب.

قلت لها محاولا أن أخاطبها بلغة المنطق:

- هل تعتقدين أن اكتشافك هذا نعمة؟!.. إنه نقمة.. إن قانون الطبيعة يحتم حدوث حالات الوفاة لمقابلة الزيادة التي تتسبب بها المواليد.. ولو لم يحدث هذا لتكدس البشر فوق بعضهم.. ليصبح بعدها اللجوء إلى القتل أمرا حتميا لإعادة التوازن الطبيعي إلى ما كان عليه.. وأنا فهمت الآن إيهامنا بمصرعك.. إن من يمتلك شبابا دائما مثلك يحتاج إلى كثرة التنقل والتخفي حتى لا

يكشف الآخرون أمره.. هل تريديننا أن نحيا بهذه الصورة؟!.

ردت ساخرة:

-من قال إنني أرغب أن يعرف العالم بأمر اختراعي هذا؟!.. إنه لي وحدي.. وأنا لا أمانع أبدا حياة الاختباء تلك التي تتحدث عنها.. فهي ثمن بسيط جدا مقابل الإحساس بتناول هذا العقار.. شعور الحيوية والنشاط لا يمكن وصفه.. لقد كان عمري يقترب من الأربعين عند اكتشافي لأكسير الشباب.. لكنه أعطاني حيوية وشبابا حتى صرت أبدو وكأنني في العشرين من عمري.. تصوروا الكم الهائل من المعلومات التي حصلت عليها بسبب معاصرتي لأجيال كثيرة خلال 500 عام.. لقد عاصرت العالم العظيم (ليوناردو دافنشي) وعاصرت (بيتهوفن).. وأكثر العظماء في تاريخ البشرية.. إنها متعة لا تدانيها متعة.. تصور أن تشهد التطور العلمي على مدى قرون من الزمان.. أليس هذا شيئا رائعا يستحق كل تضحية؟!.. إنني أجيد -بفضل عمري الطويل-5 لغات تقريبا إجادة تامة.. منها العربية!!.

ثم أخرجت لنا من جيبها ظرفا مليئا بالصور:

- انظروا.. صورة لي مع (آينشتين) في شبابه.. وصورة فوتوغرافية زيتية قديمة جدا مع رئيس (الولايات المتحدة الأمريكية) الأول (جورج واشنطن).. وصور أخرى مع أعظم شخصيات التاريخ.. أليس هذا رائعا؟!.. إن لي مع كل من هؤلاء الرجال قصة حب.. فقد كنت عشيقة هذا.. وصديقة ذاك.

عند هذه النقطة بالذات تصلبنا جميعا في أماكننا.. كنا ننظر إلى الصور بذهول.. كانت تبدو بالفعل قديمة جدا.. إن هذا أمر مذهل يفوق الخيال.. تخيل أن تجد صورة تجمع صديقك مع (هتلر) مثلا!!.. و.. لم يجد أي منا ما يقوله.. فنظرت إلى ساعتها.. وقالت وهي تلوح بمسدسها:

-إن الوقت يمضي.. سأرحل الآن ولا أعتقد أنكم تحبذون الموت.. إنني أعطيكم فرصة نادرة للنجاة فاستغلوها.. سأرحل ولكن قبلها علي الذهاب لسحب كمية من دماء زوجي (السابق) والسيد (حامد) لصنع الإكسير الجديد.. لا تحاولوا اللحاق بي وإلا ستصيبكم رصاصات مسدسي.. أنا لا أمزح.

قالت هذا وخرجت من الغرفة.. وكانت هذه آخر مرة أراها فيها!!!.. لا أعرف كيف خرجت من الفيلا لكنها على الأرجح استخدمت إحدى الممرات السرية.. إذ لم نجد لها أثرا في الساعات القليلة التالية التي تلت رحيلها.. لقد خرجت وتركتنا نستشيط غضبا.. إلى أن فتحت الأبواب أوتوماتيكيا.. فخرجنا متثاقلين عاجزين عن فعل أي شيء.. كنت أشعر بحزن لا أدري سببه.. إن الحصول على هذا الإكسير أمر رائع بالفعل للاستعمال الشخصي فقط.. وليس للبيع في الصيدليات بالطبع.. ولكن ثمن الحصول عليه بشع للغاية.. قتل الناس!!..

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة صباحا بقليل.. حيث اتفقنا بعدها على عدم إبلاغ الشرطة.. فقصة كهذه لا يمكن أن يصدقها عقل.. وكأننا رحلنا مبكرا من الحفل ولم نعرف ما جرى بعدها.. لا أعتقد أن أحدا قد رآنا نخرج من الفيلا والمزرعة في تلك المنطقة النائية الخالية تقريبا من البشر.. ولا أنسى أن أذكر أن الصحف تحدثت فيما بعد عن اختفاء الدكتور (علي) وزوجته والسيد (حامد).. لكن -بالطبع- لم يعرف أحد ما عرفناه.. وأستطيع الآن أن أتخيل (موريسا) أو (ناتاشا) -أو أيا كان اسمها- خارج (الكويت) في رحلة جديدة وبشخصية جديدة مستغلة أموالها لتعيش 100 عام أخرى بإكسير الشباب الذي اخترعته.. قبل أن تعود مرة أخرى لقتل أحد

ضحاياها الأثرياء لتحصل على ماله ودمائه.

طوال عمري أمقت القصص التي ينهزم فيها البطل.. لكن ليس باليد حيلة.. فهذا ما حدث.. وقد نقلته لكم بكل أمانة.. ولم أنس بالطبع أن أشكر مدير المدرسة الأستاذ (إبراهيم) على تلك التجربة الكابوسية التي عرضني لها دون أن يقصد.. تلك التجربة التي زادت من رصيد خبراتي كثيرا.. إن الأنانية قد تصل بالإنسان أن يفعل أشياء يشيب لهولها الولدان.. أشياء كثيرة ليس القتل أسوأها.. كما أيقنت أننا البشر لسنا سوى حفنة من الأوغاد لن ينقذنا من حطب جهنم إلا رحمة ربي الواسعة.

أما أنا.. فشريط حياتي يمر الآن في ذهني كما يحدث مع من هم على وشك الموت.. فلا أجد سوى سلسلة من الإحباطات والهزائم.. والأمل في المستقبل.. أن أصنع شيئا.. أن أكون شيئا.. والدراسة مع التفوق هما كل ما أملك.

لقد جعلتني تجربتي الأخيرة على وجه التحديد أتساءل أكثر وأكثر عن أسرار الكون وعن أسرار الناس.. الناس الذين قد تراهم في الشارع أو في أي مكان ولكنهم يحملون أسرارا لا يمكن أن يتخيلها أحد.. خاصة تلك المرأة التي اخترعت إكسير الشباب الدائم.. حلم البشرية.. وتلك اللوحة المزيفة التي عشنا بسببها ساعات سوداء لا تنسى.. (الغابة السوداء)!!!.

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(1) لعبة حقيقية تثير دوماً الكثير من الجدل حول مدى مصداقيتها.

[←2]

(2) الحاكم بأمر الله الفاطمي هو ثالث الخلفاء الفاطميين لـ(مصر)، وهو من الشخصيات التاريخية التي أثارت تساؤلات لا حصر لها، إذ إن سيرته مليئة بالغرائب والعجائب، وحتى موته يعتبر لغزا عجز المؤرخون تماما عن كشف لثامه، وكان يملك شخصية قوية جدا استمدها من الغموض الشديد الذي أحاط نفسه به.. وربما أغرب ما في هذا الحاكم هو أوامره التي كانت متناقضة إلى حد عجيب أثار دهشة الناس في تلك الفترة من الزمان ودهشة المؤرخين فيما بعد، إذ يذكر لنا التاريخ أن (الحاكم بأمر الله) قد أصدر قانونا صارما جدا ينص على معاقبة من يشتم صحابة النبي، وبعد أيام قليلة من هذا القرار، أمر بشتم الصحابة علنا في المساجد.. والأغرب من هذا ما فعله مع اليهود والنصارى عندما أصدر قوانين باضطهادهم ومعاملتهم كبشر من الدرجة الثانية، إلا أنه وفي نفس الوقت كان يقربهم إليه ويحسن معاملتهم!!.. ثم أنه كان يأمر بهدم الكنائس ومعابد اليهود، ليأتي بعدها بفترة وجيزة ليعيد بناء ما هدمه من أمواله الخاصة!!.. بل وتذكر كتب التاريخ أنه أصدر قوانين مشددة بمنع شرب الخمر، بل ومنع زراعة فاكهة العنب التي تستخدم في صناعة الخمر، وفي نفس الوقت ساعد التجار على تهريب الخمور وبيعها سرا!!.. كما أعلن خلال فترة حكمه بأنه يكره الكلاب كثيرا وأمر بمطاردتها وقتلها، في حين أنه كان يربي الكلاب في قصره ليطلقها ليلا إلى الشوارع!!.. ومن أشهر قوانينه حظر التجول الذي فرضه على الناس مهددا من يخرقه بالقتل، وكان حظر التجول يمتد من بعد صلاة العشاء حتى أذان الفجر، حتى إن مدينة (القاهرة) ليلا لم يكن يُشاهد فيها أحد أو يسمع بها أي صوت.. فكانت أشبه بالمقبرة أو بمدينة تسكنها الأشباح!!.. لقد ظنه البعض مجنونا، وظنه البعض الآخر على اتصال بالجن، لأنه كان في فترة من حياته منكبا على دراسة العلوم الروحانية، في حين اعتبره آخرون مصابا بمس شيطاني، والواقع أن موت هذا الرجل هو لغز آخر في حد ذاته، إذ تذكر كتب التاريخ أن (الحاكم بأمر الله) كان معتادا على الذهاب إلى جبل (المقطم) ليلا للتأمل، وقد ركب حماره ذات ليلة متجها إلى ذلك الجبل مع اثنين من الخدم كمرافقين له، وبعد خروجه وتوغله في الجبل اختفى مع الخادمين تماما دون أي أثر.. ولم يعرف أحد ما حدث له.. وهناك العديد من القصص والنظريات التي افترضت أنه قتل نتيجة مؤامرة محكمة تم تدبيرها للتخلص منه بسبب الديكتاتورية الشديدة التي اشتهر بها، في حين يرى البعض أن اختفاءه كان مرتبطا بالجن أو السحر.

[←3]

(3) هذا بالفعل ما يدعيه الوسطاء الروحيين.

[←4]

(4) تليباثي (Telepathy): مصطلح كان وما زال يثير الكثير من الجدل، والكلمة تعني تبادل الخواطر أو انتقال الأفكار من شخص لآخر دون استخدام أي وسائل مادية، أي أنها ببساطة القدرة على قراءة أفكار الناس، وهي قدرة يدعي البعض امتلاكها بالفعل وإن لم يثبت ذلك بشكل قاطع حتى الآن، وهناك دراسات عديدة جدا حول تلك الظاهرة وتجارب علمية حققت نجاحا لا بأس بها وأثارت الكثير من التساؤلات.

[←5]

(5) الانتقال الآني: مصطلح يطلق على انتقال الجسم المادي عن طريق تفكيك جزيئاته من مكان.. بحيث يعاد استقبالها وإعادة تجسيدها في مكان آخر.. كما يحدث تماما مع إرسال الفاكس. وهناك بالفعل تجارب عديدة في هذا الشأن حققت نجاحا محدودا، إلا أن نتائج تلك التجارب مشجعة كما يرى العلماء.

[←6]

(6) حقيقة.. إذ يجري العلماء منذ عام 1989 في ولاية (كاليفورنيا) الأمريكية أبحاثا ودراسات جادة لتلقين العلوم للجنين وهو في بطن أمه، إلا أن تلك التجارب لم تحقق نجاحا يذكر حتى الآن.

[←7]

(7) الخيمياء: علم ظهر قبل ألفي عام تقريبا، ويختلف كثيرا عن الكيمياء التي نعرفها، إذ تنقسم الخيمياء إلى قسمين، قسم يعتمد على التجارب العلمية، وقسم آخر يعتمد على السحر. وقد كان لعلم الخيمياء عدة أهداف رئيسية.. منها تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وإطالة الحياة إلى درجة قد تصل للخلود.. ونستطيع أن نقول أن الخيمياء هو علم خيالي في معظم نظرياته، ولكننا -وعلى الرغم من هذا-ندين له بالكثير، فعلى سبيل المثال، توصل الخيميائيون إلى معرفة عدد كبير من العناصر الكيميائية التي نعرفها اليوم، بعد أن كان الاعتقاد السائد في الماضي أن العناصر الأساسية هي الهواء، الماء، الأرض، والنار. لذا فإن علم الخيمياء يعتبر الأب الشرعي لعلم الكيمياء الذي نعرفه في زماننا الحالي.